THE

HAUNTING

OF HILL HOUSE

أفضل رواية رعب كُتبت عن منزل مسكون على الإطلاق،
جريدة وول ستريت

رواية

أشباح هيل هاوس

شيرلي جاكسون

ترجمة: شيرين هنائي

الرواق للنشر والتوزيع

أشباحُ «هيل هاوس»

شيرلي جاكسون

ترجمة: شيرين هنائي

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع: 2378/ 2019

الترقيم الدولي: 6 - 069 - 824 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

أشباح هيل هاوس

تأليف

شيرلي جاكسون

ترجمة

شيرين هنائي

الرواق للنشر والتوزيع

A dedication for my friend Jessica Barg.

Thank you.

مقدمة المترجمة

رواية «أشباح هيل هاوس» هي الرواية التي كتبتها شيرلي جاكسون بعد أن استلهمت خيوطها من بحث أجراه جماعة من الباحثين في مجال الماورائيات ونشروه لدى جمعية الأبحاث الماورائية في أواخر القرن التاسع عشر. بحثت شيرلي جاكسون في تاريخ المنازل المسكونة والعلوم الماورائية حتى استطاعت في النهاية أن تكتب قصة أشباح خاصة بها من منظور مختلف تمامًا عمّا ساد في عصرها من التركيز على الأحداث المرعبة من دون مراعاة التدقيق النفسي في الشخصيات وتأثير الظواهر الماورائية عليهم بشكل نفسي.

تم تحويل الرواية إلى فيلمين سينمائيين، كان أولهما عام ١٩٦٣م، وآخرهما عام ١٩٩٩م. كلا الفيلمين تم طرحة تحت اسم: «THE HAUNTING».

كان الفيلم الأقدم هو الأقرب إلى نص الرواية الأصلي، ونال استحسانًا كبيرًا من النُّقّاد، بينما لم يحب المشاهدون والمتخصصون الفيلم الأحدث، الذي ابتعد نوعًا عن تفاصيل الرواية وميلها لعرض التغير النفسي أكثر من تكديس المشاهد المرعبة كما حدث في الفيلم.

تم تقديم العمل أيضًا في شكل مسرحي مرتين، في العامين ١٩٤٦ و٢٠١٥م.

أذاع راديو «بي بي سي» مسلسلًا إذاعيًا مستوحًى من الرواية عام ١٩٩٧م.

نذكر هنا التجربة الأكثر شهرة، وهي تجربة مسلسل «نيتفليكس» الشهير: «THE HAUNTING OF HILL HOUSE»، الذي غيَّر أغلب تفاصيل الرواية، لكنه احتفظ بالعوامل النفسية التي تُميِّز الرواية الأصلية.. وتلقَّى المسلسل مديحًا عظيمًا واستحسانًا من أغلب المشاهدين.

أما عن الروائية الأمريكية شيرلي هاردي جاكسون، فقد وُلدت في عام ١٩١٦م وتُوفيت عام ١٩٦٥م نتيجة الوزن الزائد والإفراط في التدخين عن عمر ٤٨ عامًا. وقد كتبت ست روايات وما يفوق مائتي قصة قصيرة، كلها في مجال الرعب القوطي.

تلقت «جاكسون» إطراءً عظيمًا من روائيين مثل: نيل جايمان، وستيفن كينج، وسارة ووترز، وكلير فوللر، وغيرهم.

نشرت شيرلي جاكسون أولى رواياتها عام ١٩٥٤م تحت عنوان «عُش الطائر»، التي تحكي قصة امرأة مصابة باضطراب تعدد الشخصيات وعلاقتها بطبيبها النفسي.

تبعتها برواية «الساعة الشمسية» وعددٍ من الروايات والقصص القصيرة الأخرى.

كما كتبت «جاكسون» مسرحية للأطفال بعنوان «الأطفال الأشقياء»، التي استوحتها من رواية «هانزل وجريتل» الألمانية.

حصلت شيرلي جاكسون على عشرات الجوائز، حتى تم إنشاء جائزة

خاصة تحمل اسمها، تُمنح لأفضل الروايات في أدب الرعب والأدب النفسي والفانتازي.

عن تجربتي في الترجمة للروائية شيرلي جاكسون، شعرتُ لأول مرة، في أثناء قراءتي رواية «أشباح هيل هاوس»، أنني أنا من يكتب لا شخص آخر، كما شعرتُ بصِلَةٍ بيني وبين الكاتبة، وكأنِّي تناسُخ لها.

ظلَّت فكرة ترجمة أعمالها تلحُّ عليَّ لفترة طويلة للغاية، خاصة أنها تكتب كل ما أتمنى لو استطعت كتابته. كما تتميَّز أعمالها بمراعاة الجانب النفسي للشخصيات وتأثره بالخوارق التي يتعرَّض لها.

كان أكثر ما أصابني بالحيرة في ترجمة هذا النص هو اختيار اسمٍ يليق بالأحداث، مع عدم الابتعاد عن الاسم الذي عرفه القراء وجمهور الدراما للنص الأصلي.

كتبت «جاكسون» اسم «Hill House» بحروف تشي بكونه اسم علم، أكد نظرتها تلك استخدامها اسم «هيل هاوس» بإفراط في الرواية مع كل موقف يوحي بأن المنزل كيان عاقل حي، فلم أجد ترجمة «منزل التل» كافية لإضفاء المعنى الذي وصل إليَّ وإلى كل من قرأ الرواية بخصوص «هيل هاوس» وكونه كيانًا عاقلًا يوصَف بالشر والدناءة.

كذلك أحببتُ أن أترجم معنى أغنية وردت في الرواية، وهي الأغنية التي تحكي جريمة ولاية «جراتان». واهتممت بمراعاة إضفاء سمت الأغنية على الترجمة، فترجمت معنى الأغنية مسجوعًا كما كان في النص الأصلي.

ونظرًا لاختلاف العربية عن الإنجليزية، فقد تدخَّلت في إعادة صياغة بعض العبارات بشكل لا يغيِّر أي معنى. كما أعدت تنظيم الحوار في صيغ مفهومة للقارئ العربي من دون الإخلال بالمعنى والألفاظ التي اختارتها شيرلي جاكسون لتأكيد الاختلاف بين الشخصيات.

شمل النص الأصلي عددًا من العبارات التي تندرج تحت قائمة «حديث النفس» والتي كانت ترد على خاطر البطلة «إليانور فانس» ولا تنتمي للحوار أو السرد العادي، فاخترت لها الخط السميك كي أميِّزها عن السرد والحوار.

تجربة الترجمة لـ«شيرلي جاكسون» تجربة أصابتني بإدمان عوالمها وشخصياتها المتفرِّدة والمرسومة بعناية.. فأتمنى أن تتاح لي فرصة قريبة لترجمة باقي أعمالها الروائية والقصصية.

أتمنى أن تروق ترجمة «أشباح هيل هاوس» للقارئ العربي، وأن تكون الرواية إضافة إلى عالم الترجمة بالعربية.

١

لا يمكن لأي كائن حي أن يستمر لفترة طويلة في العيش في ظل واقع جاف، حتى إن البعض ليظن أن القراد والجنادب لا بُدَّ لها من الحلم أحيانًا.. لا بأس ببعض الخيال.

يشمخ منزل التل (هيل هاوس) وحيدًا في مواجهة التلال من حوله، يحوي الظلام بين جنباته. صمد «هيل هاوس» هنالك لمدة ثمانين عامًا، وربما يظل كذلك لثمانين عامًا أخرى.

في باطنه، استمرت جدرانه منتصبة، وأحجاره متراصة، وأرضياته راسخة، وأبوابه موصدة.. يغفو الصمت هانئًا في «هيل هاوس».

وأيًا ما كان يجول في جنباته، يجول وحيدًا.

***

كان «جون مونتاجيو» يحمل درجة الدكتوراه في الفلسفة، وحصل على درجته العلمية في علم الإنسان. إحساس غامض يقوده إلى الظن أن تحليل التجسدات الماورائية بشكل علمي يكمن في ذلك التخصص.

وبسبب بُعد أبحاثه عن المنطق العلمي المعروف، كان متوجسًا من استخدام لقبه كدكتور، لكنه كان دومًا يأمل في بعض الاحترام والسلطة العلمية استنادًا إلى تعليمه؛ فقد كلفه إيجار «هيل هاوس» لمدة ثلاثة أشهر كثيرًا من المال، وعلى الرغم من كونه موسرًا، فإنه كان يطمح إلى مساندة ـ مالية أو معنوية ـ من جهات علمية تدعمه، خاصة أنه قد أعلن عن موضوع تجربته الخاصة بأسباب وآثار الاضطرابات النفسية داخل بيئةٍ مما يطلق عليها «أماكن مسكونة بالأشباح».

كان يبحث، طيلة حياته، عن منزل مسكون حقيقي، وعندما سمع عن «هيل هاوس»، انتابته الشكوك في البداية، ثم قذفته الشكوك إلى الأمل ثم التحمُّس. فلم يكُن في مقدوره أن يترك «هيل هاوس» يُفلت من بين قبضته ما إن وقعت عيناه عليه.

كانت نوايا دكتور «مونتاجيو» تجاه «هيل هاوس» مستمدَّة من أساليب صائدي أشباح القرن التاسع عشر البواسل.. سيذهب للإقامة في «هيل هاوس» ويرى بنفسه ما يجري.. كان ينوي، في البداية، أن يحذو حذو سيدة مجهولة الاسم، ذهبت لتقضّي «باليتشن هاوس»، أكثر المنازل المسكونة رعبًا في أسكتلندا، بل أقامت حفلًا تجمع فيه المتشككين والمؤمنين بالخوارق ليشاهدوا فيه تجليات الأشباح ويلعبون الكروكيه! لكن من أين له اليوم بالمتشككين والمؤمنين ولاعبي الكروكيه؟

لذا، وجب على دكتور «مونتاجيو» أن يبحث عن مساعدين له

في تجربته، وهو بحثٌ عسير؛ حيث بدا له أن المهتمين بالماورائيات قد انقرضوا ولم يعُد أحد يملك المزاج الفيكتوري الرائق لتجربة مثل تلك الأمور.

ولأنه كان يعتبر نفسه شخصًا حريصًا وواعيًا، ظلَّ وقتًا لا بأس به في رحلة البحث عن مساعدين مناسبين، فمشَّط سجلات المرضى النفسيين، وصحف الإثارة، وأبحاث العاملين بعلم الماورائيات، وحصل على قائمة بأسماء أشخاص، متصلين بشكل أو بآخر، في وقت ما ولو بشكل عابر، بأحداث غير عادية.

من خلال هذه القائمة، قام بحذف أسماء من ماتوا، ومحبي لفت الأنظار، فحصل على ما يقارب الاثني عشر اسمًا. كل منهم سيصل إليه خطاب من دكتور «مونتاجيو» يدعوه فيه إلى قضاء الصيف، أو بعض منه، في منزل ريفي عتيق، لكنه مؤثَّث ومجهَّز بكل ما يلزم من وصلات مياه وكهرباء وتدفئة مركزية وفُرُش نظيفة.

وكان الغرض من تلك الإقامة ـ كما ورد في الخطابات ـ هو تقصِّي حقيقة القصص والادعاءات البغيضة التي لازمت «هيل هاوس» طيلة الثمانين عامًا الفائتة، لكن لم يذكر دكتور «مونتاجيو»، بشكل صريح، أن «هيل هاوس» مسكون بالأشباح.. فلأنه رجلُ علمٍ، لم يحب قط الجزم بشيء كهذا والإفصاح عنه قبل أن يرى بنفسه أحد التجسدات الميتافيزيقية في المنزل.

لم يصل إلى دكتور «مونتاجيو» ردٌّ عن دستة خطاباته المرسلة سوى من أربعة أفراد.. أما الباقون فيبدو أن الخطابات لم تصل إليهم بشكل أو بآخر، أو هم فقط فقدوا الاهتمام بالماورائيات، بل ومن المحتمل

أنهم كانوا أشخاصًا وهميين لم يوجدوا في العالم قط.

أما من وصلت إليه ردودهم، فقد كتب إليهم مُحدِّدًا يومًا مناسبًا لاجتماعهم، حين تكتمل فيه استعدادات «هيل هاوس» لاستقبال تجربته. ثم أرفق خطاباته بوصف تفصيلي للطريق؛ فقد كان «هيل هاوس» مكانًا يصعب الوصول إليه بدرجة كبيرة، جزء من هذه الصعوبة كان بسبب مَن يحيطون بالمنطقة من ريفيين.

في اليوم السابق لانتقال دكتور «مونتاجيو» إلى «هيل هاوس»، رأى أنه من الصائب أن يصحب معه في تجربته فردًا من العائلة المالكة للمنزل كممثل عنهم، بينما وصل إليه خطابان يعتذر في أحدهما أحد المرشحين عن عدم الحضور لظرف مفتعل للغاية، والآخر لم يُبدِ سببًا لاعتذاره.. أما المرشحتان المتبقيتان فقد جاءتا.

٢

كانت «إليانور فانس» في الثانية والثلاثين حين جاءت إلى «هيل هاوس».. الشخص الوحيد الذي كرهته بصدق ـ بما أن والدتها قد ماتت بالفعل ـ هو أختها. لم تكُن تميل كثيرًا إلى زوج أختها وابنهما ذي الأعوام الخمسة أيضًا، ولم يكُن لديها أصدقاء.

يعود ذلك إلى الأحد عشر عامًا التي قضتها منعزلةً في رعاية أمها المريضة، ما خلَّف لها بعضًا من مهارات التمريض، وقوة تُمكِّنها من مواجهة الصعاب من دون أن يطرف لها جفن.

لم تستطِع «إليانور» أن تتذكَّر قط أي بهجة في حياتها المنصرمة، بينما تغزل فترةُ تمريض أمها خيوطَ شعورَين مترابطَين بالذنب والملامة، بالضجر واليأس..

لم يكُن لها الخيار في خجلها وتحفُّظها؛ فلم يكُن في مقدورها الحديث إلى شخص آخر من دون ارتباك وهرولة خلف الكلمات المتفلّتة من لسانها؛ فلم تجد أبدًا من تحبه ويبادلها الحب.

عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، وأختها في الثامنة عشرة، ولم يكُن قد مرَّ على وفاة والدهما شهر، انهالت من السماء جلاميد من الصخر على منزلهما بلا إنذار أو سبب! استمر الوضع العجيب لمدة ثلاثة أيام، خلالها لم ينقطع تجمُّع الجيران والمارة حول البيت ليشاهدوا تلك الظاهرة الغريبة، بينما أصرت أمهما أن ما يحدث هو نتيجة لمكيدة من الجيران الذين يُضمرون لها الشر منذ سكنت في الجوار. بعد تلك الأيام الثلاثة، انتقلت «إليانور» وأختها للإقامة مؤقتًا عند صديق، وتوقف انهيار الصخور ولم تعُد تلك الظاهرة للحدوث بعدها مرة أخرى. وحين عادت العائلة لمنزلها ثانية، لم ينقطع العداء والتشكك من جهة جيرانهم.

اختفت القصة تمامًا من ذهنَي «إليانور» وأختها، على الرغم من تبادلهما الاتهامات وقتها أن إحداهما مَن تسببت في تلك الأحداث، حتى عادت الحادثة للظهور في قائمة دكتور «مونتاجيو» للحوادث الماورائية.

خلال الحياة المنسحقة التي عاشتها «إليانور»، تحمل أمها من الفراش لكرسيها المتحرك، والعكس، تحمل أطباق الحساء والشوفان ذهابًا وإيابًا، تختلس أوقات وهنها في حجرة الغسيل تبكي، لكنها دائمًا ما كانت تؤمن بأن الأيام المقبلة ستحمل لها دهشة ما، كانت تطمح إلى شيء مثل «هيل هاوس».

وحين وصل إليها خطاب دكتور «مونتاجيو»، قبلت عرضه بلا تفكير، على الرغم من إصرار زوج أختها على أن يتقصوا أمر هذا الدكتور الغامض ونواياه قبل أن تقبل، بينما أشارت أختها إلى أنه من غير اللائق أن تسافر فتاة غير متزوجة وحدها لمكان مجهول مع أشخاص

غير معروفين؛ فقد افترضت أن دكتور «مونتاجيو» - إن كان هذا هو اسمه الحقيقي - ربما يُضمر لها شرًا أو ينوي إجراء تجارب من نوع ما عليها، لكن هذا كله لم يفت في عضد «إليانور»؛ فقد قررت أن تذهب إلى «هيل هاوس» على الرغم من كل شيء.

***

«ثيودورا»، ذاك كان اسمها، مكتوب على لافتة متجرها وشقتها وقائمة الهاتف وصورتها الفوتوغرافية الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة، بينما كانت تحمل لوحاتها توقيع «ثيو» فقط.

لم تكُن «ثيودورا» تشبه «إليانور» بأي طريقة.. الواجب والضمير بالنسبة لها كانا ينتميان إلى خُلق فتيات الكشافة ولم يعنيا لها شيئًا قط.

عالم «ثيودورا» كان مبهجًا، ملونًا.. وجاء ذكرها في قائمة دكتور «مونتاجيو» لأنها - إلى جانب العطر الذي يتبع ضحكاتها الصاخبة في المعمل - قد استطاعت أن تثبت مهارة استنتاج أغلب الرسوم على أوراق اللعب المحجوبة عنها في معمل تجارب علم «الباراسايكولوجي»، مثبتة بلا شك أنها تملك إدراكًا فائقًا للحواس من نوعٍ ما.

ابتهجت «ثيودورا» حين وصل إليها خطاب دكتور «مونتاجيو»، وقامت بالرد عليه بدافع الفضول لا أكثر، لكن ربما موهبتها الفائقة للحواس جعلتها تستشعر أمرًا أكثر إثارة من ذلك الخطاب، ما حرَّك فضولها، لكنها كانت على نية مسبقة لرفض العرض، لكن ما إن وصلها خطاب لتأكيد الموعد من دكتور «مونتاجيو» حتى واتاها الشعور الملح

الغامض بالموافقة، ووجدت نفسها منساقة نحو عراك عنيف مع صديقتها المقيمة معها. تبادلتا كلمات من النوع الذي لا يمكن التراجُع عنه، قامت «ثيودورا»، من طرفها، بتهشيم مجسَّم صغير ـ كانت قد نحتته لها صديقتُها ـ إلى ألف قطعة، بينما مزَّقت صديقتها نسخة من كتاب «ألفريد دو موسيه» كانت قد أهدتها «ثيودورا» إياه في يوم ميلادها، متخذةً من تقطيع الصفحات التي أحبت «ثيودورا» محتواها لذةَ انتقامٍ لا توصف.

بالطبع تلك أفعال لا تُغتفر، وقبل أن تضحكا على فعلتيهما الطفوليتين كعهدهما وتنسيا ما حدث، قامت «ثيودورا» بكتابة تأكيد وأرسلته لدكتور «مونتاجيو»، وغادرت الشقة في هدوء بارد في الصباح التالي.

***

كان «لوك ساندرسن» كذوبًا، وكان لصًّا. دائمًا ما كانت عمته، مالكة منزل «هيل هاوس»، تشير إلى أن «لوك» قد حصل على أرفع تعليم وأفضل ملابس وأروع ذوق، لكنه حظي كذلك بأسوأ صحبة سمعت بها منذ ولادتها. كانت تأمل دومًا في فرصة تمنحه بضعة أسابيع بعيدًا عن رفقة السوء تلك، فأرسلت محاميها يخبر دكتور «مونتاجيو» أن «هيل هاوس» لن يتم تأجيره له لأغراضه البحثية من دون وجود فرد من العائلة المالكة للمنزل. وعند لقاء دكتور «مونتاجيو» «لوك» لأول مرة، لمس فيه قوة خاصة وغريزةَ حفاظٍ على النفس تشبه غريزة القطط، ما جعل الدكتور قلقًا من صحبته على النحو ذاته الذي كانت تشعر به السيدة «ساندرسن» وللأسباب نفسها.

لكن «لوك» كان مسليًا لطيف الصحبة؛ لذا قبل الدكتور «مونتاجيو» صحبته برضا نفس فشكرته العمة متنفسة الصعداء.

تأكد المحامي من أنه ما من شيء بالمنزل يمكن لـ«لوك» سرقته؛ فعلى الرغم من وجود بعض المقتنيات الثمينة في «هيل هاوس»، فإنها ستستلزم من «لوك» مجهودًا جمًّا لسرقتها وتحويلها إلى ما يمكن بيعه بسهولة.

ولكم ظلمت السيدة «ساندرسن» «لوك» بظنِّها؛ فهو لن يهتم بسرقة فضيات «هيل هاوس»، أو ساعة جيب دكتور «مونتاجيو»، أو سوار «ثيودورا». فكانت وضاعته تنحسر في سرقة المال من حقيبة عمته والغش في أوراق اللعب. وكان لا يجد غضاضة أبدًا في بيع الهدايا الثمينة التي يتلقاها من أصدقاء عمته بشغف وامتنان. وسيرث «لوك» «هيل هاوس» يومًا ما، لكنه لم يفكر قط أنه سيقيم فيه.

٣

قال زوج أخت «إليانور» بعناد:

ـ أنا فقط لا أحبذ أن تأخذ السيارة.

صاحت «إليانور»:

ـ السيارة سيارتي بالمناصفة! لقد أسهمت في ثمنها!

رمق زوج أخت «إليانور» زوجته طلبًا للمؤازرة:

ـ أنا فقط لا أحبذ أن تأخذها.. هبي أن «ليني»، الصغير، مرض واحتجنا إلى سيارتنا لنقله إلى المشفى؟

ـ السيارة سيارتي بالمناصفة، وأنا أريدها!

ردت أختها «كاري» بتؤدة وهدوء:

ـ لا أظنني سأسمح بذلك، نحن لا نعرف الوجهة التي ستذهبين إليها

ولا أي رفقة ستصحبين.. هل نعرف؟ لا! لا أظنني سأترك سيارتي لك.

ـ لكنها سيارتي بالمناصفة!

ـ لا.. لن أسمح لكِ بأخذها.

ـ صحيح، كما قالت «كاري»، نحن نحتاج إليها.

قالها زوج الأخت بثقة.

ابتسمت «كاري» وأردفت:

ـ لن أسامح نفسي إن تركت لكِ السيارة وحدث خطب ما، كيف لنا أن نثق بذلك الدكتور؟ ما زلتِ امرأة صغيرة والسيارة تساوي الكثير!

ـ لقد تقصيتُ بدقة عن الدكتور «مونتاجيو» وعرفت أنه رجل ثقة يعمل في جامعة...

قاطعتها «كاري»:

ـ بالطبع لديك أسبابك الجاهزة لافتراض حسن سمعته، لكن العزيزة «إليانور» لم تخبرنا إلى أي مكان ستذهب أو كيف نصل إليها إذا احتجنا إلى السيارة.. ربما يحدث لك مكروه ولا نعرف به أبدًا. حتى لو كانت الصغيرة «إليانور» على استعداد لبلوغ آخر الأرض تلبيةً لدعوة رجل غامض، فلا يوجد سبب أبدًا لافتراض سيارتنا.

ـ إنها سيارتي بالمناصفة!

ـ افترضي أن الصغير «ليني» مرِض في الجبل في أثناء إجازتنا ولم نجد من ينجده، ألن نحتاج إلى السيارة وقتها؟

ـ على أي حال يا صغيرتي «إليانور»، أنا أفعل ما كانت أمنا ستفعله لو كانت مكاني.. كانت أمي تثق بي وتعرف أنني لن أتركك للحبل على غاربه، تذهبين حيث شئتِ بسيارتي.

ـ هبي أنني أنا شخصيًا مرضت في الجبل في أثناء إجازتنا...

ـ أنا متأكدة أن أمنا كانت ستحبذ رأيي يا «إليانور».

قال زوج أخت «إليانور» متحمسًا وكأن فكرة مفاجأة هبطت عليه من السماء:

ـ كيف سنعرف أنها ستعيد السيارة بحالة جيدة حتى؟ هه؟

***

ـ لا بُدَّ من مرة أولى دائمًا.

قالتها «إليانور» لنفسها وهي تنزل من سيارة الأجرة في الصباح الباكر، تعطي السائق بقشيشًا وافرًا وتنظر خلفها في قلق متسائلة ما إذا كانت أختها وزوجها يتبعانها، يقفان عند المنعطف ويتهامسان:

ـ ها هي ذي اللصة، بالضبط كما ظننا.

انعطفت «إليانور» بسرعة نحو جراج المدينة الكبير، حيث يحتفظون بسيارتهم المشتركة.. ظلت تنظر خلفها في حذر نحو نهاية الشارع فاصطدمت بسيدة ضئيلة فتناثرت محتويات أكياسها البلاستيكية في كل اتجاه. أبصرت «إليانور» شرائح الطماطم وقطع كعك الجبن وبقايا لفائف المخبوزات تنحدر تحت أقدامها.

صاحت السيدة الضئيلة وهي تدفع وجهها تجاه وجه «إليانور»:

ـ عليك اللعنة، عليك اللعنة! كنت سآخذها للبيت، عليك اللعنة، عليك اللعنة!

انحنت «إليانور» محاولة جمع ما تناثر، لكن بدا جمع شرائح طماطم وفتات مخبوزات أمرًا مستحيلًا. بينما راحت السيدة تجمع باقي أكياسها السليمة بعيدًا عن متناول يد «إليانور».. أخيرا استقامت «إليانور» واقفة باسمةً في حرج:

ـ آنا آسفة، أنا آسفة فعلًا.

ـ عليك اللعنة.

قالتها العجوز وأضافت في عجالة:

ـ كنت آخذها للغداء، والآن.. بفضل رعونتك...

ـ ربما أمكنني تعويضك..

قالتها «إليانور» وهي تفتح محفظتها، بينما وقفت السيدة ثابتة تمامًا تفكر، ثم انفرجت شفتا العجوز عن غضب جم، هاتفة:

ـ لن أستطيع أخذ المال هكذا.. لم أشترِ تلك الأشياء كما ترين، لقد كانت مجرد بقايا..

لو كنتِ رأيتِ اللحم هناك، لكن أحدهم قد استولى عليه قبلي. وكعك الشوكولاتة، وسَلَطة البطاطس.. وتلك الحلوى في الأطباق الورقية الصغيرة.. لقد تأخرت كثيرًا عن هذا كله.. والآن...

نظرت كلتاهما إلى الفوضى على الرصيف وهتفت العجوز:

٤

كان يومًا صيفيًا بهيجًا، من نوعية الأيام التي تعيد «إليانور» إلى ذكريات طفولتها، حين كان العالم يبدو في صيف أبدي. لا تستطيع تذكُّر أي شتاء قبل موت أبيها في يوم مطير. ولطالما تساءلت فيما بعدُ عمّا أضاع تلك الأيام الصيفية كلها، كيف أهدرَتْها كهذا؟ كنت ساذجة، وأنا الآن ناضجة وأعرف قيمة الأشياء جيدًا.

لم يُهدَر شيء أبدًا، حتى طفولة المرء، لكن في كل عام مع نفحات رياح الصيف الصباحية الدافئة، يمس عقلها خاطر مرير: كيف تركتُ الأيام كلها تذهب سُدًى؟

في ذلك الصباح، وهي تقود السيارة المملوكة لها ولأختها بالمناصفة، ابتسمت حين تخيلت تخبُّط أختها وزوجها حين يعرفان ما فعلته بالسيارة. تكاد ترى هلعهما ومحاولة تتبُّع الطرق التي قد تكون سلكتها في هروبها. تبتسم حين ترى نور الشمس يلمع على الطريق أمامها، لقد اتخذتُ خطوةً ما أخيرًا، أنا أتحرر!

حين حصلت من أختها على موافقة على قيادة السيارة الصغيرة، كانت تقود بحرص شديد حتى لا تُتلف السيارة أو تعرِّضها لخدش، ما كان سيثير حفيظة أختها ومن ثَمَّ تمنعها من القيادة مرة أخرى. لكن اليوم - مع صندوق حاجياتها على المقعد الخلفي وحقيبتها جوارها، مع قفازيها ومعطفها الخفيف ومحفظتها - السيارة مملوكة بالكامل لها، عالم صغير يحتويها. أنا حقًّا أتحرر.

مع آخر إشارة مرور في المدينة، ومع دخولها إلى الطريق السريع، أوقفت السيارة وأخرجت خطاب دكتور «مونتاجيو» الذي يحوي تعليمات الطريق. فكرت: غالبًا لن أحتاج إلى خارطة، لا بُدَّ أنه رجل مدقق حريص.

«الطريق ٣٩ إلى آشتون»، كما ذكر الخطاب «ثم انعطفي يسارًا إلى طريق ٥ المتجه غربًا وستصلين إلى قرية هيلزديل الصغيرة. اقطعي هيلزديل حتى تصلي إلى حيث الكنيسة على اليمين ومحطة الوقود على اليسار، ثم انعطفي يسارًا إلى ما سيبدو لكِ طريقًا ريفيًّا ضيقًا، سوف يصعد بكِ الطريق نحو التلال حيث يسوء الطريق أكثر فأكثر. اتبعي الاتجاه ذاته حتى تصلي إلى آخر الطريق - حوالي ستة أميال - وستصلين إلى بوابة «هيل هاوس». أكتب لكِ تلك التفاصيل حتى لا تضطري إلى التوقُّف في هيلزديل والسؤال عن الاتجاهات؛ فأهل القرية غلظاء وقحون مع كل من يسأل عن «هيل هاوس».

أنا سعيد بحضورك لرفقتنا في «هيل هاوس»، وسيسرني استقبالك في يوم الخميس الحادي والعشرين من يونيو..

انفتحت إشارة المرور، فدلفت إلى الطريق السريع متحررةً من وطأة المدينة، همست لنفسها: **لن يستطيع أحدٌ اللحاق بي الآن، ولن يعرف أحدٌ أي طريق سلكت.**

لم تقُد «إليانور» لمسافة كهذه من قبلُ، لكنها قسمت الطريق إلى محطات تسهِّله عليها. كانت الرحلة في حد ذاتها هي الفعل الإيجابي التي طالما تمنته.. وجهتها الغامضة غير المتخيلة، وربما غير الموجودة من الأساس.

تعمدت الاستمتاع بكل تفصيلة في طريقها، الأشجار والمنازل والقرى الصغيرة القبيحة. تتسلَّ بإغاظة نفسها بفكرة قد تطرأ على بالها في أي وقت تجعلها توقف السيارة في أي مكان ـ على الرغم من كون ذلك غير مسموح ـ وتجول على قدميها بين الأشجار إلى البقاع الريفية الرائعة الكامنة خلفها. ربما تجول حتى تتعب، تطارد الفراشات وتتبع الجداول، وتمضي ليلتها في كوخ حطَّاب فقير يعرض عليها أن تمضي ليلتها عنده.

ربما تمضي بقية حياتها في شرق بارينجتون أو ديزموند أو تلك القرية المنشقة عن بيرج.

ربما لا تترك الطريق أبدًا، ستستمر في القيادة حتى تبلى عجلات السيارة وتصل إلى نهاية العالم.

وفكرت «إليانور»: **ربما أذهب إلى «هيل هاوس»، حيث أحدهم ينتظرني ويمنحني الإقامة والطعام والتعويض المادي مقابل تركي مهامي في المدينة وتطوعي في هذه التجربة. ترى كيف يبدو الدكتور «مونتاجيو»؟**

كيف يبدو «هيل هاوس»؟ أتساءل: من سيكون هناك برفقتنا؟

كانت قد ابتعدت عن المدينة الآن، مقبلة على مدخل الطريق ٣٩، ذلك الطريق السحري الذي اختاره لها دكتور «مونتاجيو» من بين جميع الطرق في العالم، كي يقودها إليه وإلى «هيل هاوس». ليس ثَمَّة طريق آخر يأخذها من حيث كانت إلى حيث تريد سوى هذا الطريق.

الطريق - صديقها المقرب الآن - تلوَّى وانعطف تحت عجلات سيارتها، كاشفًا عن مفاجآت صغيرة: بقرة تحدِّق إليها من وراء سور قصير، كلب فضولي، الحقول والبساتين تشي باقتراب القرية الصغيرة عند سفح التلال..

في الطريق الرئيسي للقرية، ينتصب منزل بسيط جميل، مغلقة نوافذه بمصاريع خشبية، يحرس سلالمه الحجرية تمثالان لأسدين. خطر لها أن تسكن هنا في يوم ما، تنظف الأسدين من التراب كل صباح، وتربت على رأسيهما متمنيةً لهما ليلة طيبة في المساء. بدا لها وكأن الزمن نفسه قد بدأ صبيحة اليوم، لقد عشتُ عمرًا كاملًا في لحظات، أنظف الأسدين من الغبار صباحًا وأربت على رأسيهما ليلًا متمنيةً لهما ليلة طيبة. ومرة في الأسبوع أغسل وجهيهما ومخالبهما بالماء والصودا، وأنظف أسنانهما بخرقة. وفي داخل المنزل، كل الحجرات ذات سقف عالٍ، وأرضية لامعة نظيفة ونوافذ ناصعة. سيدة رقيقة عجوز تعتني بي، تتحرك في المنزل بأناقة حاملةً صحفة عليها طاقم الشاي الفضي، وتحضر لي كأسًا من النبيذ المعتق كل ليلة لأجل صحتي. أتناول عشائي وحدي في هدوء على منضدة العشاء المصقولة. وعلى الحوائط تضيء الشموع. يتكوَّن عشائي من لحم الطير والفجل من الحديقة، مع مربَّى البرقوق منزلية الصنع.

وحين أنام، أستلقي تحت سماء من الأورجانزا البيضاء على حين يحرسني ضوء خافت من الصالة. ينحني الناس لي في الطرقات فخورين بأسديَّ، وحين أموت...

كانت قد تركت البلدة الصغيرة خلفها الآن، وتتجه نحو طاولات وكراسي ولافتات مهترئة مكسورة، يبدو كأنها مخلَّفات من مهرجان كان هنا يومًا. كانت اللافتات تحمل أجزاء من كلمات متناثرة: «جَسور» و«شيطان».. لا بُدَّ أن سباقات الدراجات النارية التي تحمل اسم «الشيطان الجسور» كانت تُقام هنا أيضًا. ضحكت «إليانور» على سخف تفكيرها، وكيف أنها ترى النُّذُر في كل شيء. «الشيطان الجسور» مجرد اسم لسباقات يا «إليانور»، ولا شيء آخر مما تظنينه.

قامت بإبطاء سرعتها قليلًا كي لا تبلغ «هيل هاوس» قبل موعدها، ثم أوقفتها تمامًا على جانب الطريق وراحت ترمق ما حولها في ذهول؛ فعلى الرغم مما أبصرته في طريقها من مراعٍ وبساتين وحقول أزهار الدفلة القرمزية والبيضاء في صفوفها البديعة، وصلت الآن إلى بوابة تُنهي هذا الجمال وتقطعه، محمولة بين عمودين صخريين، من خلفها حقول خاوية محاطة بحرس من أزهار الدفلة. وفي هذا الخواء يمخر طريق موحش نحو نهاية الجدول.

ما الذي كان هنا ولم يعُد كذلك؟ ماذا سيكون لو جدَّ شيءٌ ما في هذا الجدب؟ منزل، حديقة، مزرعة؟ وهل اختفت من هنا للأبد أم ستعود مرة أخرى؟

أزهار الدفلة سامة، أعرف ذلك، هل يمكن أن تكون هنا حارسةً لشيء ما؟ هل أخرج من سيارتي وأسير نحو مربع الدفلة السحري

وأجد أنني قد توغَّلت في أرض خيالية محمية بالسم من أعين المارين؟

هل أعبر إلى منطقة محرمة عند ولوجي بين الأعمدة لأجد أنني قد كسرت تعويذةً ما؟ هل أجد نفسي في وسط حدائق غنَّاء والنافورات بين المقاعد المنخفضة المرصَّعة بالأزهار؟ سأجد ممشى وحيدًا ممهدًا بالياقوت والزمرد، خُلق لتمشي عليه ابنة ملك بقدميها الدقيقتين في صندلها الرقيق، وسيقودني الممشى إلى القصر المسحور. أسير مارَّةً بالنافورات، صاعدة السلالم الحجرية التي يحرسها تمثالان ضخمان لأسدين، لأجد الملكة في انتظاري، تبكي الأميرة المفقودة. وحين تبصرني ستسقط من فوق فخذيها قطعة التطريز، وتنادي الخدم ليعدوا لي مأدبة أسطورية؛ لأن السحر قد زال وانفكت اللعنة وعاد القصر إلى سابق طبيعته. وسنحيا سعداء معًا للأبد.

بالطبع لا، تعود «إليانور» لتشغِّل سيارتها، لو انفكت لعنة القصر فسيزول السحر كله، وسيعود كل ما أحاط بالقصر إلى أصله. تلك الحدائق والقرى والأبقار كلها سترجع مروجًا خضراء يانعة كلوحة من قصة خيالية، ثم سيأتي الأمير راكبًا على جواده وسط المئات من الشَّابين من جهة التل، تلتمع في الشمس جواهرهم ودروعهم.

ضحكت «إليانور» وودَّعت أزهار الدفلة السحرية: يومًا آخر، ربما، سأعود لأكسر تعويذتكم.

توقَّفت للغداء بعد أن قادت مئات الأميال. وجدت مطعمًا ريفيًّا صغيرًا يعلن عن نفسه تحت اسم «الطاحونة القديمة». وجدت لنفسها مقعدًا بجوار شرفة تطل على جدول متدفِّق.

ظلت ترمق الصخور المبتلة والماء النقي يتكسّر عليها وهي تأكل من طبق من الجبن القريش وأعواد الذرة. ولأنها الآن في أرض الأمنيات الممكنة، ظلت تفكر دومًا في «هيل هاوس» الذي ينتظرها في نهاية اليوم المرهق.

الوحيدون في الجوار كانوا عائلة مكونة من أب وأم وابن وابنة، وكانوا يتبادلون حديثًا هامسًا رقيقًا. التفتت الفتاة الصغيرة ونظرت إلى «إليانور» بفضول جاد للحظات، ثم ابتسمت. انعكس ضوء الشمس على مياه الجدول والمناضد اللامعة وحط على شعر الفتاة الملتف فزاده بريقًا. قالت الأم:

ـ هي فقط تريد كوب النجوم خاصتها.

نظرت «إليانور» متفاجئة، كانت الفتاة تغوص في كرسيها رافضةً تناول الحليب، بينما يعبس أبوها ويقهقه أخوها وتكرر الأم:

ـ هي فقط تريد كوب النجوم خاصتها.

بالتأكيد، أنا أيضًا أريده، كوب النجوم خاصتي!

ابتسمت الأم في حرج وراحت توضّح للمضيفين الذين صُعقوا لظنهم أن حليب الطاحونة القديمة لم يرُق للطفلة:

ـ تريد كوبها الصغير، المنقوش على قاعه من الداخل نجوم صغيرة، دائمًا ما تشرب اللبن فيه في المنزل وتشاهد النجوم الصغيرة المنقوشة في قلبه تظهر رويدًا رويدًا وهي تشرب؛ لذا تسميه كوب النجوم.

هزَّ النادل رأسه غير مقتنع، بينما همست الأم للفتاة:

ـ ستشربين اللبن الليلة في كوب النجوم حين نعود إلى المنزل.. لكن الآن، كوني فتاة طيبة واشربيه من هذا الكوب.

لا تفعلي ذلك! صمِّمي على كوب النجوم خاصتك! حين يخدعونك بكلماتهم كي تكوني مثل أي شخص آخر، لن تري كوب النجوم مرة أخرى!

نظرت الفتاة الصغيرة نحوها وابتسمت ابتسامة متفهمة وهزت رأسها رافضةً في عناد أن تشرب الحليب على طريقتهم.

فتاة شجاعة! فتاة شجاعة حكيمة!

صاح الأب مقطبًا جبينه:

ـ أنتِ تفسدينها بالدلال.. لا ينبغي لها التعلق بتلك التفاهات.

وضعت الأم زجاجة الحليب وقربت الآيس كريم من الفتاة العابسة:

ـ هذه المرة فقط، كلي الآيس كريم إذًا.

وحين همّت الأسرة بالرحيل، لوّحت الفتاة الصغيرة مودعة «إليانور»، وبادلتها «إليانور» الوداع. شرعت «إليانور» تُنهي قهوتها في فخر وهي تفكر أنها في منتصف طريقها إلى «هيل هاوس»، تتراقص في عقلها نغمة من أغنية قادتها لمقولة من مسرحية لا تذكر اسمها: «في التأخير لا يكمن الكثير»؛ فالمتأخر دومًا ما يخسر ملذات البدايات.

كادت تمكث أبدًا خارج آشتون، لمجرد أنها أبصرت كوخًا صغيرًا مندسًا في حديقة: يمكنني أن أعيش هنا للأبد.

تنظر إلى باب الكوخ الأزرق الموصد في شرود: لن يجدني أحدٌ هنا أيضًا، خلف تلك الزهور كلها. سأتأكد من زراعة بعض أزهار الدفلة السامة أيضًا. سأشعل النار في الليالي الباردة وأشوي التفاح على لهيبها. سأربي القطط البيضاء وأحيك الستائر البيضاء للنوافذ. وأحيانًا سأخرج لأتبضَّع بعض الشاي والقرفة والخيوط. يأتي لي الناس لقراءة طالعهم وسأحضر وصفات الحب للعذارى الحزينات. سأحصل على عصفور أبي الحن...

لكن الكوخ كان بعيدًا ولا يزال الطريق أمامها طويلًا، وقد آن الأوان لتعود إلى إرشادات دكتور «مونتاجيو».

«انعطفي يسارًا إلى طريق ٥ المتجه للغرب».. هكذا يذكر خطاب دكتور «مونتاجيو» وكأنه يحرِّكها عن بُعد بأدوات تحكُّم في يديه.

كانت على طريق ٥ وقد شارفت رحلتها على الانتهاء، وبدلًا من أن تُكمل إرشاداته بحذافيرها قررت التوقُّف لدقيقة في هيلزديل؛ فقط لأنها لم تتحمل أن تنتهي رحلتها بهذه السرعة. فلتتناول كوبًا من القهوة هناك. فهي لم تعصِ الدكتور على أي حال؛ فقد ذكر الأخير أن التوقُّف في هيلزديل «غير محبَّذ» للسؤال عن الطريق. لكنه لم يذكر أن تناول القهوة ممنوع هناك.

ظهرت هيلزديل أمامها قبل أن تنهي تفكيرها، كمجموعة من البيوت القذرة المتناثرة بعشوائية. كانت قرية صغيرة للغاية، فما إن دخلتها حتى أبصرت في نهاية الطريق الكنيسة ومحطة الوقود كما وصفهما دكتور «مونتاجيو» لها في الخطاب.

وجدت مكانًا وحيدًا صالحًا لاحتساء القهوة، وهو مكان منفِّر، لكن «إليانور» كانت قد قررت التوقف في هيلزديل أيًا ما كانت الظروف؛ لذا أوقفت سيارتها جوار رصيف مهشَّم وترجلت منها. بعد دقيقة من التفكير أغلقت سيارتها وهي قلقة بشأن حاجياتها القابعة في داخلها: لن أمكث طويلاً في هيلزديل..

نظرت إلى الطرق المقفرة المظلمة في وسط النهار، كلب ينعس في ظل حائط، سيدة تقف في مدخل منزل عبر الطريق وتحدِّق في «إليانور».

دلفت «إليانور» إلى المقهى سريعًا قابضةً على محفظتها ومفاتيح السيارة في ذعر.

في الداخل، وجدت خلف «الكاونتر» فتاة ملولًا ورجلًا يأكل أمامها. تساءلت: إلى أي مدى قد يكون الرجل جائعًا كي يأتي إلى هنا ويأكل بهذه الشهية؟ فقد كانت الأدوات مبقعة بالدهن والمكان غير معتنًى به.

- قهوة.

طلبتها «إليانور» من الفتاة خلف «الكاونتر». التفتت الفتاة في ملل وتناولت كوبًا من كومة الأكواب خلفها.

سأتناول هذه القهوة لأني قلت إنني سأتناولها. لكن في المرة المقبلة سأصغي إلى نصائح دكتور «مونتاجيو».

ثمَّة دعابة كانت تدور بين الفتاة والرجل، حين وضعت لـ«إليانور» قهوتها أمامها نظرت إلى الرجل وابتسمت نصف ابتسامة، فقهقه، فضحكت الفتاة. نظرت إليهما «إليانور» فوجدت الفتاة تحملق في أظفارها منشغلة، والرجل يمسح الطبق بلقمة من الخبز.

فكَّرت «إليانور» في احتمالية أن تكون قهوتها مسمومة، احتمال وارد.. لكنها قررت خوض التجربة للنهاية وطلبت كعكة «دونات». نظرت الفتاة إلى الرجل ووضعت قطعة الكعك في طبق ودفعته لـ«إليانور» ثم ضحكت عندما تلاقيت عيناها وعينا الرجل.

سألت «إليانور»:

- هذه بلدة صغيرة جميلة، ما اسمها؟

حملقت الفتاة فيها؛ فلم يجرؤ أحدٌ من قبل على نعت هيلزديل بالجمال.. نظرت الفتاة إلى الرجل مرة أخرى كأنما تطلب الموافقة وردَّت:

- هيلزديل.

- هل تعيشين هنا منذ زمن؟

لن أذكر «هيل هاوس». فقط أريد تزجية الوقت.

- نعم.

- يبدو لي أنه من الشائق أن يعيش المرء في بلدة لطيفة كهيلزديل. أنا قادمة من المدينة.

- طبعًا، لكن لا شيء يمكن للمرء أن يفعله هنا.

ثم نظرت الفتاة إلى الرجل الذي كان يصغي.

- كم تبلغ مساحتها؟

- صغيرة للغاية.. هل تريد المزيد من القهوة؟

كان السؤال موجَّهًا للرجل الذي كان يتسلَّى بخبط فنجانه في الطبق.

أخذت «إليانور» أول رشفة من قهوتها ولدهشتها كانت جيدة بالفعل.

ـ هل يأتي زوار إلى هنا، سائحون؟

ملأت الفتاة الفنجان وعادت تتكئ على الأرفف خلفها.

ـ ولماذا قد يأتون؟ لم قد يأتي أي شخص إلى هنا؟

نظرت نحو الرجل وأردفت:

ـ حتى إنه لا توجد دار سينما واحدة هنا.

ـ لكن التلال مبهرة، خاصةً من خلال الوجود في بلدة صغيرة منعزلة مثل هذه.. ربما هناك من أتوا من المدينة وبنوا لأنفسهم منازل على التلال طلبًا للخصوصية..

ضحكت الفتاة ضحكة مبتورة وغمغمت:

ـ ليس هنا..

ـ ربما يوجد من يجدد منازل قديمة...

ـ طلبًا.. للخصوصية..

رددتها وراحت الفتاة تضحك في مرارة.. قالت «إليانور» بحذر:

ـ كنت أفكر في أن أبحث في الجوار عن منزل يصلح لأشتريه وأجدده.. المنازل القديمة تكون أرخص كما تعلمين..

ـ لا توجد منازل هنا..

ـ إذًا، لا توجد منازل قديمة في الجوار.. أو على التلال!

- لا توجد..

نهض الرجل وأخرج من جيبه عملات وضعها أمام الفتاة وتحدَّث لأول مرة:

- الناس يغادرون هيلزديل وليس العكس..

بعد أن انغلق الباب خلف الرجل، أدارت الفتاة عينيها الباردتين نحو «إليانور» وهمست:

- هو على حق، الجميع يغادر، المحظوظون منهم.

- ولماذا لا تغادرين أنتِ أيضًا؟

- وهل سيكون حالي أفضل بعيدًا؟

تناولت الفتاة المال من «إليانور» بلا اهتمام وأعادت لها الباقي، ثم بنظرة خاطفة نظرت نحو الأطباق الفارغة على نهاية «الكاونتر» وقالت:

- هو يأتي كل يوم..

عندما ابتسمت «إليانور» إليها وشرعت في الحديث، كانت الفتاة قد أولتها ظهرها وتشاغلت بالأكواب على الأرفف.

شعرت «إليانور» وكأنها طُردت، فقامت شاكرةً من أمام قهوتها وتناولت محفظتها ومفاتيحها:

- وداعًا..

ومن دون أن تلتفت الفتاة ردت:

- حظ سعيد لك، أتمنى أن تجدي منزل أحلامك.

٥

كان الطريق البادئ من محطة الوقود والكنيسة فقيرًا للغاية، غير ممهد ومليئًا بالأحجار.. راحت سيارة «إليانور» الصغيرة تتأرجح وتهتز معترضةً على الخوض في ذلك الطريق المؤدي إلى التلال البغيضة، حيث يقترب اليوم من نهايته تحت تشابُك الأشجار الكثيفة فوق السيارة. أدارت «إليانور» عجلة القيادة سريعًا متحاشيةً صخرة بارزة على الطريق وهي تفكر: ستة أميال أخرى على طريق كهذا حتمًا ستدمِّر السيارة. لاحظت أنها تذكرت أختها لأول مرة منذ أن بدأت رحلتها فضحكت. لا بُدَّ أنها هي وزوجها قد اكتشفا الآن أنها قد أخذت السيارة ولكن لن يخمنا أبدًا إلى أين. بالتأكيد يلومان أنفسهما على ثقتهما بـ«إليانور».

الحق أنني لن أظن في نفسي أبدًا أنني قادرة على فعلة كهذه، كل شيء قد اختلف، أنا شخص جديد، بعيدًا عن كل ما ألفته.

«في التأخير لا يكمن الكثير».. «ما يجلب التسلية يجلب معها السعادة»..

شهقت «إليانور» حين صدر من السيارة صوت تكسُّر وصرير وزحفت فوق صخرة على الطريق، مادت بالسيارة عن مسارها للحظات. حاولت «إليانور» تدارُك الأمر، لكن السيارة ولجت بها وسط الأغصان المتشابكة وأظلمت نوافذ السيارة لثوانٍ.

لا بُدَّ أن «هيل هاوس» يحب التشويق، تساءلت «إليانور» عمّا إذا كانت الشمس تُشرق على هذه البقاع. شقَّت السيارة طريقها بعناء حتى عبرت الأغصان الجافة والأوراق الميتة، إلى حيث يتجلى «هيل هاوس» بالمساحات الشاسعة من حوله.

لماذا أنا هنا؟ تساءلت في بؤس: لماذا أنا هنا؟

كانت البوابة الحديدية مهيبة وثقيلة ومشؤومة، يحفها من الجانبين سور صخري يمتد حتى يختفي بين الأشجار. من مكانها داخل السيارة كانت تستطيع أن ترى القفل والسلسلة الحديدية الغليظة تلف وتربط جناحي البوابة.. أما الطريق الذي كانت تسلكه فبقيته تمتد نحو ظلمات الأشجار المتشابكة اللانهائية.

كانت البوابة مغلقة، مغلقة بقوة وإمعان. فتساءلت «إليانور» عمّن يريد اقتحامها بتلك الاستماتة حتى يتم منعه بهذه القوة. لم تحاول أن تخرج من السيارة، فقط أطلقت النفير فارتجت الموجودات من الصوت المفاجئ. بعد دقيقة أطلقت النفير مرة أخرى ورأت رجلًا قادمًا نحوها من خلف البوابة. كان كئيبًا وغير مرحِّب، تمامًا كالقفل على السلاسل الحديدية القابع أمامها. حشر رأسه بين القضبان صائحًا بصوت حاد مزعج:

ـ ماذا تريدين؟

ـ اريد أن أدخل لو سمحت.. هلَّا فتحت القفل!

ـ من قال إنني سأفعل؟

ـ لماذا؟ لا بُدَّ أن أدخل!

ـ لأي غرض؟

ـ هناك من يتوقَّع وصولي اليوم.

الا يوجد من يتوقَّع وصولي فعلًا؟ هل هذا هو منتهى رحلتي؟

ـ من يتوقَّع وصولك؟

كانت تعرف أنه يمارس سلطاته بسادية واستمتاع لا أكثر؛ لأنه إن فتح البوابة سيفقد حينها كل سلطة يظنها له عليها.

لكن أي سلطة أمتلكها أنا؟ أنا خارج البوابة بالفعل!

شعرت بنفاد صبر ـ وهو أمر نادر الحدوث لاعتقادها أنه غير مُجدٍ ـ لكنها كبتت شعورها كي لا يتركها الرجل ويرحل. بافتراض حسن نيته، ألا يمكن أن تكون لديه أوامر بعدم فتح البوابة؟ ألا يكون حينها مجرد رجل يؤدي مهام وظيفته؟

نظر لها وكأنه يعاينها، ثم صاح:

ـ الأفضل أن تعودي في وقت لاحق.

واستدار في انتصار واضح عائدًا من حيث أتى، فحاولت أن تبدو هادئة قدر المستطاع وهتفت:

- اسمع، أنا واحدة من ضيوف دكتور «مونتاجيو»، هو يتوقع حضوري الآن، رجاءً افتح لي.

التفت بابتسامة صفراء قائلًا:

- لا يبدو أن أحدهم ينتظرك، فلا أحد ممَّن تزعمين قد جاء! لا أحد سواكِ.

- هل تقصد أنه لا أحد في المنزل؟

- لا أحد أعلم بوجوده.. فقط زوجتي ترتِّبه؛ لذا فلا أحد فعليًا ينتظرك في الداخل، أليس كذلك؟

استندت بظهرها إلى كرسي السيارة وأغمضت عينيها.

«هيل هاوس».. أنت عسير المنال كالفردوس!

- أفترض أنكِ تعرفين ما أنت مُقدِمةٌ عليه بطلبك الدخول؟ ألم يخبروكِ بشيء في المدينة؟ هل سمعتِ أي معلومات عن هذا المكان؟

- سمعتُ أنني مدعوة هنا كضيفة الدكتور «مونتاجيو» وأنك ستفتح لي الباب حين أطلب الدخول.

- سأفتح البوابة.. حتمًا سأفعل، فقط كنت أريد التأكُّد من كونك تعرفين ما ينتظرك في الداخل. هل أتيتِ إلى هنا من قبلُ؟ هل أنت قريبة أحدٍ من العائلة؟

نظر لها وهو يتوجَّه إلى القفل والسلسلة مردفًا:

- لن يمكنني السماح لك بالدخول من دون أن أتأكد. قلتِ لي ما اسمك؟

ـ «إليانور فانس».

قالتها زافرة، ضيقة الصدر.

ـ لستِ من العائلة إذًا، هل سمعتِ شيئًا عن هذا المنزل؟

هذه فرصتي، لقد مُنحتُ فرصة أخيرة، يمكنني أن أستدير بسيارتي الآن أمام تلك البوابات وأفرَّ، لن يلومني أحد.

أخرجت رأسها من نافذة السيارة وهتفت في غضب:

ـ اسمي «إليانور فانس»، ومتوقَّع وصولي اليوم إلى «هيل هاوس». افتح البوابة.

ـ حسنًا، حسنًا.

ظل الرجل يصلصل بالمفاتيح ويتظاهر بصعوبة مهمة فتح القفل. فتح البوابة بمقدار يسمح فقط بمرور السيارة. دخلت «إليانور» ببطء وهمت أن تصدمه بالسيارة فتراجع للخلف. ضحكت «إليانور» في نفسها؛ فقد أثارت حفيظته بالفعل. اقترب من السيارة من الناحية الآمنة وانحنى على النافذة فتوقفت.

ـ لن تحبي ما ستجدينه في الداخل، وستندمين على فتحي البوابة لك.

ـ ابتعد عن طريقي من فضلك؛ فقد عطلتني بما فيه الكفاية.

ـ هل تظنين أن بمقدورهم استبدال شخص آخر بي ليفتح البوابة؟ هل تظنين أن أحدًا سواي أنا وزوجتي سيصمد تلك الفترة كلها؟ هل تظنين أننا لا نقدر على إدارة المكان كيفما نشاء مقابل عنايتنا به وفتح

البوابات لأبناء المدينة الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء؟

ـ رجاءً، ابتعد عن السيارة.

لم تجرؤ «إليانور» على الاعتراف لنفسها أنه قد أرعبها ثقته بنفسه وظنه أنه يملك كل ما خلف الأسوار. عاد إليها اسمٌ ذكره دكتور «مونتاجيو» في خطابه..

ـ هل أنت «ددلي»، حارس المنزل؟

قلَّدها في سخرية:

ـ نعم أنا «ددلي»، حارس المنزل! من قد يكون هنا غيري؟!

خادم العائلة الوفي المعتد بنفسه.

ـ أنت وزوجتك فقط من يعتنيان بهذا المنزل كله؟

ـ ومن غيرنا؟

قالها وكأنه فخره ولعنته وعبئه.

تحرَّكت «إليانور» بالسيارة مبتعدة، محاذرة أن تبدو مذعورة في ابتعادها..

ـ أنا واثقة بأنك ستبذل قصارى جهدك في جعل إقامتنا طيبة، أنت وزوجتك بالطبع.

ثم أضافت بطريقة تقطع عن الحديث إيابه:

ـ لكنني أريد الدخول إلى المنزل في أسرع وقت ممكن.

ابتعد عن طريق سيارتها ممتعضًا وقال:

- أنا.. أنا لا أمكث على مقربة من المنزل بعد حلول الظلام.

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فخور ووقف بعيدًا عن السيارة. شعرت «إليانور» بالراحة والقلق في آن.

لن أستطيع التحرُّك بحرية في أثناء مراقبته لي هكذا، قط «تشيشاير» المهم المستهزئ.

ولتؤكد لنفسها أن نظرات «ددلي» لم تؤثر فيها، راحت تصفِّر، ولاحظت في غيظٍ أن الأغنية ذاتها راحت تفرض نفسها على عقلها (ما يجلب التسلية يجلب معها السعادة).

قالت لنفسها إن عليها أن تفكر جاهدة في شيء آخر، كانت واثقة بأن باقي الكلمات لن تكون مناسبة. فلتبتعد قليلًا عمَّا سيذكِّرها بماضيها، ولتلتمس الوقار في حضرة «هيل هاوس».

لمحت ما بين الأشجار والتلال ما بدا وكأنه سقف «هيل هاوس»، أو ربما برجه، لا بُدَّ أنه يعود إلى ذلك الزمن الذي كان للمنازل فيه أبراج ودعائم للزوايا مزدانة بزخارف خشبية، وربما تناثر الطابع القوطي في أركانه بنتوءاته ونهاياته المدببة ومخلوقاته الخرافية المرعبة، لن يكون ثمة موضع من دون زخارف.

ربما يكون في «هيل هاوس» ممرات سرية تقود إلى البلدة، ربما استخدمها المهربون في عصور قديمة. لكن، ما عسى المهربون أن يهربوا في هذا المكان القفر؟

ربما أقابل مهربًا وسيمًا و...

انعطفت بسيارتها إلى آخر الممشى، الذي سيضعها وجهًا لوجه مع «هيل هاوس». أوقفت السيارة وأطفأت المحرك وراحت تحدق في المنزل.

كان المنزل وضيعًا، دنيئًا إن جاز أن يُطلَق على منزل مثل تلك النعوت. ارتعدت وراحت الأفكار تدور بحرية في عقلها.

«هيل هاوس» دنيء، مريض، اهربي من هنا.. الآن!

٦

لا يمكن لعين بشرية أن تخطئ هذا الجنون العجيب في تصميم «هيل هاوس»، الزوايا غير المتناسقة والخطوط المائلة حيث وجبت عليها الاستقامة، هذا كلُّه حوَّل «هيل هاوس» إلى مكان يثير القنوط والرعب. حتى إن واجهة المنزل تعطي انطباعًا بأنه يراقبك بنوافذه المحملقة ونقوشه التي تبدو كحاجبين. أي منزل يمكن أن يعطي ذلك الانطباع إذا شوهد من موضع وإضاءة معينة، لكن «هيل هاوس» كان مريعًا من الزوايا كلها ومع مختلف الإضاءات، وكأنه لم يُبنَ، بل كوَّن نفسه بنفسه على تلك الهيئة، يشمخ برأسه إلى السماء مزدريًا ما حوله. كان منزلًا بلا رحمة، لم يُعَد أبدًا للسكنى، لم يُعَد للحب والأمل. حتى طقوس طرد الأرواح الشريرة لن تفلح في تغيير مُحياه، منازل مثل «هيل هاوس» ستظل على خلقتها إلى أن تُدمَّر.

كان عليَّ الهرب وأنا بعدُ عند البوابة.

مرَّرَتْ عينيها على الواجهة محاولةً أن تتعرَّف إلى مكمن شعورها المقيت نحو المنزل. ارتعدت كفاها وهي تُخرج سيجارة؛ فعلى الرغم من كل شيء هي خائفة من ذلك الهمس في عقلها الذي يدفعها دفعًا للهرب.

اهربي من هنا.. اهربي!

لكن هذا مَن جئت مِن أجله، لن أستطيع الفرار. لكم سيسخر مني «هيل هاوس» لو ولَّيتُ الأدبار!

محاولة ألَّا تنظر نحو المنزل - فهي حتى لن تستطيع أن تصف لك طرازه أو لونه بالنظر إليه، كل ما تعرفه أنه ضخمٌ وحالك - أدارت محرِّك السيارة مرةً أخرى متجهةً نحو سلالمه المؤدية إلى نقطة اللارجعة بالنسبة لها.

حول المنزل، يدور الممر الذي قادت فيه سيارتها، ربما في وقت آخر ستدور بسيارتها فيه بحثًا عمَّا يصلح كمرأب لها.

كانت سيارتها هي العلامة الوحيدة للقادمين بعدها على أن هناك بشريًا هنا، ربما يطمئنهم ذلك نوعًا. خرجت من السيارة وحملت حقيبتها وطوت معطفها على ذراعها.

حسنًا، ها أنا ذي!

كان عملًا بطوليًا أن تنقل قدمها إلى درجة السلم الأولى، كانت المرة الأولى التي تمس فيها «هيل هاوس»، وشعرت خلالها أن المنزل في استقبالها، ينتظرها في خبث وصبر.

«تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة»، كانت تلك هي بقية الأغنية التي جاهدت كي تنساها منذ قليل. ضحكت على عتبة «هيل هاوس». ثبّتت كلتا قدميها على خشب أرضية الشرفة، التي كانت تُحيط بالمنزل وتنحدر منها السلالم المؤدية إلى الممشى والحديقة.

صوت قدميها متضخّم في السكون الذي يلف المكان، حتى إنه أثار قشعريرة في جسدها.. رفعت كفها إلى مطرقة الباب الحديدية، التي كانت تحمل نقش وجه طفل، ناويةً أن تُحدث ضجيجًا أكبر هذه المرة؛ فربما كان «هيل هاوس» محتاجًا إلى تنبيه أوضح! انفتح الباب فجأة بلا أي تمهيد، ووجدت «إليانور» نفسها تحدّق في وجه امرأة لا يمكن أن تكون سوى زوجة الرجل على البوابة. التقطت «إليانور» أنفاسها سائلة:

ـ السيدة «ددلي»؟ أنا «إليانور فانس»، متوقَّع قدومي اليوم.

في صمت، تنحّت المرأة عن المدخل. كانت مريولتها نظيفة، وشعرها منسقًا، لكنها كانت تفوح بطابع من القذارة بلا أدنى سبب. كانت ملامحها العابسة الكئيبة وسوء الطبع المتبدّي على تقاسيمها مماثلةً لذاك الذي يظهر على زوجها.

هذا حكم خاطئ بالتأكيد، من جهةٍ لأن كل شيء حولها كئيب مظلم، ومن جهة أخرى لأنني قد توقعتُ أن تكون مثل زوجها في كل شيء. لو كنت قابلتها بعيدًا عن «هيل هاوس»، هل كنت سأملك الانطباع نفسه عنها؟

كانت القاعة التي تقفان فيها مفعمة بالزخارف الخشبية الداكنة، مظللة بثقل السلالم العظيمة على الجهة البعيدة من المكان. هنالك رأت

ما بدا وكأنه رواق آخر بعرض المنزل ينخفض قليلًا عن باقي المساحة. وعبر بئر السلم، رأت أبوابًا مغلقة بطول البهو العلوي.

على جانبي موضعها الآن بابان مزدوجان ضخمان، مزدانان بنقوش الفواكه والحبوب وأشياء أخرى لم تتبينها. كل الأبواب التي استطاعت أن تراها حتى الآن كانت مغلقة.

حين حاولت الكلام، غرق صوتها الواهن في غياهب الصمت المحيط، وكان عليها أن تحاول مرة أخرى بصوت أقوى:

ـ هل يمكنكِ أن تصحبيني إلى غرفتي؟

رنَت بعينيها نحو حقيبتها على الأرض، في محاولةٍ لحث السيدة «ددلي» على حملها، ورأت انعكاس ذراعها على الأرضية الخشبية البراقة فأجفلت للحظة.

ـ أعتقد أنني أول من يصل اليوم.. قلت لي إنك السيدة «ددلي»؟

أظنني سأبكي كطفل وأصرخ: «لا أريد المكوث هنا»!

التفتت السيدة «ددلي» ونظرت نحو الدرج، فالتقطت «إليانور» حقيبتها في طاعة وتبعتها؛ فقد كانت هي الشخص الحي الوحيد سواها في «هيل هاوس».

انعطفت السيدة «ددلي» في نهاية الدرج إلى اليمين، وأدركت «إليانور» أن مَن صمم المنزل لم يبذل جهدًا في سبيل إضفاء طابع موحد مريح، وكأنه كان يبغي الانتهاء من بنائه بأي طريقة، وقد أدرك أن للبيت إرادةً ما وسيصبح كما يشاء هو لا كما تم تصميمه.

في الطابق الثاني، تراصت أبواب الحجرات على جانبي رواق متسع، وقد تأكَّد لها أن الطابقين الثاني والثالث قد تم الانتهاء من بنائهما على عجالة، متبعين أيسر التصميمات الممكنة.

على الناحية اليسرى من الرواق درجات أخرى، ربما تصل حجرات الخدم بالدور الثالث إلى الطابقين السفليين. وفي نهاية الرواق من جهة اليمين، غرفة موصدة أخرى، لا بُدَّ أنها صُمِّمت كي تحظى بأوفر قدر من ضوء الشمس.

باستثناء النقوش الخشبية الداكنة والمنمنمات غير المتقنة على حوائط الرواق، لا يكسر شيء آخر حدة استرساله بلا هدف كشكل مستطيل ممل سوى صف الأبواب الموصدة.

عبرت السيدة «ددلي» الرواق وفتحت بابًا، ربما بشكل عشوائي:

ـ هذه هي الغرفة الزرقاء.

من التفاف الدرج، حسبت «إليانور» أن الحجرة ستكون مطلة على مقدمة المنزل. فتحركت نحوها مهتدية بالضوء المنبعث منها.

ـ يالجمالها!

قالتها وهي بعدُ واقفةٌ عند المدخل، تستشعر ضرورة أن تقول شيئًا ما، فلم تكُن الغرفة جميلة بأي مقياس. بالكاد تُطاق! كانت تحوي بين حوائطها انعدام التناغم نفسه الذي يعمُّ «هيل هاوس».

تنحَّت السيدة «ددلي» عن الباب كي تدخل «إليانور»، وبدأت في الحديث موجهةً كلامها، على ما يبدو، إلى الحائط:

ـ أضع العشاء على الخوان في حجرة الطعام في تمام السادسة مساء، يمكنكم أن تخدموا أنفسكم وتأكلوا كما تشاؤون؛ فأنا أرفع العشاء في الصباح التالي. سأحضر لكم الإفطار في تمام التاسعة صباحًا. هكذا تم الاتفاق معي. بالطبع لا يمكنني أن أراعي هندام الغرف؛ فأنا لا أخدم أحدًا.. هكذا تم الاتفاق معي، ليس عليّ أن أخدم أحدًا.

أومأت «إليانور» وهي بعدُ واقفة مترددة على عتبة الباب. أردفت السيدة «ددلي»:

ـ لا أمكث في المنزل بعد أن أضع طعام العشاء، لا أمكث بعد زحف الظلام، أنا أنصرف قبل حلوله.

ـ أعرف ذلك.

ـ نحن نعيش في البلدة، على بُعد ستة أميال من هنا.

ـ نعم.

وتذكرت «إليانور» بلدة هيلزديل. قالت السيدة «ددلي»:

ـ لن يكون ثمة أحد على مقربة لو احتجتم إلى المساعدة.

ـ أتفهَّم ذلك.

ـ لن يمكننا حتى سماع استغاثتكم في الليل.

ـ لا أعتقد أننا سنـ...

ـ لن يسمعكم أحد. لا يوجد من يعيش بالقرب من هنا، ولن يجرؤ أحد على الاقتراب أكثر من مسافة البلدة.

- أعرف.

قالتها «إليانور» في تعب. أضافت السيدة «ددلي» في غموض:

- في الليل، في الظلمات.

قالتها السيدة «ددلي» في غموض وانصرفت مغلقة الباب خلفها.

كادت «إليانور» تنفجر ضاحكةً وهي تتخيَّل نفسها تستغيث بالسيدة «ددلي».

- سيدة «ددلي»، أنا أحتاج إلى إغاثتك في الظلمات!

ثم ارتعدت خوفًا.

٧

وقفت «إليانور» وحيدة تعسة جوار حقيبتها، معطفها لا يزال مطويًّا على ذراعها. تمنّي نفسها بأن الرحلات تنتهي بلقاء الأحبة، تتمنى لو تعود إلى بيتها.

خلفها يقبع الدرج الداكن، والرواق اللامع، وباب المدخل الضخم، والسيد والسيدة «ددلي» الضاحكان عند البوابة، والأقفال والسلاسل وهيلزديل، وكوخ الأزهار وحدائق الدفلة والأسدان على المدخل. هذا كله قادها - تحت إشراف دكتور «مونتاجيو» - إلى الحجرة الزرقاء في «هيل هاوس».

كانت الحجرة بغيضة، تحاشت أن تتخذ خطوة أخرى إلى داخلها فتحسب عليها علامة للقبول.

الحجرة بغيضة وأنا لا أريد المكوث هنا، ما من مكان آخر يمكنني الذهاب إليه.

أوصلها خطاب الدكتور «مونتاجيو» إلى هنا، ولا يمكنه إيصالها إلى مكان أبعد.. بعد هنيهة، تنهدت وخطت إلى داخل الحجرة واضعةً حقيبتها على الفراش.

أنا هنا في حجرة «هيل هاوس» الزرقاء.

قالتها بصوت شبه مسموع لتؤكِّد لنفسها أنها الحقيقة.

كانت الحجرة زرقاء بحق، ستائر زرقاء تغطِّي النوافذ الكبيرة المطلة على الشرفة السفلية المؤدية إلى الممشى. الحوائط مزدانة بنقوش خشبية قديمة تصل إلى مستوى الكتف تقريبًا، يعلوها ورق حائط مزيَّن بورد أزرق صغير، ربما رغب أحدهم في تخفيف القتامة السائدة بورق حائط كهذا، لكن يبدو أن أملًا كهذا قد وأده «هيل هاوس» ببراعة.

نظرت «إليانور» إلى الغرفة ككل، تصميمها يشي بخطأ فادح يمكنها أن تدركه كلما نقلت بصرها من زاوية لأخرى. دائمًا ما تبدو الحوائط مائلة وتبدو الزوايا على غير ما يصح. تشوهات جعلت الحجرة لا تُحتمل.

أهذا هو المكان الذي يريدونني أن أمضي ليلتي فيه؟! أي كوابيس تنتظرني في تلك الأركان الظليلة؟ أي أنفاس قلقة ستتسلَّل إلى رئتيَّ؟ حقًّا؟ سأبيت هنا؟ حقًّا؟!

فتحت حقيبتها فوق السرير العالي، وطوَّحت حذاءها مستشعرةً الراحة. بدأت في وضع حاجياتها في الخزانة وهي تفكر في أن راحة الجسم تبدأ من القدمين، فانتعلت حذاءً خفيفًا، واختارت سروالًا يناسب أجواء المنازل الريفية المتعزلة كما تراءى لها، سروال كهذا لم ترتدِ مثله منذ زمن طويل، دائمًا ما كانت تلك النوعية من الملابس تثير حنق

أمها، حتى إنها دسته في قاع حقيبتها كي لا تجبن في آخر لحظة وتتركه من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تخشى فعلًا أن يراه أحد في حقيبتها.

وضعت فساتينها على المشاجب وألقت بحذائها الذي جاءت به إلى غياهب الخزانة، ثم وضعت الحقيبة الفارغة بجواره.

لن يكلفني جمع حاجياتي مرة أخرى سوى دقائق.

لاحظت أنها تضع حقيبتها في الركن بهدوء كي لا تُصدر أي صوت، كما لاحظت خفة حركتها وخطوتها، وكأن الصمت هو قانون «هيل هاوس» غير المكتوب. تذكَّرت أيضًا أن السيدة «ددلي» كانت تسير بلا صوت. حين وقفت أخيرًا منتصبة وسط الحجرة، أطبق عليها سكون «هيل هاوس» بكل قوته.

أبدو كمخلوق صغير قد ابتلعه وحش عملاق، ويستشعر الوحش حركاتي الضئيلة في أحشائه.

ـ لا.

قالتها بصوت عالٍ فتردَّد صداها. تحرَّكت بسرعة نحو الستائر وباعدت بينها، لكن الضوء الداخل إلى الحجرة كان شحيحًا. استطاعت أن تُبصر في الخارج سقف الشرفة السفلية وجزءًا من الممشى. في مكانٍ ما في الأسفل تغفو سيارتها، وسيلتها الوحيدة للفرار.

«تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة»..

لقد كان قراري أن آتي إلى هنا.

ثم أدركت أنها تخشى أن تعبر الحجرة مرة أخرى.

كانت تقف موليةً ظهرها شطر النافذة، تنقل بصرها من الخزانة إلى الباب، ومنه إلى المرآة إلى الفراش، وتهمس لنفسها أنها ليست خائفة على الإطلاق.

سمعت من بعيد صوت باب سيارة يُغلَق، ثم صوت خطوات سريعة راقصة تعبر الشرفة الخارجية أسفلها.

ثم دوى صوت مطرقة الباب.

هناك من أتى! لن أظل وحيدة ها هنا.

ثم جرت عبر الحجرة متوجهة إلى الرواق، نزلت الدرج مهرولةً حتى وصلت إلى القاعة. صاحت «إليانور» وهي تحدِّق وسط العتمة:

- أشكر الله أنك هنا! أشكر الله أن أحدهم قد جاء أخيرًا.

وأدركت أنها تتحدَّث وكأن السيدة «ددلي» لا تسمعها. وقفت الأخيرة منتصبة شاحبة وسط القاعة لا تبالي بما قيل، بينما تقف شابة فاتنة أمام الباب المفتوح وسط حقائبها الضخمة. هتفت «إليانور»:

- اصعدي معي إلى الأعلى، لن يتوجَّب عليكِ أن تحملي حقائبك بنفسك.

تهدَّجت أنفاس «إليانور» حماسًا وبدا كأنها لن تستطيع التوقُّف عن الكلام قريبًا، وكأن خجلها الطبيعي كان قد ذاب.

- اسمي «إليانور فانس»، وأنا جد سعيدة لأنكِ هنا!

- أنا «ثيودورا»، «ثيودورا» فقط.. ما لهذا البيت؟

ـ وهو بهذا السوء أيضًا في الأعلى، تعالي. اجعليها تعطيكِ الحجرة المجاورة لحجرتي.

صعدت «ثيودورا» خلف السيدة «ددلي»، وهي تحدِّق في الموجودات حولها: الجرة الرخامية في الركن، السجاد المنقوش..

كانت حقائبها أكبر من حقيبة «إليانور» بمراحل وأكثر فخامة، فعاجلتها «إليانور» بالمساعدة وقد شعرت بالراحة أن حاجياتها المتواضعة قد توارت عن الأنظار. قالت لرفيقتها:

ـ انتظري حتى تري حجرات النوم، أعتقد أن حجرتي كانت حجرة التحنيط!

ـ هذا هو منزل أحلامي! منعزل حيث يمكنني الانفراد بأفكاري.. فقط لو كانت أفكاري تدور حول القتل أو الانتحار أو...

قالت السيدة «ددلي» في برود، وفهمت «إليانور» أن أي حديث انتقادي أو سلبي عن المنزل يضايق السيدة إلى حدٍّ كبير.

ـ تفضلي.. الحجرة الخضراء.

هل تظن أن بإمكان المنزل سماعنا؟

ارتعدت «إليانور» للفكرة، استدارت «ثيودورا» وربتت على كتفها في تفهُّم. «ثيودورا» فاتنة، لا تبدو كشخص يليق بالوجود في مكان مقبض كهذا.

أنا أيضًا لا أنتمي إلى هنا، لست من الطراز الملائم لـ«هيل هاوس» ولا يبدو أن ثَمَّة شخصًا يليق بهذا المكان.

ضحكت «ثيودورا» وهي تشاهد رد فعل «إليانور» عن مرآها الحجرة الخضراء. قالت وهي تنظر بطرف عينها إلى «إليانور»:

- يا إلهي! ياﻟسحرها.. إنها تعج بالطاقة الإيجابية!

- أضع العشاء على الخوان في حجرة الطعام في تمام السادسة مساء، يمكنكم أن تخدموا أنفسكم وتأكلوا كما تشاؤون، فأنا أرفع العشاء في الصباح التالي. سأحضر لكم الإفطار في تمام التاسعة صباحًا. هكذا تم الاتفاق معي.

قالت «ثيودورا» وهي تحدّق في «إليانور»:

- أنت مرتعبة!

أكملت السيدة «ددلي» تقريرها بشكل آلي:

- بالطبع لا يمكنني أن أراعي هندام الغرف؛ فأنا لا أخدم أحدًا. هكذا تم الاتفاق معي، ليس عليّ أن أخدم أحدًا.

همست «إليانور»:

- كنت خائفة فعلًا حين ظننت أنني سأكون بمفردي طيلة الليل.

واستمرت السيدة «ددلي» مردفة:

- لا أمكث في المنزل بعد أن أضع طعام العشاء. لا أمكث بعد زحف الظلام، أنا أنصرف قبل حلوله.

همست «ثيودورا» بصوت رقيق:

- أنا هنا، لا تخافي يا «إليانور».

- «ثيودورا»، الحمام مشترك بين حجرتينا، حتى إن الحجرتين متطابقتان. مصادفة ممتازة!

كانت حجرة «ثيودورا» بنفس تفاصيل حجرة «إليانور» فيما عدا اللون فقط.

- «ثيودورا».. لم أرَ مكانًا بهذه البشاعة في حياتي.

- كأنه فندق أو معسكر فتيات يا «إليانور».

أكملت السيدة «ددلي» عباراتها كأنها لا تهتم إن كانت الشابتان تسمعانها:

- أنا أنصرف قبل حلول الظلام..

ضاحكة قالت «إليانور» لـ«ثيودورا»:

- لا أحد سيسمع استغاثتك في الليل.

لاحظت «إليانور» أنها ما زالت قابضة على مقبض الباب. وأمام عينَي «ثيودورا» الساخرتين تركت المقبض وتوجهت نحو النافذة:

- علينا أن نجد طريقة لفتح تلك النوافذ.

- لذا، لن يكون هناك أحد حولكم لو احتجتم إلى المساعدة، لن نسمعكم في الليل، لن يسمعكم أحد.

- «إليانور»، هل تشعرين أنك أفضل؟

- لا أحد يعيش بالقرب من هنا، ولن يقترب أحد أكثر من مسافة البلدة.

وضعت «ثيودورا» حقيبتها على الفراش وخلعت حذاءها قائلةً لـ طفولة:

ـ لا بُدَّ أنكِ جائعة، أنا أتضوَّر جوعًا، لا شيء يزعجني قدر الجوع!

ـ في الليل.

وابتسمت السيدة «ددلي» مردفة:

ـ في الظلمات.

ثم أغلقت الباب خلفها.

بعد دقيقة هتفت «إليانور»:

ـ إنها تسير من دون أن يصدر من خطواتها أي صوت.

ـ جسدها عجوز رقيق.

التفتت «ثيودورا» إلى غرفتها متفحصة:

ـ أسحب تشبيهي للغرفة بغرف الفنادق، هي أقرب لنُزُل الطلبة الذي كنتُ أقيم فيه لفترة.

ـ تعالي وشاهدي حجرتي.

فتحت «إليانور» باب الحمام المشترك وقادت «ثيودورا» إلى الغرفة الزرقاء.

ـ كنت أفرغ حقائبي وأفكِّر أن أحزمها مرة أخرى قبل مجيئك مباشرةً.

ـ صغيرتي البائسة! كل ما خطر ببالي وقت أن وقعت عيناي على

المنزل أنه من الممتع بحق مشاهدته يحترق ويتحوَّل إلى رماد! ربما نفعلها قبل أن نغادر..

- البقاء وحيدةً هنا كان مفزعًا بالنسبة لي.

- لا بُدَّ أن تري سكن الطلبة في الإجازات إذًا.

استدارت «ثيودورا» عائدةً إلى حجرتها. مع الصوت والحركة اللذين غمرا الغرف، شعرت «إليانور» بمزيدٍ من البهجة. علَّقت «ثيودورا» ملابسها على المشاجب ورتبت كتبها على الكومود.

نادت «ثيودورا» من حجرتها:

- هل تعلمين؟ يذكِّرني الوضع هنا بأول يوم في المدرسة، كل شيء مقيت وغريب، لا يعرف أحدٌ أحدًا، وتظنين أن الجميع سيسخرون من ملابسك.

ضحكت «إليانور» وألقت بسروال لها على الفراش.

- «ثيو»، هل أفهم حقًّا أن السيدة «ددلي» لن تأتي لنجدتنا لو احتجنا إليها ليلًا؟

- ليس هذا ضمن اتفاق عملها، هل قابلتِ الحارس اللطيف عند البوابة؟

- دار بيننا حديث شائق، قال إنني لن أستطيع الدخول، وقلت إنني أستطيع، ثم حاولت أن أدهسه بسيارتي لكنه تفاداها. ألا تعتقدين أن علينا الخروج من حجرتينا قليلًا؟ ما رأيك؟

- لن أخرج إذا لم تخرجي.

- لن أخرج إن لم تخرجي أنتِ! لن يستطيع أحدٌ الوقوف أمامنا معًا. لنذهب لاستكشاف المكان، لكم أود أن أتخلّص من هذا السقف فوق رأسي.

- الظلام يحل مبكرًا في تلك التلال ومع هذه الأشجار كلها..

وألقت «إليانور» نظرة عبر النافذة مرة أخرى، فوجدت أن الضوء لا يزال يغمر المكان.

- لن يعم الظلام قبل ساعة، أريد الخروج والتدحرُج على الحشائش!

أغلقت «إليانور» قميصها الصوفي الأحمر وهي تفكر كيف أن القميص والصندل الأحمر يتعاركان مع تلك الزرقة القاتمة حولها كلها. نظرت إلى انعكاسها في المرآة وظنت أن عليها ارتداء مثل تلك الألوان التي لم ترتدِها من قبلُ؛ فقد بدت جميلة عليها. سألت «إليانور»:

- هل تعرفين من سيكون في صحبتنا أيضًا، أو متى يصل؟

- الدكتور «مونتاجيو»، لكنني كنت أعتقد أنه سيكون هنا قبل الجميع.

- هل تعرفين دكتور «مونتاجيو» منذ زمن؟

- لم أقابله من قبل. وأنتِ؟

- وأنا أيضًا.. هل أنتِ مستعدة؟

- جدًّا..

خرجت «ثيودورا» من باب الحمام المشترك إلى حجرة «إليانور».

إنها بهية، لكم وددتُ لو أكون مثلها.

كانت «ثيودورا» ترتدي قميصًا أصفرَ فاقعًا مبهجًا. صاحت «إليانور» باسمةً:

- لقد أدخلتِ الضياء إلى تلك الحجرة أكثر مما تدخله النافذة!

تأكدت «ثيودورا» من بهائها في مرآة «إليانور» وهتفت في حماس:

- أظن أنه من واجبنا في مكان كئيب كهذا أن نضفي بعض البهجة، يعجبني اختيارك الأحمر. كلٌّ منا ستكون مرئية من آخر «هيل هاوس» لأوله.

ظلت «ثيودورا» تدقّق في هيئتها في المرآة وأردفت:

- هل كتب لك دكتور «مونتاجيو»؟

- نعم، في البداية لم أستطِع أن أحدد إن كانت مزحة أم لا، لكن زوج أختي تأكد من صفة دكتور «مونتاجيو».

قالت «ثيودورا» ببطء:

- حتى آخر لحظة - عندما وصلت إلى بوابة المنزل - لم أكُن أتصوَّر أن يكون هذا هو «هيل هاوس». لا يتوقَّع المرء أن يذهب بالفعل إلى أماكن كهذه.

- لكن بعض الأشخاص قد يأملون في مكانٍ كهذا.

التفتت «ثيودورا» ضاحكةً أمام المرآة وأمسكت بيدي «إليانور»:

- لنذهب للاستكشاف يا صغيرتي..

- لا يمكننا الابتعاد كثيرًا عن المنزل..

- أعدك ألّا أبتعد خطوة أكثر ممّا تحددينه أنتِ. هل تظنين أن علينا الاستئذان من السيدة «ددلي»؟

- غالبًا ما تراقبنا على أي حال، يبدو أن ذلك جزء من اتفاقها..

- اتفاقها مع من؟ «كونت دراكيولا»؟!

- هل تعتقدين أنه يحيا في «هيل هاوس»؟

- أعتقد أنه يمضي عطلات نهاية الأسبوع هنا، أقسم إنني رأيت وطاويط في الزخارف الخشبية بالأسفل.. هلُمّي..

هرولتا نازلتين، تتحركان كبقعتين من الضوء الملون والحياة عبر النقوش الداكنة والضوء المغبر للمكان، تشاهدهما السيدة «ددلي» في صمت.

- سنذهب للاستكشاف يا سيدة «ددلي»، سنكون بالخارج في مكان ما.

قالتها «ثيودورا» في مرح، وأضافت:

- وسنعود بالطبع قبل الظلام.

قالت السيدة «ددلي» وهي تنظر للاشيء:

- أضع العشاء على الخوان في حجرة الطعام في تمام السادسة مساء.

جذبت «إليانور» الباب الأمامي بقوة حتى فتحته، كان ثقيلًا كما بدا تمامًا. ووجب عليها أن تجد وسيلة أخرى سواه للدخول. قالت من خلف كتفها لـ«ثيودورا»:

- اتركي الباب مفتوحًا، إنه ثقيل بحق.. ضعي في فرجته إحدى

تلك المزهريات الضخمة لتبقيه مفتوحًا.

جرَّت «ثيودورا» مزهرية حجرية من ركن القاعة ووضعتها أمام الباب ثم خرجتا. كان الضوء الشاحب في الخارج يبدو ساطعًا مقارنةً بظلام المنزل، وكان الهواء عليلًا طيبًا. من خلفهما، حرَّكت السيدة «ددلي» المزهرية مرة أخرى إلى موضعها القديم، وانغلق الباب الضخم.

- سيدة لطيفة!

قالتها «ثيودورا» موجهةً حديثها للباب المغلق. للحظة بدت غاضبة، وتمنت «إليانور» ألَّا تنظر لها «ثيودورا» بهذا الحنق أبدًا. كيف تغيرت «إليانور» هكذا وقد عاشت حياتها خجولًا منطوية، بينما في نصف ساعة اعتبرت «ثيودورا» مقربة ومهمة، شخصًا يهمها غضبه أو رضاه؟ قالت «إليانور» في تردد:

- أعتقد...

التفتت إليها «ثيودورا» باسمةً فهدأ روع «إليانور» وأكملت:

- أعتقد أن في النهار، وفي أثناء وجود السيدة «ددلي» في المنزل، يجب علينا أن نجد مكانًا بعيدًا عنها.. ربما في ساحة الجولف أو داخل الصوبة.

- يمكنك أن تساعدي «ددلي» في حراسة البوابة.

- أو أبحث عن قبور مجهولة وسط نباتات القراص.

كانتا تقفان عند حاجز الشرفة، حيث تريان الممشى المتجه إلى الأشجار، والآخر المتجه إلى التلال ومنه إلى الطريق الرئيسي، عدا أسلاك الكهرباء التي تتصل بالمنزل، لم يكُن «هيل هاوس» من هذا العالم الذي تنتميان إليه.

التفتت «إليانور» واتبعت التفاف الشرفة الخارجية حول المنزل بالكامل وهتفت:

ـ انظري!

انعطفت «إليانور» عند الزاوية، خلف المنزل، تكوَّمت التلال في كتل ضخمة، تكسوها خضرة الصيف الغنية، ثم قالت غير متأكدة:

ـ هذا يسمونه منزل التل؟

ـ كل شيء هنا من الطراز الفيكتوري، حيث يتمرَّغ الجميع في طوفان من القطيفة والزخارف. أي شخص قد يأتي بعدهم أو قد جاء قبلهم سيضع منزلًا كهذا أعلى التلال حيث ينتمي، بدلًا من أن يدسه وسط مكان كهذا عند السفح.

ـ إن تَبوَّأ مكانًا عليًا فوق التلال سيبصره الجميع.. أنا مع إبقائه مخفيًا حيث هو.

ـ طيلة الوقت الذي سأمكثه هناك سأكون مرتعبة ظنًا أن واحدًا من تلك التلال سينهار فوقنا!

ـ لن تنهار فوقك يا «ثيو». التلال تنزلق ببطء وهدوء وسرية خلفك وأنتِ تحاولين الهرب منها.

ـ شكرًا!

ردت «ثيودورا» بصوت مرتعد ساخر.

ـ ما بدأه السيد «ددلي» أنهيتِهِ أنتِ ببراعة، وجب عليَّ الآن جمع حاجياتي والعودة إلى داري.

انطلت على «إليانور» دعابة «ثيودورا» وردها الساخر للحظة، التفتت إليها وحدَّقت في وجهها فرأت نظرة السخرية على وجهها وفكرت: هي أكثر شجاعة مني. لاحقًا ستكون الشجاعة هي المرادف لكلمة «ثيودورا» في ذهن «إليانور».

التقطت «ثيودورا» أفكار «إليانور» وعاجلتها بجواب سؤال لم تسأله:

- لا تكوني خائفة هكذا طيلة الوقت.

مدَّت يدها إلى خد «إليانور» ولمسته بإصبعها:

- لا نعرف أبدًا مصدر شجاعتنا.

نزلت «ثيودورا» الدرجات واندفعت نحو الأشجار:

- أسرعي، أريد أن أعرف إن كان ثَمَّة جدول في مكان ما.

- لن نستطيع التوغُّل بعيدًا.

تبعتها «إليانور» وبدتا كطفلتين تعدوان بين الأعشاب، ترحِّبان براح المكان وبهجته بعد جهامة «هيل هاوس». تسعد أقدامهما بلمسات الحشائش بعد صلابة الأرضيات الخشبية.

بغريزة شبيهة بغريزة الحيوانات، تبعتا صوت الماء ورائحته. هتفت «ثيودورا»:

- هنا طريق صغير.

قادهما الطريقُ إلى تصاعُدٍ مستمر في صوت الماء. وصلتا إلى مرج ذي صخور، حيث استطاع ضوء الشمس أن يغمرهما كلية على الرغم من ميل الوقت للغروب.

مع اقترابهما من سفوح التلال نادت «ثيودورا»:

ـ اتبعيني.

وجرت، فتبعتها «إليانور» منقطعة الأنفاس. توقفت «ثيودورا» فجأة عند حافة الجدول فكادت تسقط وتسحب «إليانور» معها. استلقت الشابتان عند الضفة المائلة وراحتا تضحكان. قالت «ثيودورا» وهي تعب الهواء:

ـ هذا مكان يجب أن يفاجئنا!

ـ كنت تركضين كأنك على وشك الغطس في الجدول!

ـ جميل، أليس كذلك؟

تموّجت مياه الجدول الرقراقة بجوار الأزهار الزرقاء والصفراء عند الضفة، ويدا عند الأفق المزيد من المروج والتلال المنخفضة والعالية التي ما زالت تعكس ضوء الشمس.. همست «إليانور» شاردة:

ـ أنا متأكدة من أنني كنت هنا من قبلُ.. ربما في كتاب حكايات خيالية.

ـ بالطبع.. هل يمكنك التقافز فوق الصخور وسط الماء؟

ـ هذا هو المكان حيث تلتقي الأميرةُ الأميرَ المسحور على هيئة سمكة ذهبية..

ـ كيف ستحيا سمكتك الذهبية في ماء لا يتجاوز عمقه ثلاث بوصات؟

- الأسماك الضئيلة تستطيع.. أسماك المُنوة ربما.

- وكلهم أمراء مسحورون؟

تمطّت «ثيودورا» فاردةً ساقيها مضيفة:

- ربما شراغيف الضفادع من تستطيع العيش هنا.

- لا.. أسماك المنوة.. ما زال الوقت مبكرًا على فقس بيض الضفادع، أراهن أننا سنجد بعضها لو بحثنا. اعتدتُ وأنا صغيرة أن أمسك أسماك المنوة في يدي وأطلق سراحها ببطء في الماء.

- يليق بك دور زوجة المزارع.

- هذا مكان مناسب للنزهات الخلوية، مع غداء بجوار الجدول وبعض البيض المسلوق.

ضحكت «ثيودورا» ضحكة رائقة:

- وسَلَطة الدجاج وكعك الشوكولاتة.

- و«ليمونادة» في ترموس صغير..

تدحرجت «ثيودورا» على العشب وكأنها على سرير فاخر وهتفت:

- كانوا مخطئين بصدد النمل، لا يوجد نمل هنا إطلاقًا. ربما بعض الأبقار أو الثيران، لكنني لم أرَ قط نملةً واحدةً في رحلة خلوية.

فتحت «ثيودورا» عينيها واعتدلت:

- هل لديكِ واحد من هؤلاء الأعمام خفيفي الظل؟ كان لديَّ عم

ينصحني بألّا أخاف إن طاردني ثور، كل ما عليّ فعله هو جذب حلقة أنفه فيهدأ.

طوحت «إليانور» زلطة صغيرة في الماء وراحت ترقبها وهي تختفي:

- هل لديك الكثير من الأعمام؟

- آلاف.. وأنتِ؟

بعد هنيهة ردت «إليانور»:

- الكثير بالتأكيد، من جميع الأعمار والأشكال والأوزان!

- لديك خالة تُدعى «إدنا»؟

- الخالة «مولي»..

- نحيفة نوعًا؟ ذات عوينات بلا إطار؟

- وبروش من العقيق.

قالتها «إليانور» باسمة.

- وترتدي دومًا فستانًا ورديًا في حفلات العائلة؟

- فستانًا ورديًا ذا أساور من «الدانتيل»..

- أعتقد إذًا أننا أقارب! هل كنتِ ترتدين تقويمًا للأسنان؟

- لا.. فقط نمش في وجهي.

- أنا التحقت بمدرسة خاصة من تلك النوعية التي تعلِّم الفتيات كيفية أداء تحية رسمية بانحناءة وكل شيء.

- كنت أمرض بالبرد طيلة الشتاء، كانت أمي تجبرني على ارتداء جوارب صوفية طويلة.

- أما أمي أنا فكانت تجعل أخي يصحبني إلى الرقص، وكنت أحب أداء التحية الرسمية بشكل جنوني، لا يزال أخي يكرهني لهذا!

- انكفأت في أثناء مراسم التخرُّج..

- نسيت دوري في مسرحية المدرسة..

- كنت أكتب الشعر..

- أنا الآن متأكدة من أننا أبناء عمومة!

ضحكت «ثيودورا» بصوت مجلجل، فالتفتت إليها «إليانور» وهمست:

- أخفضي صوتك، ثَمَّة ما يتحرَّك هناك..

حملقتا حيث أشارت «إليانور» وهما متجمدتان متلاصقتا الكتفين، يتحرَّك العشب هناك خلف الأشجار وكأن هناك كيانًا ما غير مرئي يسير على العشب ويداعب الحشائش ويحجب ضوء الشمس.

- ما هذا؟

نطقتها «إليانور» بالكاد، فأمسكت «ثيودورا» معصمها بقوة.

- لقد ذهب.

وعادت الشمس للسطوع مرة أخرى وساد الدفء.

- ربما كان مجرد أرنب.

- لم أرَ أي مخلوق..

- أنا رأيته لحظة نبهتِني.

قالتها «ثيودورا» في حسم كي لا تترك «إليانور» فريسة للخوف.

- كان أرنبًا وتوارى خلف الأشجار.

نظرت «إليانور» للشمس المائلة للمغيب وهتفت:

- لقد تأخرنا.

وقامت شاعرةً بمفاصلها متيبِّسة من كثرة الجلوس.

- تخيلي شابتين رائعتين مثلنا في رحلة خلوية خائفتين من أرنب!

مدت «إليانور» يدها لتساعد «ثيودورا» على النهوض:

- علينا العودة سريعًا.

ثم أضافت مُبرِّرةً تعجُّلها:

- لعلَّ الآخرين قد وصلوا إلى «هيل هاوس».

- علينا العودة للغداء هنا في وقت لاحق، رحلة خلوية على الطراز القديم على ضفاف الجدول.

- ويمكننا أن نطلب من السيدة «ددلي» بعض البيض المسلوق كذلك.

توقفت «إليانور» عن السير، ومن دون أن تلتفت أردفت:

- «ثيودورا»، لا أظننا نستطيع المجيء إلى هنا مرة أخرى.

وضعت «ثيودورا» ذراعها حول كتفي «إليانور» هامسةً:

- «إليانور»، هل ستتركينهم يفرّقوننا الآن بعد أن اكتشفنا أننا أبناء عمومة؟

٨

غربت الشمس بنعومة خلف التلال، انزلقت خلف كتلها الشبيهة بالوسائد. امتدت الظلال طويلة على الممشى حين وصلت «إليانور» و«ثيودورا» إلى الشرفة الخارجية لـ«هيل هاوس».

- هناك من ينتظر.

أسرعت «إليانور» خطاها ورأت «لوك» للمرة الأولى (تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة). سألت «ثيودورا»:

- هل تبحث عنا؟

تقدم «لوك» من حاجز الشرفة، ونظر إليهما في ضوء الغسق الشحيح ثم انحنى في تحية أنيقة مُرحِّبة.

- إن كنتما من الأشباح التي تسكن «هيل هاوس»، فأنا سأسكن هنا إلى الأبد..

شعرت «إليانور» بسخفه، بينما قالت «ثيودورا»:

- آسفة أننا لم نكُن هنا للترحيب بك، كنا نستكشف المكان.

- شمطاء عتيقة بوجه شبيه باللبن المتخثر رحَّبت بنا، شكرًا! ألقت في وجهي عبارة ترحيب تبعتها بما أذكر أنه «أتمنى أن أجدك حيًا حين أعود في الصباح» و«عشاؤك على الخوان» ثم غادرت.

- لا بُدَّ أنك رأيت زوجها السيد «ددلي»، حريٌّ بـ«الكونت دراكيولا» الانضمام إلى تلك العائلة اللطيفة.

- بما أن وقت التعارُف قد حان، فأنا «لوك ساندرسن».

بدأت «إليانور» أخيرًا في الحديث بعد تردد طال:

- أنت إذًا من العائلة المالكة للمنزل! ظننتُك من ضيوف دكتور «مونتاجيو».

- أنا بالفعل من العائلة المالكة، يومًا ما ستؤول إليَّ كومة الحجارة تلك. حتى هذا اليوم، فأنا مثلكما، ضيف من ضيوف دكتور «مونتاجيو».

ضحكت «ثيودورا» ثم أردفت:

- نحن «إليانور» و«ثيودورا»، شابتان كانتا تخططان لنزهة خلوية بجوار الجدول وأرعبهما أرنب.

- لديَّ خوف مميت من الأرانب.

قالها «لوك» موافقًا في أدب.

- لكن، هل يمكنني المجيء معكما لو حملتُ لكما سلة الطعام؟

- يمكنك أن تداعب أوتار قيثارتك وتعزف لنا بينما نأكل شطائر الدجاج. هل الدكتور «مونتاجيو» في الداخل؟

- هو في الداخل، يتباهى بمنزله المسكون.

صمت الجميع للحظات شعروا فيها بحاجتهم إلى الاقتراب من بعضهم البعض، ثم قطعت «ثيودورا» السكون بصوت راجف:

- لا يبدو أن عبارة «المنزل المسكون» مضحكة الآن، أليس كذلك؟ خاصة أن الظلام قد بدأ يسود.

انفتح الباب الضخم المظلم بغتة من خلف «لوك».

- أصدقائي.. مرحبًا بكم، أنا الدكتور «مونتاجيو»، تفضلوا بالداخل!

٩

وقف أربعتهم، للمرة الأولى، وسط البهو الرئيسي لـ«هيل هاوس». يحبس المنزل أنفاسه من حولهم محاولًا أن يحدد مكانهم، ومن فوقهم تغفو التلال يقظة. دوامات صغيرة من الهواء والنسيم تحوم حولهم وتهمس، في مركزها وقف أربعة أشخاص غرباء واثقين ببعضهم البعض. هتف دكتور «مونتاجيو»:

ـ أنا سعيد بوصول الجميع سالمين وفي موعدهم بدقَّة، مرحبًا بكم جميعًا في «هيل هاوس»، ولو أني أرى أن هذا الترحيب لا بُدَّ أن يصدر منك أيها الفتى كوريث للمنزل. على أي حال، أهلًا بك يا بني، هل يمكنك تحضير شراب «المارتيني»؟

١٠

رفع دكتور «مونتاجيو» كأسه إلى شفتيه ورشف آملًا في مذاق معتدل.

- مقبول، مقبول أيها الفتى..

ورفع كأسه محييًا:

- على شرف نجاح تجربتنا في «هيل هاوس».

سألت «ثيودورا»:

- كيف يمكن للمرء أن يستوثق من النجاح في مكان كهذا؟

ضحك الدكتور وأردف:

- حسنًا، سأسحب النخب.. أتمنى أن نحصل جميعًا على إقامة ممتازة، ويحظى كتابي بنجاح ساحق. لا أستطيع أن أطلق على إقامتنا هنا لفظة «عطلة» على الرغم من كونها كذلك لدى بعضنا، لكننا هنا في إقامة عمل من نوعٍ ما.

وتنهد في راحة، على الرغم من بحثه عن أرض صلبة وسط طوفان من الأفكار:

ـ سنكتب ملاحظاتنا عن المكان.. أعتقد أنها مهمة مقبولة وسهلة.

قالت «ثيودورا» متهكمة:

ـ ما دام لن يكتب أحدنا تورية عن «روح» العمل...

ـ روحْ...

نظر الدكتور إلى «ثيودورا» وأكمل:

ـ الروح.. آه، بالطبع.. لن يفعلها أحدنا..

وتردد قبل أن يكمل:

ـ بالطبع لن يستخدم أحد توريات عن الأرواح.

رشف دكتور «مونتاجيو» ثلاث رشفات متلاحقة من مشروبه الذي دفن نظره فيه. هتفت «إليانور»:

ـ كل شيء هنا غريب، أعني: في الصباح كنت أتساءل عن «هيل هاوس» وكيف سيبدو، والآن لا أصدق أن هذا كله حقيقي وأننا بداخله.

كانوا يجلسون في حجرة صغيرة من اختيار الدكتور الذي ضلَّ طريقه إليها أكثر من مرة، ولم تكُن حجرة مريحة. كانت ذات سقف شاهق ومدفأة ضيقة تبعث البرد على الرغم من النيران المضرمة بداخلها. كانت المقاعد زلقة غير مريحة، تزحف عليهم الظلال الملونة الكئيبة عبر أقمشة الأباجورات المتناثرة.

كانت الحجرة تعطي انطباعًا عامًا باللون البنفسجي، السجاد وورق الحائط وذلك التمثال الذي يمثل «كيوبيد» يطل عليهم من فوق رف المدفأة، الكل يحمل طابعًا بنفسجيًا ما.

عندما يصمت الجميع، ولو للحظات، يطبق عليهم سكون المنزل من الجهات الأربع. تتساءل حينها «إليانور» إن كانت حقًا في هذا المكان وليست في حلم ثقيل تحلمه في مكان بعيد آمن. تنظر إلى الحجرة حولها وتخبر نفسها أن هذا كله حقيقي، من النقوش على الحوائط حتى تمثال «كيوبيد». هؤلاء الأشخاص سيصبحون أصدقاءها.

كان دكتور «مونتاجيو» واثقًا مشرقًا ملتحيًا، كأنه خُلِق كي يجلس أمام مدفأة في حجرة لطيفة، وعلى فخذيه قط ناعس. تُحضر له زوجته الحلوى في جلسته تلك. وكان كذلك ـ الدكتور «مونتاجيو» ـ المحنَّك، الذي جاء بـ«إليانور» إلى هنا، رجلًا حسن الاطّلاع، عنيدًا.

على الجهة الأخرى من المدفأة، كانت «ثيودورا»، التي جلست على أكثر المقاعد راحة في المكان، ساقاها تتدليان من فوق المسند ورأسها مركون على ظهر المقعد. كانت تبدو كقطة تنتظر عشاءها.

أما «لوك» فلم يسكن في مكان واحد لحظة؛ استمر في الجيئة والذهاب عبر الغرفة مخترقًا الظلال، يملأ الكؤوس ويقلب حطب المدفأة ويداعب تمثال «كيوبيد». كان مشرقًا في ضوء النيران، مشرقًا وقلقًا.

عمَّ الجميعَ الصمتُ وراحوا ينظرون لاضطرام النيران، شاعرين بتعب سفرهم. قالت «إليانور» لنفسها: **أنا رابع أربعة في الغرفة، أنا واحدة منهم.**

قال «لوك» فجأة، وكأن حديثهم لم ينقطع بالصمت من قبلُ:

ـ حيث إننا جميعًا هنا، ألا يجب أن نتعارف؟ فنحن لا نعرف عن بعضنا سوى الأسماء حتى الآن. أعرف أن هذه «إليانور»، ترتدي الأحمر؛ لذا فتلك «ثيودورا» ذات القميص الأصفر.

ـ دكتور «مونتاجيو» ملتحٍ.

قالت «ثيودورا»، ثم أردفت:

ـ لذا فلا بُدَّ أنك «لوك».

ـ وأنتِ «ثيودورا» ما دمتُ أنا «إليانور»!

من يتحدث بطلاقة الآن؟ من يشعر بالانتماء والراحة؟ من يجلس جوار المدفأة مع الأصدقاء؟ «إليانور»؟! أنا؟!

ـ لستُ ملتحيًا؛ لذا فأنا «لوك» وأنت الدكتور «مونتاجيو».

نظر دكتور «مونتاجيو» حوله في سعادة وقال:

ـ أنا ملتحٍ، زوجتي تحب الرجل ذا اللحية، على جانب آخر، بعض النساء يكرهن اللحى ويفضلن رجلهن حليقًا نظيفًا. لا تؤاخذني يا بني؛ فزوجتي ترى الرجال غير الملتحين وكأنهم شبه عرايا.

ثم رفع كأسه نحو «لوك»، فقال الأخير:

ـ والآن، بما أنني عرفت أيًا منا أنا، فلأعرفكم بنفسي أكثر.. أنا، أعتبر نفسي مصارع ثيران.

ـ أنا أفضّل الرجال الملتحين.

أضاف «لوك»:

- إن كنّا سنجتمع هنا، فأقترح أن نحضر شيئًا أكثر راحة للجلوس؛ فكل شيء زلق غير مريح.

أجابه دكتور «مونتاجيو» بلهجة قاطعة:

- غدًا سنستكشف باقي المنزل ونحرّك أثاثه بما يناسبنا. والآن أقترح أن نرى ماذا حضَّرت السيدة «ددلي» للعشاء.

توقفت «ثيودورا» وسط خطواتها في حيرة وغمغمت:

- لا بُدَّ أن يرشدني أحدٌ إلى حجرة الطعام، لا أستطيع تحديد مكانها من هنا. هذا الباب يقود إلى الصالة الرئيسية؟

- لا يا عزيزتي، هذا الباب يؤدّي إلى حجرة الموسيقى.

نهض دكتور «مونتاجيو» وقاد الثلاثة:

- لقد درست جيدًا خريطة المنزل، وأعتقد أننا سندلف من هذا الباب ونسير عبر الطرقة، ثم نصل إلى البهو الرئيسي فنعبره إلى حجرة البلياردو ومنها إلى حجرة العشاء. ليس صعبًا كما ترون عندما تعتادون الطريق.

صاحت «إليانور»:

- ولماذا هذا التعقيد كله وتلك الغرف الغريبة كلها؟

قال «لوك» ساخرًا:

- ربما يحبون الاختباء من بعضهم البعض.

- ولا أفهم لِمَ يحيطون أنفسهم بتلك الألوان الداكنة كلها!

تبعت «ثيودورا» و«إليانور» دكتور «مونتاجيو» عبر الطرقة ومن خلفهما «لوك» يتوقف كل فترة ليفتح درجًا أو ينظر داخل ضلفة مغلقة، ويتساءل بصوت عالٍ عن غرام مُلّاك المنزل بنقوش رأس «كيوبيد» حتى على الستائر. قال دكتور «مونتاجيو»:

- بعض تلك الحجرات متداخلة، أي حجرة تحوي داخلها حجرة أخرى؛ لذا فأغلبها بلا نوافذ أو أبواب مباشرة تقود إلى خارجها من دون المرور بحجرات أخرى. لكنه أمر شائع في منازل ذلك العصر. الأغرب أنهم يغطون النوافذ الموجودة بالستائر الثقيلة طيلة الوقت.

فتح دكتور «مونتاجيو» باب الطرقة الضخم وترك الثلاثة يعبرون بينما يمسك بضلفتيه.

- وللمنزل أيضًا غرائبه، «لوك»، تعالَ وأمسك هذه الضلفة حتى أجد حجرة العشاء.

قطع دكتور «مونتاجيو» الردهة الرئيسية وفتح بابًا عملاقًا لتفوح منه رائحة طعام زكية.

- أهنِّئ نفسي؛ فقد قُدْتُكم إلى التحضُّر عبر غياهب «هيل هاوس»!

نظرت «ثيودورا» حولها وقالت:

- علينا أن نترك كل الأبواب مفتوحة؛ فأنا أكره التجوال في الظلام هكذا.

علقت «إليانور» وهي تدلف إلى حجرة العشاء:

- يجب أن نضع في فرجات الأبواب ما يمنع انغلاقها، كل باب هنا

ينغلق من تلقاء نفسه لو تركته لحظات.

قال دكتور «مونتاجيو»:

- غدًا، سأتذكَّر أن نضع موانع انغلاق على الأبواب.

ثم اقترب بسعادة إلى حيث تركت السيدة «ددلي» صفًّا مغطًّى من الأطعمة الدافئة زكية الرائحة.

كانت المائدة معدة لأربعة أشخاص، تحيط بالأطباق أدوات المائدة الفضية والشموع. رفع «لوك» شوكة وحدق بها مجسدًا كل مخاوف عمته قائلًا لـ«ثيودورا»:

- فضة خالصة!

- أعتقد أن السيدة «ددلي» فخور بالمنزل.

قال دكتور «مونتاجيو» وهو ينظر إلى الطعام.

- لقد أبت إلا أن تقدم لنا أفخر مائدة.

- والأفضل أن السيدة «ددلي» أعدت الطعام وانصرفت، ما يحرمنا من صحبتها غير المرحَّب بها! فلنستمتع بالعشاء.

راح «لوك» يضع كميات كبيرة من الطعام في طبقه ويقول:

- أعتقد أنني قد ظلمت السيدة الطيبة، فقد تمنت أن تجدني حيًّا في الصباح وقد ظننت في أمنيتها السوء، لكنها كانت تعد لي ميتة أفضل بسبب التخمة.

تساءلت «إليانور»:

ـ ما الذي يجعلها هي وزوجها يمكثان هنا وحدهما؟

أجاب دكتور «مونتاجيو»:

ـ كما سمعت، فإن عائلة «ددلي» تتوارث خدمة المنزل منذ إنشائه، وكانت عائلة «ساندرسن» مرحِّبة بالإبقاء عليهما، غدًا...

قهقهت «ثيودورا» قائلة:

ـ أعتقد أن المنزل يليق بالسيدة «ددلي» أكثر من أي مالك آخر. ربما تنتظر موت آخر الورثة ـ أعني أنت يا «لوك» ـ بأبشع الميتات، لترث المنزل وما فيه من كنوز مخبأة في الحجرات السرية.

ـ لا توجد حجرات سرية في «هيل هاوس».

قالها دكتور «مونتاجيو» بلهجة حاسمة.

ـ كانت فرضية الحجرات السرية مطروحة من قبلُ، لكننا تأكدنا من خطئها، غدًا...

ـ معك حق، لا شيء يمكنك اكتشافه في مثل تلك الأبنية العتيقة.

قاطع «لوك» دكتور «مونتاجيو» وأكمل:

ـ لا يمكن للسيدة «ددلي» خنقي ما لم يكُن هناك يورانيوم مخفي في المنزل في مكان ما.

ضحكت «ثيودورا» قائلة:

ـ أو تخنقك لمجرد أنها تجد ذلك ممتعًا!

تساءلت «إليانور»:

- حسنًا، لكن لماذا نحن هنا؟

لدقيقة كاملة، حدَّق ثلاثتهم في وجهها، ثم أردفت «ثيودورا»:

- كنت على وشك السؤال: لماذا نحن هنا؟ ما خطب «هيل هاوس»؟

- غدًا...

قاطعت «ثيودورا» دكتور «مونتاجيو»:

- لا، نحن ثلاثة من البالغين الأذكياء، وقد قطعنا مسافات طويلة لتلبية دعوتك يا سيدي، «إليانور» تريد معرفة سبب اجتماعنا، وأنا كذلك.

- وأنا أيضًا.

قالها «لوك».

- لماذا دعوتنا إلى «هيل هاوس»؟ ولماذا أنت نفسك هنا؟ ماذا سمعت عن هذا المكان؟ ولِمَ هذه السمعة الملتصقة به؟ ماذا سيحدث هنا؟

قطب دكتور «مونتاجيو» جبينه في همٍّ وقال:

- لا أعرف.. أعرف القليل عن المنزل، وبالفعل أنوي أن أنقل لكم كل ما أعرف. أما بالنسبة لسؤالكم عن المتوقَّع حدوثه هنا فأنا ما زلت في الظلام مثلكم. غدًا قريب وستتحدث عن كل شيء في ضوء النهار...

قاطعته «ثيودورا»:

- لا أخاف الظلام..

- أؤكد لكم، «هيل هاوس» سيكون هادئًا الليلة. هناك نسق عام لما أتوقَّع حدوثه؛ فالظواهر النفسية تخضع لقواعد معينة خاصة بها.

- أعتقد أن علينا أن نعرف كل شيء الليلة.

قالها «لوك» قاطعًا.

- لسنا خائفين.

تنهد دكتور «مونتاجيو» مرة أخرى وأردف:

- لنفترض أنكم سمعتم قصة «هيل هاوس» الليلة وقررتم عدم البقاء، فكيف سترحلون؟

أدار نظره بينهم وأكمل:

- البوابات مغلقة، وعامةً «هيل هاوس» مشهور بإصراره على استضافه ضيوفه في المساء بأي طريقة، يبدو أنه يكره أن يتركهم يهربون منه ليلًا. آخر شخص حاول مغادرة «هيل هاوس» في الليل، حدث هذا منذ ثمانية عشر عامًا، وُجد قتيلًا عند منعطف الطريق، حين اصطدم حصانه بشجرة ضخمة وسحقه. فماذا ستفعلون لو حكيت لكم عن «هيل هاوس» ورغبتم في المغادرة؟ غدًا أحكي لكم، على الأقل الرحيل سيكون آمنًا في النهار.

صاحت «ثيودورا»:

- لكننا لم نأتِ كي نهرب.. أنا لن أفعل، وكذلك «إليانور» و«لوك».

- يالكم من مساعدين مزعجين! حسنًا، بعد العشاء نعود إلى حجرة اجتماعنا وسيحضر لنا «لوك» بعض «البراندي» وسوف أخبركم كل شيء عن «هيل هاوس». والآن، فلنتحدث عن الموسيقى أو الرسم أو حتى السياسة!

١١

أدار دكتور «مونتاجيو» كأس «البراندي» بين راحتيه وقال:

ـ أنا لم أقرر بعدُ ماهية الطريقة المُثلى لتحضير ثلاثتكم لمقابلة «هيل هاوس». بالتأكيد لم أستطع الكتابة لكم عنه في خطاباتي، ولا أرغب في إفعام عقولكم بتفاصيل تاريخية قبل أن تسنح لكم فرصة أن تستكشفوه بأنفسكم.

كانوا جالسين في القاعة الصغيرة، ناعسين، وقد فقدت «ثيودورا» كل أمل في أن ترتاح على أي كرسي، فاستلقت على واقي السجادة أمام المدفأة متربعة الساقين.

فكرت «إليانور» في مشاركة «ثيودورا» المكان، لكنها خشيت أن تلفت الأنظار إليها إن تحركت من فوق كرسيها الزلق غير المريح.

أذاب عشاء السيدة «ددلي» الشهي والدافئ وطول الحديث إحساس الغربة بينهم، وقد بدأ الجميع في اعتياد أصوات وضحكات بعضهم

البعض. فوجئت «إليانور» أنها قد أمضت حوالي خمس ساعات فقط في «هيل هاوس» والآن يبدو كل شيء مألوفًا لها كأنها عاشته منذ أعوام.

ابتسمت وهي تشعر ببرودة كأسها بين أناملها، ودفء الكرسي من تحتها، واحتكاك الهواء الراكد ببشرتها. الظلال ما زالت تقبع في الأركان، وتمثال «كيوبيد» يطل عليهم مبتسمًا بخديه المكورين الشهيين.

هتفت «ثيودورا»:

ـ يالَهُ من وقت مثالي لقصة مرعبة!

ردَّ عليها دكتور «مونتاجيو» بحدة:

ـ إذا سمحتِ، لسنا أطفالًا يحاولون إخافة بعضهم البعض هنا.

ابتسمت «ثيودورا» وهمست:

ـ معذرة، أنا فقط أحاول أن أعتاد وضعي الجديد هنا.

ـ دعونا نعتَد على الحذر في انتقاء كلماتنا.. لا مجال لمصطلحات مثل الرعب والأشباح والأرواح...

قاطع «لوك» دكتور «مونتاجيو»:

ـ أو الأيدي المبتورة في الحساء.

ـ يا عزيزي، لو سمحت، أنا أحاول أن أوضح أن مهمتنا ذات طبيعة علمية استكشافية، فلا بُدَّ من الابتعاد عن تبني الأقاويل والحكايات غير المؤكدة والتأثُّر بها في أحكامنا.

ابتسم دكتور «مونتاجيو» راضيًا عمّا قال ونظر للموجودين حوله مردفًا:

- كحقيقة مجردة، أبحاثي خلال السنوات الماضية أوصلتني إلى نظريات محددة عن بعض الظواهر النفسية التي أجد الفرصة سانحة الآن كي أختبر مدى صحتها؛ لذلك لا يجب عليكم أن تعرفوا أي شيء عن تاريخ «هيل هاوس» كي لا أؤثر على حياد التجربة.

غمغمت «ثيودورا»:

- فقط نكتب ملاحظاتنا..

- بالطبع، الملاحظات مهمة جدًا. في الواقع، بعد تفكير، وجدت أنه من الأفضل عدم ترككم بلا أي خلفية من أي نوع عن المنزل، خاصةً أن أغلب الناس لا يستطيعون مواجهة مواقف جديدة مفاجئة من دون أي تحضير. أنتم ثلاثة أطفال نزقين لن تتركوني وشأني من دون قصة ما قبل النوم!

قهقهت «ثيودورا» فنظر لها الدكتور مبتسمًا راضيًا عن كسر حدة كلماته التي بدأ بها الجلسة. ثم قام ووقف أمام المدفأة في وضعية التدريس التي يألفها. وشعر الجمْعُ بانتقالهم إلى مرحلة جديدة من مغامرتهم.

- دعونا نذكر أن المنازل ذُكرت في سفر اللاويين بصفة «بيوت مجذومة»، أو كما وصف «هوميروس» المنازل بـ«بيوت حادس» أو «منازل الموت». ادعاء البعض أن البيوت، لأسباب عدة، قد تكون نجسة أو محرمة كما قلتُ آنفًا هو ادعاء قديم قدم الإنسان نفسه. كما أن هناك أماكن تطغى عليها صفة الطهارة والقداسة. لن أكون منصفًا لو قلت إن هناك منازل معينة تولد ملعونة. «هيل هاوس»، على سبيل المثال، لم يكُن أبدًا ملائمًا للسكنى أيًا ما كان السبب. ربما أثّرت طباع ساكنيه

الأوائل أو ما فعلوه هنا أو حتى طبيعته الخاصة في كونه مكانًا بغيضًا، لن أستطيع أن أجزم أبدًا بالسبب؛ لذا، آمل أن نجد بعض الإجابات قبل رحيلنا، فلا يعرف أحد حتى لمَ قد تُنعت بعض البيوت بالبيوت المسكونة.

سأل «لوك»:

ـ وماذا تدعو «هيل هاوس» إن لم تستخدم وصف «بيت مسكون»؟

ـ أدعوه بالبيت المنزعج.. ربما البيت المريض، المجذوم، المجنون.. منزل مختل مغرور، هو الوصف الأقرب.. هناك تفسيرات علمية لما يظنه الناس أشباحًا أو كيانات نجسة. البعض يفسِّر تلك الظواهر النفسية الغريبة المرتبطة ببعض المنازل بوجود تيارات مائية تحتها أو تيارات كهربية، أو هلاوس مرتبطة بهواء ملوث. البعض يفسر كل شيء باختلاف الضغط الجوي، أو البقع الشمسية. تلك التفسيرات كلها لها مريدوها في أواسط المشككين في الظواهر النفسية. هم فقط يطمحون إلى إلصاق أسماء وتفسيرات ذات رنين علمي بكل شيء، بغض النظر عن صحتها.

تنهد دكتور «مونتاجيو» ونظر إليهم متهكمًا ثم أردف:

ـ منزل مسكون! هكذا اضطررت إلى استخدام تلك العبارة عندما أخبرت زملائي عن وجهتي هذا الصيف.

قالت «ثيودورا»:

ـ أنا أخبرت أصدقائي أنني سأشارك في تجربة علمية، لم أخبرهم بالطبع عن وجهتي أو طبيعة التجربة.

- لا بُدَّ أن أصدقاءك أكثر تقبلًا من أصدقائي لفكرة التجارب العلمية. لو أخبرتهم أنني ذاهب للتخييم في سنٍّ كسني، لن يصدقني أحد. المهم، سمعت لأول مرة عن «هيل هاوس» منذ عام تقريبًا من ساكن سابق له. بدأ حديثه معي بأنه غادر «هيل هاوس» لأن عائلته لم تحب السكنى بعيدًا عن المدينة، وأنهى حديثه بقوله إن المنزل لا بُدَّ أن يُحرق ويُنثر الملح في موضعه. علمت من مستأجرين آخرين لـ«هيل هاوس» أن أحدًا لم يقُم في المنزل أكثر من عدة أيام ولم يكمل أحدٌ مدة إيجاره قط. كانت أسبابهم تتراوح ما بين الرطوبة المرتفعة في المكان - وهو أمر عارٍ عن الصحة - وحاجتهم الملحة للمغادرة من دون سبب.

كل من سكن «هيل هاوس» غادره في عجلة، متعللًا بأسباب واهية. حاولت أن أعرف تفاصيل أكثر، لكن أحدًا منهم لم يبدُ متحمسًا للكلام، فضلًا عن زعم بعضهم أنهم لا يتذكرون تفاصيل الأيام التي قضوها في «هيل هاوس». لكنهم أجمعوا على نصحي بالابتعاد قدر المستطاع عن ذلك المنزل. لم يجرؤ أحدٌ منهم على الاعتراف بأن «هيل هاوس» مسكون، لكنني عندما زرت هيلزديل وراجعت الصحف التي...

قاطعته «ثيودورا»:

- صحف؟ هل نُشر شيء في الصحف عن المنزل؟

- بالطبع، خبر شائق يحوي بعض الفضائح: انتحار وجنون وملاحقات قضائية. وعرفت أن السكان المحليين للمنطقة لا يشكون أبدًا في كون «هيل هاوس» مكانًا مسكونًا. تعرفون كم من الصعب أن يجمع المرء حقائق من حكايات القرويين؛ لذا لم أجد مفرًا من زيارة السيدة «ساندرسن»،

«لوك»، وأوجز منها المنزل، وكانت واضحة وصريحة بشأن المكان غير المرغوب فيه...

قاطعه «لوك»:

ـ حرق المنازل أصعب ممّا تظن..

ـ لكنها وافقت على تأجيره لي لمدة قصيرة تتيح لي إنهاء أبحاثي على شرط اصطحاب أحد ملاك المنزل معي في أثناء إقامتي فيه.

أضاف «لوك» لكلام الدكتور «مونتاجيو» ساخرًا:

ـ يأملون في أن أمنعك من اكتشاف الفضائح اللطيفة الخاصة بالمكان.

ـ الآن، وقد شرحت لكم كيف وجدتُ هذا المكان وسبب وجود «لوك» بيننا، يجب أن أضيف أنكما هنا يا سيدتيَّ لأنني كتبت لكما وقبلتما دعوتي. أتمنى أن تبذلا قصارى جهديكما لمساعدتي في بحثي. «ثيودورا» أثبتت أنها تملك موهبة تخاطرية من نوع ما، بينما واجهت «إليانور» في طفولتها حادثًا مرتبطًا بظاهرة التحريك عن بُعد ربما أو «البولترجايشت».

تساءلت «إليانور» مندهشة:

ـ أنا؟!

ـ بالطبع.. في طفولتك.. هل تذكرين الأحجار التي أمطرت منزلكم؟

هزت «إليانور» رأسها نافية، ارتعشت أناملها حول كأسها وغمغمت:

ـ كان ذلك بسبب الجيران، قالت لي أمي إن الجيران هم من فعلوا ذلك بسبب غيرتهم منا.

قالها «لوك» باسمًا.

- أعتقد أننا كنا متوترين جميعًا اليوم، شخصيًا فزعت حين نظرت بشكل مدقق إلى واجهة المنزل.

شارك «لوك» دكتور «مونتاجيو» رأيه مضيفًا:

- وأنا كنت سأصطدم بشجرة من هول طلة المكان.

قالت «ثيودورا»:

- لكنني الآن شجاعة، في حجرة دافئة وبصحبة أصدقاء جدد.

- لا أعتقد أن بوسعنا المغادرة الآن حتى لو أردنا.

قالت «إليانور» العبارة الأخيرة قبل أن تدرك ما يجب قوله، وما سيبدو عليه كلامها أمام الجميع. رأتهم يحدقون بها فضحكت في حرج مضيفة:

- لن تغفر لنا السيدة «ددلي» أبدًا إن فعلناها.

تساءلت ما إن اقتنعوا بالفعل أنها تمزح، لكنها أرادت حقًا أن تقول إن المنزل لن يسمح لنا بالرحيل أبدًا.

- دعونا نشرب المزيد من «البراندي».

قالها دكتور «مونتاجيو» وعاد إلى وضعية التدريس مرة أخرى أمام المدفأة. بصوت محايد متعمَّد أردف:

- سأخبركم الآن قصة «هيل هاوس». بُني «هيل هاوس» منذ ما يقارب الثمانين عامًا. بناه رجل يُدعى «هيو كرين» كمنزل لعائلته ليرى

فيه أبناؤه وأحفاده يحيون في بيت فاخر جيلًا بعد جيل، وتوقَّع الرجل أن يقضي حياته فيه ويموت في سلام بين جنباته. للأسف، كان «هيل هاوس» منزلًا حزينًا منذ أن وُضعت أول لَبِنة فيه. ماتت زوجة «هيو كرين» بعد دقائق من رؤيتها للمنزل تحت عجلات العربة التي أتت بها إلى «هيل هاوس». دخلت المنزل الذي بناه زوجها لها فارغةً من الحياة. تركت له ابنتين ليرعاهما وحيدًا مكسور الفؤاد، لكنه لم يغادر أبدًا «هيل هاوس».

سألت «إليانور» في فزع:

- هل عاش أطفال هنا؟

- المنزل جاف كما قلت آنفًا، لا يوجد بالقرب منه مستنقعات تجلب الحمى للطفلتين، الهواء نقي وصحي، المنزل نفسه يعتبر فاخرًا. أعتقد أن طفلتين يمكنهما اللعب هنا في سعادة على الرغم من كونهما منعزلتين.

قالت «ثيودورا»:

- أتمنى أن تكونا قد لعبتا في المروج وقطفتا الأزهار، المسكينتان!

- تزوَّج والدهما مرة أخرى، كحقيقة مجردة، تزوَّج مرتين، لكن يبدو أنه لم يكُن محظوظا في زيجاته. توفيت زوجته الثانية إثر سقطة من على، ليس لديَّ معلومات عن تفاصيل أكثر. أما الزوجة الثالثة فقد تُوفيت في أوروبا جرَّاء إصابتها بالسل. في مكانٍ ما في المكتبة توجد مجموعة من كروت «البوستال» المرسلة من «هيو كرين» إلى ابنتيه من رحلته مع زوجته إلى أوروبا أملًا في الاستشفاء. فقد ترك الطفلتين هنا مع مربية حتى تُوفيت زوجة أبيهما. بعدها قرر «كرين» أن يغلق المنزل

وأرسل ابنتيه للعيش مع قريبٍ لأمهما حتى كبرتا.

قالت «ثيودورا» وهي ترمق نيران المدفأة:

- أتمنى أن قريبهما كان أكثر مرحًا من العجوز «هيو»، من الصعب ابتلاع حقيقة أن طفلتين قد عاشتا كالفطر في الظلام.

- لم يكُن هذا رأيَ الفتاتين؛ فقد قضتا باقي حياتهما تتصارعان أيهما أحق بـ«هيل هاوس»؛ فقد مات «هيو كرين» مباشرةً بعد زوجته ودُفن في أوروبا مع حلمه القديم بمنزل عائلة تتوارثه الأجيال. ترك «كرين» المنزل لابنتيه اللتين أصبحتا شابتين. ظل «هيل هاوس» خاليًا لعدة أعوام في انتظار عودة «هيو كرين»، أو ابنتيه، وفي تلك الفترة تم الاتفاق بين الأختين على أن ملكية المنزل ستؤول إلى الكبرى، تزوجت الأخت الصغرى...

قاطعت «ثيودورا» دكتور «مونتاجيو»:

- آها، سرقت الأخت الصغرى حبيب أختها.. لا شك في هذا.

- كنت أقول: إن الحب تخطَّى الأخت الكبرى، خاصة أنها تعيش في عزلتها في «هيل هاوس». كانت الأكثر شبهًا بأبيها، وعاشت في المنزل لسنوات كثيرة، حتى إن الجميع في هيلزديل كانوا يعرفونها. أحبت «هيل هاوس» بصدق، وكانت تراه كمنزل عائلتها. انتقت شابة صغيرة من قرية مجاورة كي ترافقها وتخدمها وتقوم على أعمال المنزل. قام نزاع بين الأختين وقتها، زعمت فيه الصغرى أنها لم تتلقَّ أي مال نظير تركها «هيل هاوس» لأختها الكبرى. كما لم تتقاسم الأختان مجوهرات العائلة ومقتنياتها الثمينة، ما أثار حنق الأخت الصغرى أكثر. سمحت

السيدة «ساندرسن» بإلقاء نظرة على مجموعة خطابات بين الأختين تطالب فيها الصغرى بحقوقها وتكرر طلبها طاقمًا من الأطباق المذهبة أبدًا. ماتت الأخت الكبرى بعد أعوام تأثرًا بالتهاب رئوي وبلا رفقة سوى خادمتها الشابة. قيل وقتها إن طلب الطبيب قد تأخر إهمالًا من الخادمة التي كانت برفقة شاب في الحديقة تاركةً سيدتها وحيدة. أيًا ما كان، أعتقد أن تلك التفصيلة محض شائعات، لكن الثابت أن الأخت الصغرى لم ترتَح قط وازداد غضبها المجنون بعد وفاة أختها.

قالت «ثيودورا» في غضب:

ـ لا أحب الأخت الصغرى، في البداية تسرق حبيب أختها، ثم تخطط لسرقة أطباقها! لا.. لن أحبها أبدًا.

ـ لـ«هيل هاوس» قائمة طويلة من المآسي التي حدثت فيه، لكن أغلب المنازل القديمة لها مآسيها؛ فالناس دائمًا ما تحيا وتموت في مكان ما. وقد ظل المنزل في مكانه ثمانين عامًا ولم يمُت أحد بين جدرانه سوى الأخت الكبرى. بعد موتها كان هناك نزاع على ملكية المنزل؛ فقد زعمت الخادمة أن سيدتها أوصت لها بالمنزل، بينما وقفت لها الأخت الصغرى وزوجها بالمرصاد، زاعمين أن الخادمة قد خدعت المرأة العجوز وجعلتها تتنازل لها عن المنزل الذي لطالما كانت تنوي أن تعهد به إلى أختها الصغرى بعد موتها.

أمام المحكمة وتحت القسم، زعمت الخادمة أن الأخت الصغرى جاءت إلى «هيل هاوس» في مساء يوم وسرقت بعض الأشياء الثمينة، منها بعض الفضيات، وبالطبع الأطباق المذهبة إياها. من ناحية الأخت الصغرى، فقد صعَّدت الأمر إلى اتهام الخادمة بقتل مخدومتها وسرقتها،

وطالبت بالتحقيق في الأمر. لا أعرف تفاصيل تلك القضايا، لكن في النهاية كسبت الخادمة قضيتها وأصبح المنزل ملكها بالقانون.

تابعت الأخت الصغرى تحرشاتها وتهديدها للخادمة، ولاحقتها بالشائعات المهينة في كل مكان. ومسجل لدى الشرطة طلب من الخادمة بحمايتها من تهديدات الأخت الصغرى.

قرأتُ خطابًا كتبته الخادمة تقول فيه إنها لم تنعم بدقيقة سلام منذ وفاة مخدومتها، خاصة أن أهل القرى المجاورة كانوا متعاطفين مع الأخت الصغرى، واقعين تحت سيطرة شائعاتها المحبوكة. ربما انصاعوا لتلك المزاعم غيرةً من الخادمة التي أصبحت سيدة في ليلة وضحاها. لم يصدق أحدٌ أنها قتلت مخدومتها، لكنهم كانوا على أتم استعداد لتصديق التشكيك في شرفها، حتى قتلت الخادمة البائسة نفسها..

صاحت «إليانور» في صدمة:

- قتلت نفسها؟ هل كان لا بُدَّ لها من الانتحار؟

- إن كنتِ تعنين أنه لا بُدَّ من حل أقل تراجيدية، فلا أعتقد أنها رأت حلًا كهذا. ظن الجميع أنها انتحرت بسبب إحساسها بالذنب تجاه ما فعلته. أما أنا فأعتقد أنها كانت واحدة من النساء الخائبات اللاتي لا يستطعن التمسُّك بحقوقهن فلا تحتمل أعصابهن الصراع والضغط النفسي. بالطبع لم تكُن تملك ما ترد به عداء الأخت الصغرى ولا حملتها لتشويه سمعتها، ولا على أصدقائها في القرية الذين انقلبوا عليها، ويبدو أن الجنون تسلَّل إليها ولم تمنعه الأقفال ولا المزاليج التي ظنت أنها تمنع بها تسلل السارقين إلى بيتها ليلًا.

هتفت «إليانور»:

- كان يمكنها الفرار وترك المنزل..

- لقد هربت بالفعل، الفتاة شنقت نفسها بحبل على برج المنزل. عندما تمتلك منزلًا ذا برج فلا يبدو أن الانتحار بطريقة أخرى خيار ملائم. بعد وفاتها، انتقل المنزل إلى ملكية عائلة «ساندرسن»، الأقارب الوحيدون لها من ناحية الأب. أخبرتني السيدة «ساندرسن» أن وقت قدوم العائلة لتسلُّم المنزل وجدوا الأخت الصغرى على قارعة الطريق تطردهم في جنون، ولم يجدوا حلًّا سوى إبلاغ الشرطة، ويبدو أنها المرة الأخيرة التي تظهر فيها الأخت الصغرى في تلك القصة. لكنها لآخر يوم في حياتها كانت مصممة على أنها لم تسرق شيئًا من المنزل ولم تتسلل إليه.

- وهل حقًّا تمت سرقة شيء؟

- الخادمة كانت مصرة على أن شيئًا أو اثنين قد سُرقا، لكنها لم تكُن متأكدة تمامًا من ماهيتهما، لكن، كما ترون، قصة المتسلل الليلي تلك عزّزت الأقاويل فيما بعدُ عن «هيل هاوس». لم يُقِم «آل ساندرسن» في المنزل قط، فقط أمضوا بضعة أيام وقيل لأهل القرية إنهم يعدون المكان للسكنى، لكنهم رحلوا فجأة وأغلقوا المنزل على حالته. قال «آل ساندرسن» إن عملهم يحتِّم عليهم العيش في المدينة، لكن أهل القرية كانوا يعرفون الحقيقة. لم يُقِم أحدٌ في هذا المنزل أكثر من بضعة أيام، وقد تم عرضه للبيع أو الإيجار من وقتها.. هذه قصة طويلة، أحتاج إلى المزيد من «البراندي».

نظرت «إليانور» إلى النار وقالت:

- تلك الفتاتان المسكينتان، لا أستطيع أن أخرجهما من مخيلتي، أكاد أراهما تسيران عبر الأروقة المظلمة لـ«هيل هاوس»، تحاولان أن تجدا مكانًا مناسبًا للَّعب بالعرائس.

داعب «لوك» تمثال «كيوبيد» بإصبعه مضيفًا:

- وهكذا، ظل المنزل على ما هو عليه، لم يُمس فيه شيء، لم يُستعمل فيه شيء، لم يرده أحد، ظل قابعًا في مكانه يفكر...

- وينتظر.

قالتها «إليانور».

ردد دكتور «مونتاجيو»:

- وينتظر.. الشر الكامن في هذا المنزل قيَّد ساكنيه ودمر حيواتهم، غدًا نتفحَّص المنزل بالكامل. أدخل «آل ساندرسن» الكهرباء وأصلحوا السباكة، كما يوجد هاتف أيضًا.. عدا ذلك، لم يتغيَّر شيء.

بعد هنيهة صمت قال «لوك»:

- حسنًا، أعتقد أن إقامتنا هنا ستكون مريحة.

١٢

وجدت «إليانور» نفسها فجأة تنظر بإعجاب إلى قدميها، وقد نامت «ثيودورا» أمام المدفأة عند أطراف أصابعها. كان الرضا عن شكل قدميها يغمرها، خاصة في ذلك الصندل الأحمر. كائن متكامل منفصل أنا، كل شيء في يبدو قائمًا بحد ذاته، ولا سبيل لانسجامه مع الكل. أرتدي صندلًا أحمر، هذا يتماشى مع كوني «إليانور». أكره السلطعون، وأنام على جانبي الأيسر، وأطرق بأصابعي حين أتوتر. أمسك كأسًا من «البراندي»، كأسي الخاصة؛ لأنني هنا وأنا أستخدمها، ولديَّ مكان خاص بي في هذا المنزل. لديَّ صندل أحمر وسأستيقظ غدًا لأجد نفسي ما زلت هنا.

ـ لدي صندل أحمر.

همست بها «إليانور» فالتفتت إليها «ثيودورا» ناعسةً مبتسمة. سأل دكتور «مونتاجيو» في حماس:

- هل منكم من يلعب «البريدج»؟

ردت «إليانور»:

- أنا ألعب «البريدج».

أنا ألعب «البريدج» ولديَّ قط اسمه «دانسر»، وأستطيع السباحة

- للأسف، أنا لا ألعبه!

التفت الثلاثة إلى «ثيودورا» متعجبين وسألها الدكتور:

- لا تلعبينه أبدًا؟

- يمكنكم أن تعلِّموني، أنا ماهرة في تعلُّم الألعاب.

قالت «إليانور»:

- لنفعل شيئًا آخر إذًا.

أنا أستطيع لعب «البريدج»، ويمكنني السباحة، وأحب فطيرة التفاح بالقشدة الحامضة، وقد قدت سيارتي بنفسي إلى هنا.

اقترح دكتور «مونتاجيو» الشطرنج، فوافقه «لوك» متحمسًا:

- أنا لاعب شطرنج ماهر.

عقدت «ثيودورا» حاجبيها وهتفت:

- لا أعتقد أننا هنا لنلعب!

- نحن فقط نحاول الاسترخاء.

لم تقتنع «ثيودورا» برد دكتور «مونتاجيو»، هزت كتفيها ناظرة إلى النار مرة أخرى.

قال «لوك»:

ـ أخبرني أين الشطرنج وسأحضره.

ـ دعني أحضره أنا؛ فقد حفظت خريطة المنزل جيدًا. لو تركناك تذهب وحدك لن نجدك مرة أخرى على الأغلب!

خرج الدكتور وانغلق الباب خلفه، فالتفت «لوك» إلى «ثيودورا» رامقًا إياها بنظرة سريعة ثم اقترب من «إليانور» سائلًا:

ـ أنتِ متوترة، أليس كذلك؟ هل أرعبتك القصة؟

هزت «إليانور» رأسها نافية، فأردف «لوك»:

ـ تبدين شاحبة.

ـ أنا فقط متعبة، أريد النوم، فأنا لم أقُد مسافة طويلة كالتي قدتها اليوم من قبلُ.

أمسك «لوك» بزجاجة «البراندي» وقال:

ـ تناولي بعض «البراندي»، سيساعدك على النوم.

ثم أردف وهو ينظر إلى «ثيودورا»:

ـ وأنت أيضًا.

أجابت «ثيودورا» ببرود من دون أن تلتفت له:

ـ شكرًا، لا أجد صعوبة في النوم.

ابتسم «لوك» لـ«إليانور» وانفتح الباب ليدخل منه دكتور «مونتاجيو».

وفي وهج النيران، أضاءت عينا «ثيودورا» بالابتهاج.

- أنتِ حمقاء.

قالتها «إليانور» في طاعة، كفُّ «ثيودورا» على كفها تُشعرها بالحرج؛ لطالما كرهت التلامس الجسدي. لكنها كانت طريقة «ثيودورا» في التعبير عن تعاطفها. **هل أظفاري نظيفة؟** جالت الفكرة بعقل «إليانور» لثوانٍ ومن ثَمّ سحبت كفها ببطء.

- أنا حقيرة.

عادت لـ«ثيودورا» خفة ظلها المعهودة.

- أنا حقيرة وشريرة ولا أحد يطيقني. الآن احكي لي عن نفسِكِ.

- أنا حقيرة وشريرة ولا أحد يطيقني!

- لا تسخري مني!

ضحكت «ثيودورا» وأردفت:

- أنتِ لطيفة والجميع يحبونك، حتى إن «لوك» وقع في حبك من أول نظرة. أشعر بالغيرة! أريد معرفة المزيد عنك، هل راعيت أمك لسنوات طويلة؟

- نعم.

بالفعل كانت أظفار «إليانور» متسخة، وكفها غريبة الشكل، و«ثيودورا» تلقي الدعابات عن الحب لأنها مضحكة.

- أحد عشر عامًا، حتى توفيت منذ ثلاثة أشهر.

ـ هل حزنتِ لموتها؟ هل يجب أن أعبر لك عن حزني لذلك؟

ـ لا، لم تكُن سعيدة في حياتها.

ـ وانتِ أيضًا؟

ـ وأنا أيضًا.

ـ ماذا فعلتِ عندما تحررتِ أخيرًا؟

ـ بِعتُ المنزل، قسّمنا بعض مقتنياتها بيني وبين أختي، مجرد أشياء بسيطة، بضع قطع من الحلي وساعة يد، لسنا كأختي «هيل هاوس»!

ـ وبعتِ كل شيء آخر؟

ـ كل شيء، وفي أسرع وقت.

ـ تلك السنوات الضائعة كلها! هل ذهبتِ في نزهة بحرية، بحثتِ عن رفقاء أو أحباء، اشتريتِ ملابس باهظة؟

ـ للأسف، لم يكُن هناك مالٌ يكفي أيًا من هذا، وضعتْ أختي نصيبها من المال في وديعة بنكية لابنها. وأنا اشتريت بعض الملابس وأتيت لـ«هيل هاوس».

فكرت «إليانور» في أن الناس تعشق إجابة أسئلة عن نفسها، يمكنها أن تجيب أي سؤال الآن، هذا يبعث سعادة غريبة في نفسها.

ـ وماذا ستفعلين حين تعودين؟ هل لديك وظيفة؟

ـ لا، لا أعرف ماذا سأفعل..

ـ أنا أعرف ما سأفعل، سأضيء كل أنوار المنزل وأحتفل!

- كيف تبدو شقتك؟

- لطيفة، وجدنا شقة قديمة وأصلحناها بأنفسنا. صالة كبيرة وحجرتان صغيرتان للنوم ومطبخ جيد. طليناها بالأحمر والأبيض وابتعنا بعض الأثاث المستعمل. نحب أن نبحث عن الأشياء الجيدة معًا.

- هل أنتِ متزوجة؟

كانت هناك برهة من الصمت ثم ضحكت «ثيودورا» وقالت:

- لا.

- معذرة!

شعرت «إليانور» بحرج بالغ:

- لم أكُن أريد التطفل.

- أنتِ مضحكة!

لمست «ثيودورا» خد «إليانور» بأناملها.

هناك تجاعيد جوار عينيّ.

أشاحت «إليانور» بوجهها بعيدًا عن ضوء النار. سألتها «ثيودورا»:

- أين تسكنين؟

فكّرت «إليانور» وهي ترمق كفيها غريبتي الشكل خشنتي الملمس: **كان في إمكاننا أن نشتري غسالة كهربية، هذا ليس عدلًا، كفاي كريهتان!**

- لديّ مكان صغير خاص بي، شقة صغيرة، ليست كشقتك بالطبع؛

فأنا أعيش وحدي. ما زلت أشتري أثاثها قطعة تلو الأخرى. يجب عليَّ أن أتأكد أنني اخترت كل شيء بشكل صحيح ودقيق. أمضيت شهرين كاملًا حتى وجدت تمثالين لأسدين من الحجر. وضعت واحدًا على كل ركن من أركان المدفأة، لديَّ قط أبيض.. حتى كتبي وتسجيلات الموسيقى خاصتي يجب أن تكون بالضبط كما أحب. كان عندي كوبٌ مرسوم في قاعه الداخلي نجوم جميلة، عندما تشربين الشاي تجدين نجومًا صغيرة تشع من خلاله. أتمنى أن أجد كوبًا كهذا مرة أخرى.

ـ ربما أجده يومًا ما في متجري، سوف أرسله لكِ مع بطاقة صغيرة مكتوب فيها: إلى «إليانور»، مع حبي، صديقتك «ثيودورا». وأؤكد لكِ أنه سيكون كوبًا أزرقَ مليئًا بنقش النجوم.

ـ كش ملك!

صاح «لوك» منتصرًا.

ـ مجرد حظ، لا تبتئس يا دكتور.. «إليانور»، «ثيودورا»، هل نمتما هناك جوار المدفأة؟

ردت «ثيودورا»:

ـ كنا على وشك ذلك.

عبر «لوك» الحجرة تجاههما ومدَّ لكل واحدة كفًّا ليعينها على النهوض. قامت «إليانور» بسرعة حتى كادت تسقط، بينما تمطَّت «ثيودورا» هامسة:

ـ «ثيو» تريد أن تنام!

قال دكتور «مونتاجيو»:

- سأقودكما للطابق العلوي، وغدًا يجب أن نعرف جيدًا وجهاتنا داخل المنزل والطرق المؤدية إليها. هلا أطفأت النار يا «لوك»؟

- علينا أن نتأكَّد أيضًا أن الأبواب مغلقة، السيدة «ددلي» أغلقت الباب الخلفي عند رحيلها، فماذا عن باقي الأبواب؟

قالت «ثيودورا»:

- لا أعتقد أن هناك من يجرؤ على التسلُّل، على كل حال الخادمة الشابة اعتادت غلق الأبواب، بماذا أفادها ذلك؟

أضافت «إليانور»:

- هب أننا أردنا الهرب سريعًا!

نظر إليها دكتور «مونتاجيو» نظرة سريعة متوترة وقال:

- لا حاجة لإحكام غلق الأبواب.. وعلى أي حال، أنا لن أنام قبل ساعة أو اثنتين. في سني، القراءة قبل النوم طقس أساسي، وقد جلبتُ معي رواية «باميلا». لو واجه أحدكم الأرق فلديَّ مجموعة روايات شائقة يمكنني قراءتها عليكم بصوت عالٍ، فلم يُخلق بعدُ من لا يسقط في النعاس عندما أقرأ له.

قادهم دكتور «مونتاجيو» عبر الردهة الضيقة إلى الصالة الكبيرة والدرج. تبعت «إليانور» «ثيودورا» صعودًا على الدرجات، ولم تدرك كم هي متعبة سوى الآن. ظلت تذكُر نفسها أنها في «هيل هاوس»، حتى إن الغرفة الزرقاء المفزعة لم تكُن تعني لها الآن سوى السرير والنوم.

توجهت «ثيودورا» إلى الغرفة الخضراء ثم التفت إلى «إليانور» مبتسمة:

ـ إذا شعرتِ بأي شيء يضايقك تعالي إلى غرفتي.

ـ سأفعل، شكرًا لك، تصبحين على خير.

هتف دكتور «مونتاجيو»:

ـ حجرتاي أنا و«لوك» على الجهة الأخرى من الدرج.

ـ ما ألوانِ حجرتيكما؟

سألت «إليانور» غير قادرة على مقاومة فضولها.

أجاب دكتور «مونتاجيو»:

ـ صفراء.

وتبعه «لوك»:

ـ وردية.

قالت «ثيودورا»:

ـ حجرتي خضراء، وحجرة «إليانور» زرقاء.

ـ سأكون في حجرتي أقرأ وسأترك بابي مواربًا كي أسمع أي صوت بسهولة.. طابت ليلتكم.

ما إن أغلقت «إليانور» باب الحجرة الزرقاء خلفها حتى خطر لها أن ظلام «هيل هاوس» هو ما أرهقها إلى هذا الحد. كان الفراش ناعمًا بشكل لا يُصدَّق. الغريب بشأن هذا المنزل هو عدم الاتساق، فكيف لشيء بهذه البشاعة والظلمة أن يكون مريحًا جميلًا في الوقت نفسه؟!

بدأت الأفكار تجول في عقل «إليانور» على فراشها: أنا وحدي تمامًا.. لماذا «لوك» هنا؟ لماذا أنا هنا؟ تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة، كلهم رأوا الخوف في عيني اليوم..

ارتعدت، فاستوت جالسةً على الفراش كي تجذب الغطاء. ثم تركته وعبرت الغرفة كي تغلق بابها بالمفتاح: لن يعرف أحدٌ أنني أغلقته بالمفتاح. ثم عادت إلى فراشها وتدثَّرت حتى عنقها بالغطاء. نقلت بصرها من الباب إلى النافذة: ليت معي قرصًا منومًا. نظرت خلفها مدققة في الأركان المظلمة، ثم عادت تنظر إلى النافذة والباب: هل انفتح الباب؟ لكنني أحكمت إغلاقه!

قررت أخيرًا أنه من الحكمة أن تغطي رأسها بالكامل، ضحكت ضحكة خافتة على تصرفها الطفولي. لو رآها أحد لمات ضحكًا. هي لم تخَف قط في حياتها من أي شيء، فهل جاءت تلك المسافة كلها حتى تخاف؟

ثم غابت في نوم عميق، وفي الحجرة المجاورة نامت «ثيودورا» تاركة أضواء حجرتها مضاءة. على الجانب الآخر من الردهة، جلس دكتور «مونتاجيو» في حجرته يقرأ «باميلا»، يصغي السمع كل فترة لما خارج الحجرة، يجول في المكان لدقيقة ينظر خلالها من النافذة، ثم يعود لقراءته مرة أخرى.

في الردهة، يسطع ضوء مصباح يبدِّد شيئًا من بحيرة الظلام الممتدة. في حجرته ينام «لوك» واضعًا كشافًا صغيرًا على الكومود جوار تميمة الحظ التي يتفاءل بها.

من حولهم، يرتعد المنزل ويهمهم ويفيق من سباته ببطء.

على بُعد ستة أميال، استيقظت السيدة «ددلي» قلقة، ونظرت إلى ساعتها. فكرت في «هيل هاوس» فأزاحت الفكرة سريعًا وأغمضت عينيها.

أغلقت السيدة «جلوريا ساندرسن»، صاحبة المنزل، القصة البوليسية التي كانت تقرؤها وتثاءبت. أغلقت أنوار بيتها وأحكمت مزلاج بابها.

كما نامت صديقة «ثيودورا» وزوجة دكتور «مونتاجيو» وأخت «اليانور». وفي مكان ما أعلى الأشجار المحيطة بـ«هيل هاوس»، نعقت بومة وبدأت أمطار خفيفة في الهطول.

١٣

استيقظت «إليانور» لتجد الغرفة الزرقاء رمادية جرَّاء الغيوم والأمطار. ووجدت أنها أطاحت الغطاء بعيدًا في أثناء نومها كعادتها. فوجئت أنها نامت حتى الثامنة صباحًا وأن ليلتها الأولى في «هيل هاوس» المقيت هي أهدأ ليلة نامتها منذ أعوام.

مستلقية على الفراش الأزرق، راحت ترمق السقف المزخرف وتسأل نفسها نصف نائمة: **ماذا فعلت ليلة أمس؟ هل جعلت من نفسي أضحوكة؟ هل سخروا مني؟**

لم تستطع أن تذكر شيئًا من ليلة أمس سوى أنها كانت سعيدة سعادة طفولية. هل أدرك الآخرون مدى بساطة تفكيرها؟ **لقد قلتُ أشياء غبية سخيفة ولا بُدَّ أنهم لاحظوا ذلك.**

اليوم سأكون أكثر تحفظًا وحرصًا.

هزّت «إليانور» رأسها طاردة أي أثر للنعاس وتنهّدت، وقالت لنفسها إنها سخيفة كعادتها كل صباح.

بدت الغرفة أكثر حياةً حولها الآن، الستائر تتحرّك بفعل النسيم، صوت الماء القادم من دورة المياه المشتركة يشي بحمام «ثيودورا» الصباحي.

قالت لـ«ثيودورا» عبر باب الحمام المغلق:

- صباح الخير.

شهقت «ثيودورا» وصاحت في مرح:

- صباح الخير، سأنهي حمامي سريعًا وسأملأ لكِ حوض الاستحمام بالماء.. هل أنت جائعة؟ أنا أتضور جوعًا!

هل تظن أنني لن أستحم إلا إذا تركَتْ لي حوض الاستحمام ممتلئًا؟ أبعدت «إليانور» الخاطر عن رأسها وأقنعت نفسها أنها جاءت إلى هنا كي تكفَّ عن التفكير بهذه الطريقة الملتوية.

نظرت من النافذة للحشائش الخضراء اللامعة بفعل الأمطار، هي أمطار صيفية على كل حال من نوعية الأمطار التي تجلو الهواء وتجعل النباتات أكثر إشراقًا. المكان بالفعل ساحر، فكرت «إليانور» أنها ربما تكون الوحيدة التي ترى «هيل هاوس» ساحرًا، أم تُرى الجميع يراه كذلك في أول صباح لهم فيه!

ارتعدت بلا سبب واضح وتبخَّر الشعور الطيب سريعًا، فلم تعُد تذكر لِمَ كانت تشعر بالبِشْر والسعادة.

طرقت «ثيودورا» على باب الحمام هاتفة:

- أنا أتضوَّر جوعًا.

سحبت «إليانور» رداء الحمام وجاءها صوت «ثيودورا» من غرفتها

- حاولي أن تشرقي اليوم يا عزيزتي، إنه يوم غائم، فلا بُدَّ أن تبدو مشرقتين أكثر.

«غنِّي قبل الإفطار، تبكي بعد العشاء» مقوله سخيفة تذكرتها «إليانور» لأنها كانت تدندن بصوت خافت «في التأخير لا يكمن الكثير».

صاحت «ثيودورا» عبر الباب المغلق:

- ظننت أنني كسول، لكنكِ أسوأ مني بكثير. لفظة الكسل لن تصفك بدقة. كان حريًّا بكِ أن تكوني قد انتهيتِ الآن من حمامك.

- السيدة «ددلي» تحضر الإفطار في التاسعة، ماذا سيكون رد فعلها عندما تجدنا مشرقتين مبتسمتين؟

- ستبتلع خيبة أملها في صمت، لم يصرخ أحدٌ ليلًا طلبًا لنجدتها.

نظرت «إليانور» إلى ساقها المغطاة بالصابون نظرة منتقدة وقالت:

- لقد نمتُ كالكلب ليلة أمس.

- وكذا أنا، إن لم تُنهي حمامك خلال ثلاث دقائق سأدخل وأغرقك في الحوض! أنا جائعة!

كانت من المرات النادرة التي شعرت فيها «إليانور» بشوقٍ للطعام أو حاولت أن ترتدي ملابسَ تجعلها أجمل وأكثر إشراقًا، حتى إنها غسلت أسنانها باهتمامٍ قلّما تفعله.

ـ هل انتهيتِ؟

ـ أنا آتية!

قالتها «إليانور» وجرت نحو الباب الذي لم يزَل موصدًا بالمفتاح. كانت «ثيودورا» تنتظرها في الردهة، مبهجةً وسط عتمة الموجودات.

بالنظر إلى بهائها، رأت «إليانور» أنها لم تستمتع بأي شيء في حياتها قط قدر استمتاع تلك الشابة التي لا تكترث لما يقوله الآخرون عنها.

ـ «إليانور»، هل تدركين أن أمامنا نحو ساعة حتى نجد حجرة الطعام؟ لكن ربما تركوا لنا خريطة في مكان ما. هل تعلمين أن الدكتور و«لوك» مستيقظان منذ ساعات؟ كنت أتحدث إليهما عبر النافذة.

لقد بدؤوا يومهم من دوني، غدًا سأستيقظ مبكرًا وأتحدث إليهم عبر النافذة.

وصلتا إلى نهاية الدرج نازلتين، وعبرت «ثيودورا» القاعة المظلمة ووضعت كفها على مقبض الباب الضخم.

ـ من هنا.

فتحت «ثيودورا» الباب في ثقة لتجد خلفه قاعة كئيبة لم ترياها من قبلُ.

أشارت «إليانور» إلى باب آخر عبر رواق ضيق:

ـ مِن هنا.

لكن الباب الذي اختارته قادها إلى حيث أمضتا ليلتهما السابقة أمام المدفأة.

هتفت «ثيودورا»:

- فلنعبر الردهة عبر هذا الـ...

قطعت كلامها وتلفّتت حولها في حنق:

- «لوك».. دكتور.

من بعيدٍ سمعتا جواب النداء خافتًا مكتومًا. فتحت «ثيودورا» بابًا آخر:

- لن أنتظر في هذه الردهة للأبد.

- أعتقد أن ذاك هو الباب الصحيح، خلفه سنجد حجرة صغيرة مظلمة ثم حجرة الطعام.

صاحت «ثيودورا» حانقةً مرة أخرى، وركلت قطعة أثاث صغيرة، أطلقت سبة ثم انفتح باب من خلفها وظهر من فرجته دكتور «مونتاجيو»:

- صباح الخير.

دلّكت «ثيودورا» قدمها متألمة:

- منزل عفن غبي.. صباح الخير!

- لن تصدقا ما سوف أقوله، منذ ثلاث دقائق تركت لكما هذا الباب مفتوحًا كي لا تضلّا الطريق. ورأيناه بأعيننا ينغلق ببطء قبل أن تناديا علينا بثوانٍ!

مزح «لوك» مع الشابتين فأدركت «إليانور» أنهم قد أصبحوا عائلة

واحدة بشكل ما، أمضوا الليلة أمام المدفأة، واجتمعوا صباحًا حول مائدة إفطار يعرف كل منهم مكانه حولها.

قال «لوك» ملوحًا بالشوكة:

ـ إفطار فاخر هو ما صنعته لنا السيدة «ددلي»، كنت أتساءل حين تأخرتما إن كنتما من النوع الذي يفضّل شرب القهوة والتقلُّب في الفراش.

ـ كنا سنصل في موعدنا لو كنا في منزل عادي.

سألت «إليانور»:

ـ هل تركتما الباب مفتوحًا بالفعل؟

أجاب «لوك»:

ـ لقد عرفنا أنكما آتيتان عندما انغلق الباب.

قالت «ثيودورا»:

ـ اليوم سنثبّت الأبواب ونتركها مفتوحة. بالمناسبة، تركت أنوار غرفتي مضاءة طيلة الليل ولم يحدث شيء.

ـ كان كل شيء هادئًا بالفعل.

تساءلت «إليانور»:

ـ هل كنت تحرسنا طيلة الليل يا دكتور؟

ـ حتى الثالثة صباحًا. لم يكُن هناك صوت حتى بدأت الأمطار في الهطول. إحداكما صاحت خلال نومها...

قاطعته «ثيودورا» بلا حرج:

- لا بُدَّ أنها أنا، كنت أحلم بالأخت الصغرى إياها تدق أبواب المنزل.

- أنا أيضًا حلمت بها.

قالت «إليانور» وهي تنظر للدكتور في حرج:

- شعور مقيت أن تشعر بالخوف.

- كلنا نشعر بالخوف.

وضعت «ثيودورا» كفها على كتف «إليانور» مطمئنة.

أضاف الدكتور:

- الأسوأ هو أن نخفي هذا الشعور.

ضحك «لوك» بفم ممتلئ بالسمك هاتفًا:

- املؤوا بطونكم بالطعام، وسيصعب بعدها أن تشعروا بأي شيء!

شعرت «إليانور»، كما شعرت ليلة أمس، أن الحوار يُقاد بذكاء بعيدًا عن الحديث عن الخوف. كانت تتحدَّث عمّا تشعر به، وصادف أن يكون هو ما يشعر به الجميع؛ لذا فإسكاتها هو إسكات لصدى الخوف والقلق في قلوبهم.

أبعدت طبقها عنها وتنهَّدت. قالت «إليانور» لدكتور «مونتاجيو»:

- قبل أن أخلد للنوم الليلة، يجب أن أرى كل شبر في المنزل. لن أتحمَّل أن أقضي ليلة أخرى أتساءل فيها عمّا يكون فوق رأسي أو أسفل

مني. يجب علينا أيضًا أن نفتح النوافذ ونثبّت الأبواب مفتوحة، لن نمكث في هذا الظلام طويلًا.

اقترح «لوك» تثبيت بعض اللوحات الإرشادية الصغيرة لتسهل معرفة الوجهات. قالت «إليانور» متعجلة؛ ربما لأن «ثيودورا» نظرت إليها في فضول فأربكتها:

ـ أولًا فلنبدأ في استكشاف المنزل.. لا أريد أن أجد نفسي معزولة في مكان ما وحدي.

عاجلتها «ثيودورا» قائلة:

ـ لن يتركك أحد وحيدة أبدًا.

ـ أقترح إذًا أن ننهي القهوة كلها ثم نجلس لنضع خطة لاستكشاف المكان، نثبّت الأبواب مفتوحة في أثناء تحركنا.

هز «لوك» رأسه وأردف:

ـ لم أتخيل قط أن أرث منزلًا يتوجَّب عليَّ فيه أن أجد طريقي خلاله عن طريق لافتات إرشادية!

قالت «ثيودورا»:

ـ علينا أيضًا أن نطلق أسماء على الغرف، لنفترض مثلًا أنني أريد أن أقابلك في حجرة بعينها فكيف أخبرك عنها؟

ـ يمكنكِ أن تصفِّري حتى أصل إلى مكانك..

ارتجفت «ثيودورا» قائلة:

- ستسمع صفارتي، وستسمعني أنادي عليك بينما تجول بين الحجرات وتفتح الأبواب بحثًا عني بلا جدوى، ربما تضل طريقك أنت نفسك.

- ولن تجد ما تأكله.

أضافت «إليانور» في قسوة، فنظرت إليها «ثيودورا» ملتقطة خيط الحديث:

- وبلا شيء تأكله، إنه منزل مجنون، الحجرات كلها تفتح على بعضها البعض، الأبواب تنغلق خلفك من تلقاء نفسها. أراهن أن المنزل مليء بالمرايا التي توهمك بأشياء تتحرك خارج مجال نظرك. ربما تتخيل شيئًا يهرول تجاهك ضاحكًا مرعبًا..

قطعت «ثيودورا» كلامها فجأة وأمسكت بكوب القهوة الذي انسكب أغلبه جرَّاء توترها.

- الأمر ليس بهذا السوء.

قالها دكتور «مونتاجيو» وأردف:

- في الواقع، الدور الأرضي يتكوَّن من حجرات مصفوفات في دوائر متحدة المركز. في المنتصف توجد الحجرة التي اجتمعنا فيها الليلة الماضية. من حولها سلسلة من الحجرات.. حجرة البلياردو على سبيل المثال، ومخدع مفروش بالكامل بقماش الستان الوردي...

- حيث سنذهب أنا و«إليانور» في كل صباح للتطريز.

- ومن حولهم ما أطلق عليه أنا الحجرات الداخلية؛ لأنها بلا مخرج مباشر إلى الخارج. تحيط بتلك الحجرات حجرات أخرى خارجية مثل

حجرة الرسم والمكتبة. وتطوق الشرفة الخارجية المنزل بالكامل. هناك أبواب تُفتح عليها من حجرة الرسم وحجرة الموسيقى وحجرة المعيشة. هناك ممر أيضًا من...

قاطعته «ثيودورا» ضاحكة وهي تهز رأسها:

ـ كفى، كفى.. هذا منزل حقير عفن لا أكثر.

انفتح الباب في ركن غرفة الطعام، ووقفت في فرجته السيدة «ددلي» تمسك الباب بيدها وهي تحملق بلا تعبير على وجهها في الإفطار على المنضدة.

ـ أنا أرفع الطعام في العاشرة..

قال «لوك»:

ـ صباح الخير يا سيدة «ددلي».

أدارت السيدة «ددلي» عينيها نحوه وكررت:

ـ أنا أرفع الطعام في العاشرة. عليَّ أن أعيد الأطباق إلى أرففها، ثم أخرجها مرة أخرى وقت الغداء. أنا أضع طعام الغداء على الطاولة في الساعة الواحدة. لكن أولًا عليَّ أن أعيد الأطباق إلى أرففها.

قام دكتور «مونتاجيو» ووضع منشفته على الطاولة:

ـ بالطبع، هل أنتم مستعدون؟

أمام عيني السيدة «ددلي»، رفعت «ثيودورا» كوب القهوة إلى شفتيها وأنهت آخر قطرة فيه، ثم مسحت شفتيها بالمنشفة وأراحت ظهرها إلى مقعدها:

- إفطار رائع، هل تلك الأطباق تعود إلى مُلّاك المنزل الأصليين؟

أجابتها السيدة «ددلي»:

- تلك أطباق تذهب إلى الأرفف، إليها تعود.

- والأكواب والفضيات والمفارش؟ أشياء ثمينة حقًّا.

- المفارش تعود للخزائن، الفضيات تعود لخزانة الفضيات، الأكواب تعود للأرفف.

- يبدو أننا قد أزعجناكِ.

قالتها «ثيودورا» فصمتت السيدة «ددلي» برهة ثم قالت:

- أنا أرفع الإفطار في العاشرة، وأضع طعام الغداء في الواحدة.

ضحكت «ثيودورا» وهتفت:

- هيا بنا نفتح الأبواب إذًا.

كانت البداية مع باب حجرة الطعام، فأبقوه مفتوحًا بوضع كرسيٍّ ضخمٍ أمامه. الغرفة التالية كانت غرفة الألعاب. تعثَّرت «ثيودورا» في منضدة خفيضة وهي شاردة في الركن القصي من الحجرة، الذي تراصت فيه كراسي ومنضدة عليها بطاقات لعب، وخزانة فاخرة طويلة تحوي رقعة الشطرنج التي لعبا بها من قبل، مع عدد من كرات الكروكيه ولوحة لعب «الكريبدج».

- يالَهُ من مكان لتمضية وقت الفراغ!

قالها «لوك» واقفًا في مدخل الحجرة يمسح أركانها بعينيه. كانت

أسطح المناضد الخضراء الباردة منعكسة على الرخام الأسود اللامع للمدفأة، معطية تأثيرًا كئيبًا.

لم يكُن في مقدور أحد أن يتجنَّب التحديق في الحليات الخشبية على الحوائط، التي تمثل طرقًا ملتوية وحشية لصيد الحيوانات. يتوسَّط الحجرة، فوق المدفأة مباشرة، رأس محنط لغزال بري ضخم يطل عليهم في خزي.

ردد الصدى صوت «ثيودورا» المرتجف:

ـ هنا حيث يأتون للترفيه عن أنفسهم.. هنا، حيث يستريحون من ثقل المنزل الجاثم على الأرواح.. لا أستطيع تخيُّل تلك الفتاتين الصغيرتين بلا ملجأ سوى هذا المكان.. هلَّا ساعدتموني في إنزال ذاك الرأس المحنط البائس على الأقل!

ـ أعتقد أن الرأس مُعجَب بكِ؛ فهو لم يرفع عينيه عنك منذ أن دخلتِ. فلنخرجْ من هنا.

قالها «لوك» وانصرف معهم تاركين الباب مفتوحًا خارجين إلى الصالة التي أنارت بضوء شاحب قادم من الأبواب المفتوحة للحجرات.

قال دكتور «مونتاجيو»:

ـ حين نجد حجرة ذات نوافذ، سنُبقي نوافذها مفتوحة. حتى ذلك الحين، نفتح باب المنزل ليبدّد هذا الظلام.

مالت «إليانور» على أذن «ثيودورا» هامسة:

ـ لا تنفكين تذكرين تلك الفتاتين، بينما لا تغادر صورة الخادمة الشابة مخيلتي. تدور في تلك الحجرات الكئيبة وحيدة، تفكر فيمن عاش هنا في الماضي.

- لم ألحظ أي رائحة.

قالها دكتور «مونتاجيو» ونظر لـ«لوك» متسائلًا، فهز الأخير رأسه موافقًا رأي الدكتور.

- غريب أمر شمك رائحة ما، لكنه نوع من الأشياء التي نتتبعها هنا. اكتبي ملاحظة عندك بهذا الشأن وصفي تلك الرائحة بدقة قدر المستطاع.

خرجت «ثيودورا» إلى الردهة وراحت تتلفَّت حولها في حيرة:

- هل للمنزل مدخل آخر غير ذاك الباب؟ أعتقد أنني خلطت الأمور ببعضها.

ابتسم الدكتور في سعادة، كأنما ينتظر تعليقًا كهذا وقال:

- لا.. هو مدخل واحد، وهو المدخل ذاته الذي دلفت منه أمس.

- لماذا إذًا لا أستطيع أنا و«إليانور» أن نرى البرج من نوافذ حجرتينا؟ النوافذ تطل مباشرة على الباب الرئيسي.

ضحك الدكتور مصفقًا بكفيه هاتفًا:

- أخيرًا! أنتِ ذكية يا «ثيودورا»؛ لهذا السبب أردت منكم أن تفحصوا أرجاء المنزل نهارًا. اجلسي على الدرج وسأوضِّح لك.

اتخذ الجميع مجالس على الدرجات، بينما راح الدكتور يشرح كأنما في محاضرة:

- من الأمور المذهلة في «هيل هاوس»: تصميمه.. هل تساءلتم

من مر الصعوبة الكبرى في إيجاد طريقنا عبر حجراته وممراته؟ أي منزل عادي لم يكُن ليضع أريعتنا في حيرة كتلك التي نعانيها. مرات ومرات نختار أبوابًا خاطئة، لا يستطيع أحدٌ منا أن يصل إلى وجهته من أول محاولة، حتى أنا.

أعتقد أن «هيو كرين» توقَّع أن يصبح «هيل هاوس» مزارًا في المستقبل، مثل منزل «آل وينشستر» في كاليفورنيا أو أيٍّ من تلك المنازل ثُمانية الحوائط الشهيرة.

لقد صمم «هيل هاوس» بنفسه كما أخبرتكم سابقًا.. كان رجلاً غريب الأطوار.

نظر دكتور «مونتاجيو» تجاه أركان المنزل وأردف:

ـ كل زاوية في المكان منحرفة ببضع درجات عن المعتاد. لقد تحدَّى «هيو كرين» استساغة العقل البشري للحجرات المربعة وبنى منزله كما رآه هو. كل زاوية ظننتها صحيحة هي منحرفة بضع درجات حتى لتحيِّرك بمرآها، فلا تعرف سبب شعورك بالحيرة.

أراهن أنكم تظنون أن الدرجات التي تجلسون عليها مستوية، لكنها ليست كذلك.

تحرَّك الحاضرون في قلق ناظرين إلى الدرجات.. مدت «إليانور» كفها وقبضت على حاجز السلم شاعرةً كأنها ستتدحرج من مجلسها.

ـ الحقيقة أن الدرجات مائلة بشكل طفيف نحو المحور الرئيسي للسلم. الأبواب كلها غير موزونة. ربما لهذا السبب تنغلق من تلقاء

ذاتها. بالطبع تلك الأمور كلها تراكمت مضفيةً ذلك الطابع العجيب للمنزل. لا تستطيع «ثيودورا» أن ترى البرج من حجرتها لأن البرج ذاته يقبع فوق زاوية من زوايا المنزل، فيصبح مستحيل الرؤية من حجرتها. مع أن الاعتقاد السائد للناظر من موقعنا أن البرج أمام حجرة «ثيودورا» مباشرة.

أطلقت «ثيودورا» صيحة تعجب، بينما هتفت «إليانور»:

- فهمتُ الآن. سقف الشرفة الخارجية هو ما جعلنا نسيء التقدير أستطيع أن أرى السقف من نافذة حجرتي، ولأنني إن دخلت المنزل من الباب الرئيسي وصعدت الدرجات، سأفترض أن الباب تحت نافذتي مباشرة. بينما الحقيقة أن...

- أنتِ ترين فقط سقف الشرفة الخارجية، بينما الباب الرئيسي ذاته بعيد. يمكنكما أن ترياه هو والبرج من حجرة الأطفال، التي هي الحجرة الكبيرة في نهاية الردهة. سنفحصها اليوم في وقت لاحق. هي تحفة فنية تمثّل التشوُّه المعماري في أبدع صوره.

- كل شيء منحرف قليلًا عن مركزه؛ لذا يبدو كل شيء غير مريح.

أجاب «لوك» «ثيودورا»:

- يبدو كل شيء كأنكِ نزلتِ لتوّك من على ظهر سفينة. ستحتاجين إلى وقت حتى تعتاد قدماكِ على الوضع الثابت بعد أن أمضيتِ وقتًا طويلاً متأرجحة في عرض البحر، أو في عرض «هيل هاوس» على الأدق. هل تظن يا دكتور أن زعم البعض بوجود كيانات ماورائية

إن المنزل يعود إلى ذلك الإحساس بالدوار وانعدام الراحة، كنوعٍ من اضطرابات الأذن الداخلية؟

ـ لا بُدَّ أن لكل هذا تأثيرًا لا يُغفل. لقد نشأ الإنسان على الثقة بحواسه ومنطقه، وآتفهم تمامًا محاولات العقل في التأقلم على وضع غريب كهذا وما يمكن أن ينتج عن تلك المحاولات من شطحات. تعالوا، ما زال أمامنا الكثير من الأعاجيب..

استدار دكتور «مونتاجيو»، فقاموا خلفه متفحصين الأرضيات في كل خطوة يخطونها. عادوا إلى الحجرة التي اجتمعوا فيها الليلة السابقة، حيث سينتقلون منها إلى الحجرات الخارجية للمنزل، المطلة على الشرفة الدائرية والحديقة.

فتحت المجموعة الستائر الثقيلة، تاركين متنفَّسًا لأشعة الشمس للولوج إلى قلب «هيل هاوس» المظلم.. من حولهم تبدَّى أثاث حجرة الموسيقى: «هارب» فاخر، «بيانو» عتيق لامع، مقاعد جلدية وثيرة حول منضدة يعلوها لوح ثقيل من الرخام الأخضر.

ومن خلف زجاج النوافذ راح المطر يهطل، ما زاد إحساسهم برطوبة الحجرة غير المحتملة.

عبروا من الباب الخشبي الضخم سريعًا إلى حجرة الرسم الشاسعة. راحت «ثيودورا» تنظر إلى الطرف البعيد من الحجرة غير مصدقة ما تراه.

ـ هذا الشيء ليس هناك.. أليس كذلك؟ «إليانور»، هل ترينه؟

ـ كنت أظنكِ ستعجبين به!

على عكس ظن دكتور «مونتاجيو»، لم تُعجَب «ثيودورا» بذلك التمثال الرخامي الضخم ناصع البياض، الجاثم فوق بساط بنفسجي وخلفية من ورق الحائط باللون ذاته.

وضعت «إليانور» كفيها على عينيها خجلة من عري التمثال، بينما هتف دكتور «مونتاجيو»:

- أعتقد أنه يمثل «فينوس» بين الأمواج أو شيئًا من هذا القبيل..

- ليس كذلك، هو تمثال القديس «فرانسيس» يعالج المجذومين..

- لا.. يبدو أن أحد المجسمات لتنين..

دققت «ثيودورا» النظر وقالت:

- كفى سخفًا، هذا تمثال يجسّد العائلة. الشخص الطويل في المنتصف هو «هيو كرين» ذاته، يكافئ نفسه لأنه قد بنى «هيل هاوس» العظيم، والمجسمان الآخران يمثلان ابنتيه.. وذلك الشيء العشبي الذي يقفون عليه يبدو كبساط.. هل لاحظ أحدكم بُسُط حجرة المعيشة؟ تبدو لي كحقل من الحشائش. أستطيع أن أشعر بها تداعب كعبيّ. كأنه...

قاطعتها «إليانور» بصوت راجف:

- أكره تفكيري الدائم في احتمالية أن يسقط المنزل فوق رؤوسنا مع كل تلك الزوايا الخاطئة والميل.. هل هناك فرصة لحدوث ذلك فعلًا؟

أجابها دكتور «مونتاجيو» وهو يرمق التمثال:

- قرأتُ أن هذا التمثال أُنشِئَ بتكلفة باهظة، وبحرص وُضع في مكانه هذا بالذات ليوازن اختلال الأرضية التي يقف عليها. لقد بُني

البيت من حوله حرفيًا ولم يسقط المبنى حتى الآن ولا يبدو عليه أنه سيفعل قريبًا.

- أعتقد أيضًا أن «كرين» قد استخدم هذا التمثال لإخافة طفلتيه. قالت الحجرة ستصير ممتازة من دونه.

فكرت «ثيودورا» حالمةً وأكملت حديثها:

- أتخيلها حجرة للرقص، ممتلئة بالحسناوات ذوات الفساتين الراقية.. سيد «هيو كرين»، هلّا تراقصني؟

وانحنت للتمثال فاردةً كفها نحوه، قالت «إليانور» وهي تخطو خطوة للخلف:

- أراهن أنه سيوافق..

تحسست «ثيودورا» التمثال، وحرّكت أناملها على ذراع أحد التماثيل الصغيرة:

- للرخام ملمس لا تتوقّعه أبدًا.. كنت أظن أن تماثيل بهذا الإتقان لا بُدَّ أن لها ملمسًا بشريًا.

استدارت «ثيودورا» وراحت ترقص وحدها تحت إضاءة الحجرة الشحيحة، ثم التفتت للتمثال وانحنت مرة أخرى.

أكمل دكتور «مونتاجيو» جولته محدثًا رفاقه:

- في نهاية الحجرة، خلف تلك الستائر، باب يقود إلى الشرفة الخارجية. عندما تتعب «ثيودورا» من الرقص يمكنها أن تستنشق قليلًا من الهواء البارد فيها.

سار دكتور «مونتاجيو» إلى نهاية الحجرة وأزاح الستائر الثقيلة فاتحًا باب الشرفة. هبَّة من النسيم المحمل برائحة المطر وضوء نقي ولجا إلى حيث التمثال البارد والحوائط التواقة للضياء.

قالت «إليانور»:

- لا شيء في هذا المنزل يتحرك حتى توليه ظهرك، عندها تلمح تحرُّكه بركن عينك. انظروا إلى تلك المجسمات الصغيرة فوق المدفأة! عندما وليتم جميعكم ظهوركم لها كانت ترقص مع رقص «ثيودورا»!

لم يولِّ أحدٌ انتباهًا لما قالته. استمرت «ثيودورا» في رقصها، بينما راح «لوك» يُبدي إعجابه بالأزهار في الصوبة الزجاجية عبر الحديقة.

جذبت «ثيودورا» شعر «إليانور» في خفة وضحكت هاتفة:

- لنتسابق حول الشرفة!

ثم اندفعت تجري، فلم تجد «إليانور» وقتًا للتفكير فتبعتها. راحتا تضحكان وتجريان في الشرفة التي تلف المنزل من الخارج. عند منعطفٍ، رأت «إليانور» «ثيودورا» تدلف إلى حجرة ما. تبعتها لخطوات ثم توقفت لاهثة. كانتا في المطبخ بينما السيدة «ددلي» تنظر إليهما صامتة وهي بعدُ أمام حوض الغسيل.

قالت «ثيودورا» في أدب:

- سيدة «ددلي»، كنا نستكشف المنزل..

أدارت السيدة «ددلي» عينيها نحو الساعة المعلقة فوق الأرفف وقالت في برود:

ـ الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، وأنا...

ـ تجهّزين الغداء في الواحدة. أعرف ذلك، لكننا كنا فقط نبغي إلقاء نظرة خاطفة على المطبخ إن لم يكُن هذا يضايقك. فقد انتهينا من رؤية حجرات الطابق السفلي كلها.

تسمّرت السيدة «ددلي» في مكانها نحو دقيقة، ثم سارت في هدوء إلى باب قصي عند نهاية المطبخ وخرجت منه وأغلقته خلفها.

نظرت «ثيودورا» مليًّا نحو الباب المغلق وانتظرت دقيقة أخرى حتى قالت:

ـ ألا تظنين أن السيدة «ددلي» تملك محبة خاصة تجاهي؟ أنا متأكدة!

ـ أعتقد أنها ذهبت لتشنق نفسها أعلى البرج، لترَ ما جهزته لغداء اليوم.

ـ لا تحركي أي شيء.. أنتِ تعرفين أن الأطباق يجب أن تظل في أرففها. أعتقد أنها تعد لنا «السوفليه». هذه أواني إعداد «السوفليه».. والبيض.. والجبن..

أبدت «إليانور» إعجابها بالمطبخ وألوانه؛ فمطبخ أمها كان ضيقًا مظلمًا، ولم يكُن لأي شيء يُطهى فيه مذاق مميز. سألتها «ثيودورا» عن مطبخها الخاص بشقتها الجديدة، ثم تَشَتَّتْ ناظرةً نحو أبواب المطبخ:

ـ انظري يا «إليانور»، هذا هو الباب المؤدّي إلى الشرفة الخارجية.. وهذا يفضي إلى درجات هابطة، ربما إلى مخزن ما.. وهذا باب آخر هناك..

- يؤدي إلى الشرفة أيضًا. ثلاثة أبواب تقودك من وإلى الشرفة الخارجية في المطبخ وحده!

- وهناك باب يؤدي إلى حُجَيرة تُفتح على حجرة الطعام. يبدو أن صديقتنا السيدة «ددلي» تعشق الأبواب. يمكنها الهرب في أي اتجاه متى أرادت.

تلاقت أعين «ثيودورا» و«إليانور» للحظات، ثم اتجهت «إليانور» مرة أخرى إلى الشرفة الخارجية هاتفةً:

- أتساءل إن كان السيد «ددلي» قد صنع لها بعضًا من تلك الأبواب كإضافة حديثة للمنزل. لا أعرف كيف تستطيع العمل في المطبخ بينما هناك دومًا باب مغلق خلفها قد ينفتح في أي وقت من دون أن تشعر. تُرى من، أو ماذا، تتوقَّع السيدة «ددلي» لقاءه في المطبخ فتهيِّئ لنفسها مخرجًا في أي اتجاه للهرب؟

- كفى! أرعبتِني.. عامةً الطاهي القلق لا يستطيع أن يخبز «سوفليه» جيدًا. يبدو أنها تستطيع سماع الخطوات من على بُعد؛ لذا لا تشعر بالرعب من الأبواب التي قد تُفتح فجأة.. لنختَر بابًا من أبواب السيدة «ددلي» ونُبقِه مفتوحًا خلفنا.

كان «لوك» والدكتور «مونتاجيو» يقفان في الشرفة الخارجية ينظران إلى الأعشاب حولهما، وكان الباب الأمامي قد انغلق من خلفهما لسبب مجهول.

من خلف المنزل تبدَّت التلال الخضراء المغسولة من ماء المطر. راحت «إليانور» تفكر في أنها لم ترَ من قبل منزلًا محاصَرًا من جميع الجهات

كهذا، وكأن المنزل سيصير هباءً منثورًا لو لم يُحط بالتلال والشرفات والمجرات. ثم لمحت البرج، وكأنها فوجئت به. دارت حول البيت في الشرفة حتى رأته كاملًا. كان مبنيًا من الحجارة الرمادية وملصقًا بجانب المنزل. كان كئيب المنظر، ما جعل «إليانور» تتخيَّل لو أن المنزل تفحَّم يومًا، سيظل هذا البرج سليمًا شامخًا كما هو وسط الأطلال المحترقة. ربما سكنته البوم والخفافيش وراحت تجوب المكتبة ليلًا في الظلمات.

لم يكُن في مقدور «إليانور» أن تصعد البرج أو أي مبنى شاهق آخر، فكيف سيبدو المنظر من مستوى عالٍ كهذا؟ لو قُدِّر لها يومًا أن تصعد البرج فلن تنظر إلى أسفل أبدًا.

لم يبرح مخيلتها منظر السلم الذي يلتف حول نفسه صاعدًا إلى قمة البرج. صوته المعدني الصادر عن صعود شخص، أو شيء، عليه ببطء. تكاد ترى حبلًا قديمًا يلتف حول المعدن الصدئ.

- ستسقطين!

هتف «لوك» فأفاقت «إليانور» من شرودها لتجد نفسها متمسكة بسور الشرفة ومائلة للخلف بشدة.

- لا تثقي بتوازنك في «هيل هاوس».

تنفَّست «إليانور» بعمق مغالبة الدوار الذي أصابها. أسندها «لوك» حتى استطاعت أن تقيم عودها في ذلك العالم المائل المتمايل.

سمعت «ثيودورا» وقْع خطوات دكتور «مونتاجيو» في الشرفة فهرعت لترى ما يحدث. كان «لوك» لا يزال يحدِّث «إليانور».

- هذا المنزل اللعين.. يجب أن تحترسي لنفسك في كل لحظة.

- أنا بخير، كنت أحاول أن أرى قمة البرج فشعرت بالدوار واختل توازني.

- أنا أيضًا شعرت بالدوار ذاته هذا الصباح. كنت أشعر وكأنني أسير على الحائط.

طلب دكتور «مونتاجيو» من «ثيودورا» أن تساعد «إليانور» في الدخول إلى المنزل؛ فالغريب أن الوضع لا يسوء إلا عندما يخرج المرء إلى خارج «هيل هاوس». وقتها فقط يشعر بالدوار واختلال التوازن.

شعرت «إليانور» بحرج كبير وهي تسير نحو الباب الأمامي للمنزل، لتجده لدهشتها مغلقًا.

- أذكر أننا قد تركنا هذا الباب مفتوحًا!

دفع دكتور «مونتاجيو» الباب الضخم ودلفوا إلى الصالة حيث وجدوا كل شيء قد عاد لما كان عليه. الأبواب قد أُغلقت، والستائر قد أُغلقت، وكل ما وضعوه في فرجات الأبواب ليبقوها مفتوحة قد عاد لمكانه، وذلك في جميع الحجرات حتى عم الظلام الثقيل «هيل هاوس» مرة أخرى.

اتهمت «ثيودورا» السيدة «ددلي» بفعل ذلك، بينما راحت تهرول بين الحجرات وتعيد فتح الأبواب والنوافذ.

- لقد فعلتها السيدة «ددلي» أيضًا بالأمس؛ فلديها هوس عجيب بجعل كل شيء كما ظل طيلة العقود السابقة.. حتى الأطباق يجب أن

تعود إلى الأرفف بعد كل استعمال..

ضحكت «ثيودورا» في هيستريا حتى التفت إليها دكتور «مونتاجيو» مقطبًا جبينه قائلًا:

ـ يجب أن تعي السيدة «ددلي» مكانتها جيدًا هنا. سأثبِّت تلك الأبواب بالمسامير كي لا تغلقها مرة أخرى لو اضطرتني لذلك.

كان دكتور «مونتاجيو» قد بدأ في فقد رابطة جأشه، ففتح باب حجرة الألعاب بقوة حتى اصطدم بالحائط خلفه، وسدد إليه ركلة قوية.

ـ فقدي هدوئي لن يفيد أحدًا.. أبدًا.

١٤

وضع الدكتور «مونتاجيو» شوكته جانبًا مخاطبا السيدة «ددلي»:

ـ شكرًا لك، «سوفليه» رائع..

هزت السيدة «ددلي» رأسها شاكرةً إياه سريعًا، ثم عادت إلى المطبخ حاملة الطبق الخالي. زفر الدكتور وأرخى كتفيه في تعب.

ـ أعتقد أننا جميعًا في حاجة إلى الراحة، وأنتِ بالأخص يا «إليانور»، سيفيدك الاستلقاء على السرير لنحو ساعة مثلًا. ربما لن نستطيع النوم جيدًا الليلة.

سرت القشعريرة في الظهور، ساحبة الضوء والتماع الكؤوس والأطباق. سحابة من الوجوم أظلت حجرة الطعام سبقت دخول السيدة «ددلي» مذكرةً إياهم بأن موعد رفع الأطباق قد حان.

١٥

لم تنَم «إليانور» حتى إن كانت تشتهي ذلك. فقط استلقت على فراش «ثيودورا» في الحجرة الخضراء وراحت تشاهدها وهي تلوّن أظفارها بالطلاء الذهبي.

تحدثتا طويلاً، وحرصت «إليانور» على ألَّا تُظهر لرفيقتها أنها قد تبعتها إلى غرفتها لأنها خافت أن تظل وحيدة.

ـ أحب أن أزيّن نفسي، أحب أن أطلي كل ما يمكنني طلاؤه في جسدي!

أنهت «ثيودورا» عبارتها بنظرة متأنية لكفها المفرودة. تقلّبت «إليانور» في الفراش مغمغمة وهي تكاد تغلق عينيها تعبًا فترى «ثيودورا» مجرد كتلة من الألوان على الأرض:

ـ طلاء أظفار ذهبي؟

- طلاء الأظفار والعطور وملح الاستحمام و«الماسكارا»، المرء لا يفكر مرتين يا «إليانور» في استخدام تلك الأشياء.

- لا وقت لديَّ حقًّا.

- حسنًا، بعد الوقت الذي ستمضيه معًا، ستكونين فتاة أخرى. لا أحب أن أرافق امرأة بلا ألوان!

ضحكت «ثيودورا» لتبين أنها تمزح ثم أضافت:

- وسأبدأ بوضع الطلاء الأحمر على أظفار قدميك.

ضحكت «إليانور» كذلك مادَّة قدمها العارية نحو «ثيودورا». مرت دقيقة حتى شعرت بلمسة باردة على ظفرها جعلتها تقشعر.

- بالطبع سيدة راقية مثلك معتمدة على خادماتها لتزيينها.. قدمك متسخة..

هلعت «إليانور» وسحبت قدمها سريعًا، جلست وفحصتها فوجدتها بالفعل متسخة وأظفارها مطلية بالأحمر.

كانت تغالب البكاء حتى رأت تعبير الغباء على وجه «ثيودورا» فانفجرت ضاحكة.

- سأذهب لغسل قدميَّ..

- انظري، قدماي متسختان أيضًا! لا عليكِ..

- على أي حال، لا أحب أن يصنع لي أحدهم شيئًا، حتى لو كان تزييني.

ـ أنتِ أغرب امرأة رأيتها في حياتي وأكثرهن جنونًا..

قالتها «ثيودورا» مبتسمة، لكنها لاحظت وجوم «إليانور».

ـ أكره الشعور بانعدام الحيلة.. لقد كانت أمي...

ـ كانت أمك لتحب أن تراك بطلاء أظفار أحمر. تبدين جميلة..

نظرت «إليانور» إلى قدميها مرة أخرى قائلة:

ـ منظرهما غريب.. أبدو حمقاء بأظفار كهذه..

ـ أنت تخلطين الغرابة بالحمق.. على أي حال لن أزيل الطلاء، وسنرى معًا من سينظر إلى قدميك أولًا، «لوك» أم الدكتور.

راحت «ثيودورا» تلملم أدوات الزينة الخاصة بها في حقيبة صغيرة. فكَّرت «إليانور» أن أي شيء تحاول أن تعبِّر به عن نفسها تجعله «ثيودورا» بلباقتها غبيًا.

نظرت «ثيودورا» إلى «إليانور» مليًا ثم أضافت:

ـ لديّ حدس أنك ستعودين إلى بيتك قريبًا..

هل تسخر مني؟ هل قررَتْ أنني لا أليق بمهمة كهذه؟

ـ لا أريد أن أعود إلى بيتي..

نظرت «ثيودورا» إليها سريعًا ثم تحسست الطلاء على أظفارها:

ـ لقد جفَّ تمامًا.. لا تهتمي بما أقول، فقط شعرتُ بالتوتر للحظة. لننضم للآخرين.

١٦

على منحوتة تمثل خرائب ما في بهو الدور العلوي، أسند «لوك» رأسه متأملًا المكان من حوله:

- لا أنفك أفكر في هذا المنزل على أنه سيؤول لي يومًا ما. لا أعرف لماذا اعتبرته ملكًا لي من الآن وما زلتُ أسأل نفسي عن السبب! فلو كان لي شغف خاص بالأبواب أو الساعات العتيقة أو المنمنمات الغامضة لكان هذا سببًا كافيًا لجعل «هيل هاوس» منزل أحلامي.

- هو بيت جميل، لا بُدَّ أنه كان أنيقًا وقت بنائه.

سار دكتور «مونتاجيو» نحو نهاية البهو، نحو حجرة الأطفال، مردفًا:

- والآن، تستطيع من خلال نافذة تلك الغرفة أن نرى البرج. أتساءل لو كنا سنشعر بتيار هواء عند فتح الباب.

ضحكت «ثيودورا» قائلة:

ـ تيار هواء؟ في «هيل هاوس»؟ إلا إذا أفلحت في إبقاء الأبواب والنوافذ مفتوحة.

ـ تعالوا هنا إذًا فردًا فردًا..

تحركت «ثيودورا» للأمام عابرة الباب..

ـ يبدو كباب ثلاجة، على الرغم من دفء الغرفة!

شعرت «إليانور» بلسعة البرودة ذاتها عند فرجة الباب التي اختفت تمامًا بعد خطوة واحدة. كما مر «لوك» وكأنما مر خلال لوح من الثلج.

ـ ما هذا؟

فرك دكتور «مونتاجيو» كفيه جزلًا وأضاف:

ـ سأترك لكم الأبواب والمنمنمات والكراسي الوثيرة، لديَّ هنا أعجوبة أكثر منها بكثير. لم يستطِع أحد تفسير هذا مطلقًا. وكأن هذا المكان هو قلب «هيل هاوس» البارد.

في كنيسة القديس «بورلي» المسكونة، هناك بقعة بعينها تنخفض فيها درجة الحرارة عن باقي المكان إحدى عشرة درجة. هنا الوضع مختلف، أراهن أنه أبرد بكثير.. قلب «هيل هاوس» البارد..

اقتربت «ثيودورا» و«إليانور» من بعضهما البعض. وعلى الرغم من دفء حجرة الأطفال فإنها كانت ذات رائحة ثقيلة رطبة.

خارج النافذة، كانت أحجار البرج الرمادية جاثمة، وداخل الحجرة كان الظلام يعطي سمتًا كئيبًا على رسومات الحيوانات الطفولية على

ـ على أن السيدة «ددلي» ليست بالرفيق الذي نشعر معه بالصحبة.. هذا غريب.

حدقت «إليانور» في منضدة العشاء والأطباق المتسخة عليها وأردفت:

ـ على الرغم من أنني لا أميل لها كثيرًا، فإن أمي لم تكُن تدعني أترك أطباق العشاء متسخة هكذا طيلة الليل.

ـ إن كانت تريد الرحيل قبل الظلام، فلا مفر من ترك الأطباق المتسخة حتى الصباح هنا.

ـ لا أعتقد أنه من اللائق أن ننصرف ونترك أطباقًا متسخة هنا.

ـ لن نستطيع إعادتها للأرفف الخاصة بها كما تعرفين، هناك ترتيب خاص لكل شيء؛ لذا فعليها إعادة ترتيب الأطباق عد غسلها لإزالة آثار أصابعنا من عليها.

ـ لنضع الفضيات في ماء كي لا يجف الطعام عليها..

ـ «إليانور».. هل تريدين حقًّا أن تذهبي للمطبخ وتعبري تلك الأبواب كلها ليلًا؟

ـ لا.. لا أعتقد..

وضعت «إليانور» الملاعق والسكاكين التي قد جمعتها في قبضتها مرة أخرى على المنضدة. ورمقت الأطباق المتسخة والفوط المطوية بإهمال فوق بقعة من النبيذ خلَّفها «لوك» مكان جلوسه. تساءلت عمَّا كانت ستقوله أمها لو رأت منظرًا كهذا.

كانت نيران المدفأة متوهجة. جلست «ثيودورا» بجوار صحفة القهوة،

بينما أخرج «لوك» زجاجة «البراندي» من الخزانة حيث وضعها الليلة الماضية.

- يجب أن نقضي وقتًا ممتعًا بأي طريقة، دكتور «مونتاجيو»، أتحداك في مباراة شطرنج جديدة.

قبل بداية أمسيتهم، جمعوا كل المقاعد الوثيرة والمصابيح من الحجرات الأخرى ووضعوها في حجرة الاستقبال لتصبح أكثر راحة وقابلية لإمضاء أوقاتهم الليلية بها.

ناولت «ثيودورا» «إليانور» كوب القهوة، بينما جلست الأخيرة على كرسي وثير بشكل مبالَغ فيه. قالت «ثيودورا» في رضا:

- لقد كان «هيل هاوس» رحيمًا بنا، لا توجد أطباق متسخة لتكون مهمة غسلها لـ«إليانور»، أمسية لطيفة ومقاعد مريحة ورفقة ممتازة. ربما تشرق الشمس غدًا كذلك.

- يجب أن نعد لنزهة خلوية في حال سطوع الشمس.

- سيزداد وزني حتمًا في «هيل هاوس»، لقد أصبحت أكثر كسلًا بالفعل.

تكرار اسم «هيل هاوس» على لسان «ثيودورا» بهذا الإفراط أصاب «إليانور» بنوع من القلق. وكأن «ثيودورا» تصر على أن يعلم المنزل أنها تعرف اسمه ولا تخشاه.

تبادل «لوك» و«ثيودورا» الدعابات والضحك، بينما راحت «إليانور» تراقبهما من فوق حافة كوبها. بدا الأمر بالنسبة لها كالانتظار في عيادة

طبيب الأسنان، عليها أن تجلس صامتة تستمع إلى مزاح الآخرين. نظرت «إليانور» إلى أعلى حين أدركت أن الدكتور يقف جوار كرسيها، وابتسمت في تردد.

ـ متوترة؟

ـ فقط لأنني لا أعرف ماذا سيحدث لاحقًا هنا.

ـ وأنا أيضًا، هل تشعرين أن شيئًا ما سيحدث قريبًا؟

ـ أجل.. كل شيء يبدو كأنه ينتظر إشارة ما..

جذب الدكتور كرسيًا وجلس جوار «إليانور»، ثم نظر إلى «لوك» و«ثيودورا» وأردف:

ـ هذان أيضًا شعرا بالشعور ذاته وواجهاه بطريقتهما؛ المزاح. لا أعرف ماذا سيفعل المنزل بنا. منذ أربعة شهور مضت، لم أكُن أتخيل أننا سنكون هنا تحت سقف هذا المكان.

لاحظت «إليانور» أن دكتور «مونتاجيو» لم يذكر اسم المنزل.

ـ هل تظن أننا مخطئون في المجيء إلى هنا؟

ـ أليس كذلك؟ أعتقد أننا جميعًا حمقى لمجيئنا إلى هنا. في جو مقبض كهذا، تمسي نقاط ضعفنا ومخاوفنا مجسمة مرعبة. ربما تكسرنا وطأة تلك الأحاسيس في غضون أيام. لدينا خط دفاع وحيد؛ الهرب. على الأقل لن يتبعنا، أليس كذلك؟ لو شعرنا بخطر يحيق بنا سنغادر كما جئنا، فقط بأسرع ما نستطيع.

ـ لكننا نعلم أننا ربما نواجه شيئًا غير مألوف، تلك مزية. كذلك

نحن أربعة أشخاص..

ـ لقد أخبرت «لوك» و«ثيودورا»، وها أنا أخبرك، إن شعرتِ بأن المنزل سينال منك بأي طريقة، غادري بأسرع ما تستطيعين.

ـ أعدك..

ـ ولن أتردد في إرسالك بعيدًا عن المنزل في حال وجدت خطرًا عليك لا تدركينه.

بينما يعد «لوك» والدكتور لوحة الشطرنج، كانت «ثيودورا» تجوب الحجرة ممسكة بكوب القهوة. لاحظت «إليانور» أنها تبدو كحيوان قلق متوتر، لا تستطيع الجلوس ما دامت قد شعرت بشيء غريب في الأجواء. دعتها «إليانور» إلى الجلوس، فهوت على الكرسي الذي كان يجلس عليه الدكتور، وأراحت ظهرها في تعب. يا لجمالها!

ـ هل تشعرين بالتعب يا «ثيو»؟

ـ لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا.

ـ لا يبدو عليك القلق.

ـ «نيل»، ربما كنت فقط أشعر بالحنين لبيتي. هل فكرتِ لو أن بيتك هو «هيل هاوس»، هل كنت ستشتاقين إليه؟ هل بكت الطفلتان من أجل بيتهما الكئيب المظلم عندما أخرجوهما منه؟

ـ أنا لم أبتعد من قبلُ عن أي مكان؛ لذا لم أشعر بحنين لبيت ما.

ـ ماذا عن الآن؟ ألا تشتاقين لشقتك الصغيرة؟

حدقت «إليانور» في النار وأجابت:

- ربما، أنا لم أمضِ بها وقتًا كافيًا كي أعتبرها بيتي..

- أنا أريد فراشي.. أشعر بالنعاس.

فكرت «إليانور» أن «ثيودورا» تتحوَّل إلى طفل صغير عندما تشعر بالجوع أو الملل.

- الساعة جاوزت الحادية عشرة.

نظرت «إليانور» إلى «لوك» والدكتور اللذين انتهيا لتوهما من مباراة الشطرنج القصيرة. ضحك «لوك» صائحًا:

- لقد خسرتُ.. أعترف لك بهذا يا دكتور.

راح «لوك» يجمع قطع الشطرنج داخل صندوقها، بينما تساءل الدكتور عن إمكانية أن يأخذ معه كأسًا من النبيذ إلى حجرته لتساعده على النوم، أو لإعطائه دفعة من الشجاعة إن حدث شيء الليلة.

- سأقرأ قليلًا قبل النوم أيضًا..

- أما زلت تقرأ رواية «باميلا»؟

- الجزء الثاني، لديَّ ثلاثة أجزاء منها. عندما أنتهي منها سأبدأ في «كلاريسا هارلو». ربما يريد «لوك» أن يستعير...

- لا، شكرًا، لديَّ حقيبة ملأى بالروايات البوليسية.

تلفَّت الدكتور حوله ليتأكد من أنهم أخمدوا نيران المدفأة وأطفؤوا الأنوار وتركوا الأبواب مفتوحة كي تغلقها السيدة «ددلي» في الصباح.

في تعب، تلا كل منهم الآخر صعودًا إلى الطابق الثاني، يطفئون

الأنوار في طريقهم. تأكَّد الدكتور أن مع كل واحد منهم كشافًا كهربيًا. كان الجميع ناعسين وهم يصعدون الدرجات المظلمة لـ«هيل هاوس».

قالت «ثيودورا» وهي تفتح باب حجرتها:

ـ تصبحون على خير.

أجابها الجميع بالمثل، مع أمنية بنوم هانئ من دكتور «مونتاجيو».

١٨

ـ أنا آتية يا أمي.. آتية..

قالتها «إليانور» وهي تبحث عن مفتاح النور في الظلام.

ـ أنا آتية يا أمي.

سمعت «إليانور» من يناديها:

ـ «إليانور».

ـ أنا آتية.. آتية..

صاحت في تعب:

ـ آتية.. دقيقة واحدة..

ـ «إليانور»..

ثم أدركت «إليانور» في صدمة مباغتة أيقظتها من تخبطها.. أنا في «هيل هاوس»!

ـ «ثيودورا».. ماذا تريدين؟

ـ هلَّا أتيتِ!

ـ أنا آتية..

لا وقت للبحث عن مفتاح النور. تعثَّرت «إليانور» في منضدة في طريقها إلى باب الحمام المشترك. هذا ليس صوت وقوع المنضدة، هذه أمي تقرع الحائط بيننا.

كانت غرفة «ثيودورا» مضاءة، وكانت تجلس وسط الفراش، شعثاء الشعر جرَّاء النوم، متسعة العينين هلعًا.

ـ أنا هنا.. ما الخطب؟

ثم سمعت «ثيودورا» ما كانت تسمعه طيلة الليلة ولم تُعِره انتباهًا.

ـ ما هذا؟

جلست «إليانور» عند طرف فراش «ثيودورا» وتساءلت عن مصدر الصوت. هناك ضوضاء من جهة الردهة، من ناحية حجرة الأطفال تحديدًا. لم تكُن أمها من كان يطرق على الحائط.

ـ هناك من يطرق الأبواب.

قالتها «ثيودورا» في هلع حقيقي.

ـ لا عليكِ، الصوت في الجهة البعيدة من البهو. ربما سمعه الدكتور و«لوك» وهما يستعدان لمعرفة سببه.

لا يبدو الصوت كصوت طرقات أمي على الحائط، يبدو أنني أحلم مرة أخرى.

كان الصوت مجرد طرقات على الأبواب، مع انخفاض شديد في درجة الحرارة.

سرت برودة مضاعفة على طول العمود الفقري لـ«إليانور»، وكأنه شيء حي يزحف هناك. لفت ذراعيها حول نفسها وضغطت فكيها قائلة:

- «ثيودورا»، الطرقات تقترب.

التصقت «ثيودورا» بـ«إليانور» وقالت من بين أسنانها:

- هي مجرد طرقات.. الصدى يضخم الصوت.

بدا الصوت لـ«إليانور» كصوت أجوف، طرقات خاوية، كأن أحدهم يطرق على الأبواب بإناء مفرغ، أو قفاز حديدي. كانت الطرقات سريعة في أحيان، وقوية في أحيان، ورقيقة في أحيان أخرى، تتحرك من باب إلى آخر عبر الردهة.

ظنت «إليانور» أنها تسمع صوت الدكتور و«لوك» من مكانٍ ما في الطابق السفلي. **إذًا نحن وحيدتان في هذا الطابق!** ثم سمعت طرقات عنيفة على باب قريب جدًّا.

- «إليانور»، يبدو الصوتُ آتيًا من صف الحجرات المقابل.

المذهل فيما يحدث أن «ثيودورا» تشعر بالضبط بما تشعر به. ثم سمعتا الطرقات على باب الحجرة المجاورة، حجرة «إليانور». كان الصوت أقوى والطرقات أكثر عنفًا.

هل يطوف ذلك الشيء في الردهة على قدميه فوق البساط؟ هل يستخدم كفيه في الطرق؟

اندفعت «إليانور» نحو الباب واضعة كفيها عليه صائحة:

ـ ابتعد.. ابتعد.. ابتعد!

ساد الصمت فجأة. وقفت «إليانور» مولية وجهها نحو الباب.. لقد فعلتها، جعلته يرحل. يبدو أنه كان يبحث عن حجرة يقطنها أحدهم.

انخفضت الحرارة أكثر حتى علا صوت اصطكاك أسنان «ثيودورا».

ـ «ثيودورا»، أيتها الطفلة الكبيرة!

ـ أشعر بالبرد الشديد.. أنا أموت!

أخذت «إليانور» الغطاء الثقيل أخضر اللون ولفته حول رفيقتها، ثم ارتدت هي رداء حمام «ثيودورا».

ـ هل تشعرين بالدفء الآن؟

ـ أين «لوك»؟ أين الدكتور؟

ـ لا أعرف، هل تشعرين بالدفء الآن؟

ـ لا.

ـ سأخرج لأرى أين هما، سأعود فورًا.. هل...

بدأ الطرق من جديد، وكأن الطارق كان ينتظر، يسترق السمع، ليتعرَّف أكثر إليهما وإلى مدى استعدادهما لمواجهة ما ستلقيانه، وما إن كانتا خائفتين أم لا.

تراجعت «إليانور» ملتصقة بالفراش، وشهقت «ثيودورا» صارخة. انتقل الطرق إلى بابهما، فنظرت كل منهما إلى الأخرى في ذعر. كان القرع في أعلى نقطة من الباب، حيث لا يستطيع «لوك» أو الدكتور أو أي بشري الوصول. واصلت درجة الحرارة انخفاضها بشكل مطرد.

حدقت «إليانور» في الباب غير عالمة ما عليها فعله. الحقيقة أنها لم تكُن مذعورة بشكل زائد على ما تخيلته عن نفسها على الرغم من أن ما يحدث قد فاق أسوأ كوابيسها.

كان البرد يضايقها أكثر ممَّا تضايقها غرابة الأحداث، وكان معطف «ثيودورا» بلا نفع في مواجهة تلك القبضة المثلجة التي تقبض على ظهرها.

فكرت «إليانور» أن أفضل شيء يمكن فعله هو فتح الباب، وهو ما يتفق تمامًا مع معايير الدكتور «مونتاجيو» العلمية. لكن أنَّى لها بالجرأة للقيام والمشي نحو الباب وإدارة المقبض؟ هذا عمل يتطلب شجاعة غير بشرية للقيام به.

كانت الطرقات تخفت وتبتعد حين قالت «ثيودورا»:

ـ سأشكو السيد «ددلي» لإهماله في صيانة التدفئة.. هل توقف الطرق؟

ألصقت «إليانور» أذنها بالباب، لم تتوقف الطرقات. لقد وجدهما الشيء ولا بُدَّ أنه يبحث عن طريقة لاختراق الحجرة عليهما. صاحت «إليانور»:

ـ الآن عرفت لِمَ يصرخ الناس؛ لأنني أعتقد أنني سأصرخ الآن.

ـ سأصرخ إن صرختِ!

ضحكت «ثيودورا» فعادت «إليانور» سريعًا إلى الفراش واحتضنت كل منهما رفيقتها، تستمعان وسط الهدوء المفاجئ لربتات خفيفة حول حلق الباب كأنها تحاول التسلل.

دار مقبض الباب ببطء، فحدقت «إليانور» فيه هامسة:

ـ هل أحكمتِ غلقه بالمفتاح؟

هزت «ثيودورا» رأسها إيجابًا، وأدارت عينيها المتسعتين هلعًا لباب الحمام المشترك بين حجرتيهما.

ـ أنا أيضًا أحكمت غلق بابي.. لا تقلقي.

أغلقت «ثيودورا» عينيها في ارتياح. دارت اللمسات حول الباب مرة أخرى، وكأن صاحبها قد استشاط غضبًا، راحت الطرقات تتعالى مرة أخرى، ورأت «ثيودورا» و«إليانور» خشب الباب يكاد يتشقق من ثقلها، وتكاد المفصلات تنخلع من مكانها.

صاحت «إليانور» في وحشية:

ـ لم تستطعِ الولوج!

ساد الهدوء مرة أخرى، وكأن المنزل استمع لكلماتها، وفهمها، وانصاع لها موافقًا على الانتظار. سرت ضحكة وجلة في الغرفة سرعان ما انقلبت لصيحات مجنونة مصحوبة بضحكات شامتة تطوف أرجاء المنزل. ثم سمعتا صوت «لوك» والدكتور يناديان من الطابق السفلي.

عندما ساد الصمت الحقيقي، نظرت المرأتان إلى بعضهما البعض وضحكتا. كانتا تمسكان بعضهما كطفلتين مذعورتين. حدقت «ثيودورا»

في «إليانور»:

ـ أنتِ ترتدين رداء الحمام الخاص بي!!

ـ نسيت ردائي.. هل انتهى الأمر؟

ـ أعتقد أنه انتهى، لليلة فقط.. لن يستطيع أحد أن يجزم بعدم تكراره غدًا. ألا تشعرين بالدفء؟

كان الدفء يعود، ولم يتبقَّ من البرد سوى تلك القبضة المثلجة على ظهر «إليانور». نظرت «إليانور» إلى الباب وهي تحل عقدة حزام رداء الحمام. قالت «ثيودورا»:

ـ الإحساس بالبرودة الشديدة من أعراض الصدمة.. أسمع خطوات «لوك» والدكتور في الخارج.

كانتا تسمعان حديث الرجلين القلقين. ألقت «إليانور» الرداء على الفراش وقالت:

ـ يا إلهي! لا تدعهما يطرقا الباب.. طرقات أخرى ستقضي عليَّ.

جرت «إليانور» إلى غرفتها لترتدي ثيابًا لائقة، بينما طلبت «ثيودورا» منها الانتظار دقيقة.

ثم قامت وفتحت الباب. دخل «لوك» فاحصًا إياها بناظريه:

ـ تبدين كمن رأى شبحًا.

عندما عادت «إليانور»، رأت الدكتور و«لوك» بملابس الخروج الثقيلة فخطر ببالها أن تتدثَّر بثيابها في أثناء نومها فلا تباغتها البرودة

في الليلة المقبلة، ولا يهم ما ستقوله عنها السيدة «ددلي» لو عرفت أنها ستنام بالجوارب الثقيلة والحذاء أيضًا.

ـ ما شعور السيدين تجاه المبيت في منزل مسكون؟

ـ لا بأس به على الإطلاق، بل يعطيني سببًا لتناول كأسٍ من النبيذ في منتصف الليل.

كان «لوك» ممسكًا بالفعل بزجاجة نبيذ وأربع كؤوس. جلس الجميع حول فراش «ثيودورا» يشربون ويسددون نظرات سريعة متوترة لما حولهم. يتساءلون عمّا يخفيه الآخرون من أسرار ربما تنفتح وتنز الصديد تحت وطأة ما سيرونه في «هيل هاوس».

ـ هل حدث شيء هنا بينما كنا في الخارج؟

جرّاء سؤال الدكتور، نظرت «ثيودورا» و«إليانور» إلى بعضهما البعض وضحكتا ضحكة صافية بلا خوف أو هيستريا. قالت «إليانور»:

ـ لا شيء، أحدهم كان يطرق على الباب بمدفع، ثم حاول أن يقتحم الغرفة ليأكلنا، وحين فشل انفجر في ضحكة مجنونة ماجنة.. حقًا، لا شيء!

ـ أشكر له أنه لم يحطّم الأبواب الخشبية العزيزة، لم أكُن لأتحمل تلك الخسارة، خاصة أن «إليانور» كانت ستنفجر في الصراخ.

ـ أنتِ أيضًا قلت إنك ستصرخين.

ـ لن أفعل، أنا فقط فضّلت تهدئتك وإزالة الهلع عنك، خاصة أن السيدة «ددلي» قد قالت إنها لن تسمع صراخنا ولن تأتي. المهم، أين كنتما؟

- كنا نطارد كلبًا، أو ما بدا لنا أنه كلب. وقد تبعناه للخارج.

- تعني أنه كان في الداخل؟!

- أنا رأيته يعدو خارج غرفتي.

قالها الدكتور وأردف:

- لمحته فقط من دون تعيين تفاصيل، فأيقظت «لوك» وطاردناه إلى الخارج. ثم فقدنا أثره خلف المنزل.

- هل كان الباب الأمامي مفتوحًا؟

- لا، الأبواب والنوافذ كلها كانت مغلقة، لقد تأكدنا من ذلك قبل النوم.

- أضعنا وقتًا طويلاً في فحص الحديقة ولم يخطر لنا أنكما متيقظتان حتى سمعنا صوتكما. هناك شيء آخر لم نفكر فيه.

اجتمعت الأعين على وجه دكتور «مونتاجيو» متسائلة، فنظر إلى أظفاره وبدأ الحديث كأننا في محاضرة:

- أولًا: لقد كنا مستيقظين أنا و«لوك»، وكنا ندور في أرجاء المنزل وحوله لمدة ساعتين تقريبًا. ربما هذا ما أدى بنا إلى تلك المطاردة العقيمة. ثانيًا: لم يسمع أحدنا أي صوت من الطابق الثاني عدا صوتيكما. كل شيء كان هادئا تمامًا، ما يؤدي بنا إلى استنتاج أن صوت الطرقات لم يكن مسموعًا لأحد سواكما. ربما مطاردتنا لذلك الشيء كانت مجرد طعم لإبعادنا عنكما. والآن باجتماعنا معًا، كل شيء استقر وهدأ.

سألت «ثيودورا» حائرة:

ـ لا أفهم ما الذي ترمي إليه؟

ـ يجب أن نتخذ احتياطاتنا..

ـ ضد من؟ وكيف؟

ـ عندما قادنا الكلب للخارج، كنتما حبيستين هنا بمفردكما، ألا يبدو هذا كمخطط لفصلنا؟

١٩

إنه صباحي الثاني في «هيل هاوس»..

نظرت «إليانور» إلى انعكاسها في المرآة، كان بهيجًا على الرغم من كآبة الغرفة الزرقاء. كانت سعيدة؛ فقد مرَّت بليلة عاصفة، شربت وضحكت وحكت الأكاذيب عن نفسها. بدت سخيفة ولم تحاسب نفسها على ذلك.

لقد كانت مذعورة الليلة السابقة؛ لذا فقد استحقت تلك السعادة الصغيرة. ابتسمت لنفسها في المرآة هامسة:

ـ أنتِ سعيدة اليوم يا «إليانور»..

تنتهي الرحلة بلقاء الأحبة.. بلقاء الأحبة.

كانت «ثيودورا» تتهم «لوك» ضاحكةً بأنه سرق جوربها بعد سُكْر ليلة أمس، وتردد اتهامها بصوت عالٍ حتى تسمع السيدة «ددلي»،

فأجابها «لوك» أنه من الشرف أن يحتفظ الرجل بذكرى من رفيقة ليلة، وأن بالفعل السيدة «ددلي» قد سمعت.

طرقت «ثيودورا» باب «إليانور» متسائلة:

ـ «إليانور»، هل أنت مستيقظة؟ هل أستطيع الدخول؟

ـ بالتأكيد، ادخلي..

نظرت «إليانور» نظرة أخيرة لانعكاسها وقالت لنفسها إنها تستحق السعادة، لقد تعبْتُ كثيرًا حتى استحققتها.

ـ يا لجمالك اليوم يا «نيللي» الصغيرة، يبدو أن الأحداث المريبة تمنحك تألقًا خاصًا! كان حريًا بنا أن نستيقظ بهالات سوداء حول أعيننا.

لفت «ثيودورا» ذراعها حول كتفي «إليانور» ونظرتا معًا إلى المرآة.

ـ انظري إلينا.. زهرتان يانعتان صغيرتان!

ـ أنا في الرابعة والثلاثين..

لا تعرف «إليانور» ما الذي دفعها لإضافة عامين إلى عمرها الحقيقي.

ـ وتبدين كفتاة في الرابعة عشرة.. هيا بنا، لقد استحققنا إفطارنا..

ضاحكتين، هرولتا هابطتين الدرج متجهتين إلى حجرة الصيد ومنها إلى حجرة الطعام، وكان «لوك» والدكتور بانتظارهما..

ـ صباح الخير، هل نمتما جيدًا؟

ـ جدًا، كالأطفال..

ـ أعتقد يا «إليانور» إن كان ثَمَّة ضوضاء خفيفة، لكنها متوقعة في منازل عتيقة كهذه.. دكتور، ماذا سنفعل اليوم؟

بدا الدكتور «مونتاجيو» متعبًا، لكن عينيه أضاءتا بالحماس لسؤال «ثيودورا». كان الجميع يستمتع بالفعل بوقته على الرغم من الأحداث الجارية.

ـ منزل ولاية «بارشين»، كنيسة «بورلي»، قلعة «جلاميس».. من المذهل أن يجد المرء نفسه في مواجهة مع مثيلٍ لتلك الأماكن. ذلك الشعور الغريب الذي يغزونا، والرضا، شيء غير متوقَّع. لن تصدق زوجتي ما نشعر به، حتى إن للطعام مذاقًا مختلفًا.. هل تشعرون بذلك؟

هز الجميع رؤوسهم موافقين. غمغمت «ثيودورا»:

ـ أحاول أن أتذكر بدقة أحداث ليلة أمس.. أذكر أنني كنت خائفة، لكنني لا أذكر أنني بالفعل شعرت كذلك!

ـ أنا أذكر البرودة..

ـ أعتقد أن سبب ذلك هو تعرُّضنا لموقف لا يُصدَّق بالأساس. موقف غير منطقي ترفض عقولنا استيعابه.

ابتسمت «إليانور» في حرج بينما قال «لوك»:

ـ أوافقك الرأي يا دكتور، لقد استيقظت صباحًا وأنا أحاول أن أقنع نفسي أن ما حدث حقيقة.

ـ الآن أشعر أن ما حدث كان مثيرًا..

رفع الدكتور إصبعه محذرًا وهتف:

ـ ما زالت احتمالية أن ما حدث مجرد هلاوس بفعل ذبذبات جريان المياه الجوفية وارد..

ـ هل تظن أن تلك المنازل المسكونة كلها مبنية فوق ينابيع مخفية؟

ـ تلك السعادة التي نشعر بها لا تريحني.. ربما كانت خطيرة أيضًا.. هل تعني أننا تحت وطأة تعويذة ما؟

ـ إن كانت ليلة أمس هي اختبارًا من «هيل هاوس» لاحتمالنا، فلن نواجه مشكلات أصعب. لقد ارتعبنا وكانت خبرة سيئة في أثناء حدوثها، لكنني الآن لا أذكر أنني شعرت بخطر محدق وقتها. حتى إن مقولة «ثيودورا» إن أيًا ما كان وراء بابها كان قادمًا ليلتهمها لم تعُد منطقية، لم يكُن ثمَّة خطر حقيقي.

ـ أنا أعرف ما كانت تقصده «ثيودورا»، لقد كنت معها وأعرف أنها الكلمة الأدق لما شعرنا به وقتها. وكأنه يريد أن يمتصنا، يأخذنا لنفسه بشكل ما. لا أعرف إن استطعت أن أوصل لكما الفكرة..

قال دكتور «مونتاجيو» بلهجة واثقة:

ـ لا وجود لخطر مادي علينا، على مدار قصص الأشباح في التاريخ، لم يؤذِ شبحٌ أحدًا بشكل مادي. الأذى الوحيد الذي يمكن حدوثه هو أذى الشخص لنفسه. يمكننا أن نقول: إن الأشباح تهاجم العقل؛ لأن العقل هش. قبل الليلة الماضية، لم نكُن نصدِّق وجود أشباح، بل إننا لم نذكر لفظة «شبح» حتى من دون ابتسامة ساخرة. والآن، بعد ما حدث أمس، ذابت عقولنا المتحضرة وبدأنا في الحديث عن الماورائيات بجدية.

لا يمكن لأحدنا أن يجزم بأن ما عدونا خلفه في الحديقة شبح، لن يقدر عقلنا الواعي على هذا. لكننا نجزم أن شيئًا ما يحدث في «هيل هاوس» ليلًا. الشك هو ملجأ العقل، ولقد تم إقصاء الشك بمشاهدة جماعية. لن نستطيع أن نزعم بعد ذلك أننا كنا نتخيَّل.

ابتسمت «إليانور» وهمست:

ـ يمكنني أن أقول إن ثلاثتكم في مخيلتي، وإنه لا شيء حقيقي من هذا كله.

ـ إن كنتِ تظنين ذلك حقًا، فحريٌّ بي أن أخرجكِ من «هيل هاوس» هذا الصباح. فقد اقتربتِ جدًا من الحالة العقلية التي أخشى أن يقترب منها أحدكم تحت تأثير المنزل.

ـ كنت أعتقد أنني سأستحق الابتعاد لو اتخذت نفس صف «هيل هاوس» ضدكم.

لماذا أنا بالذات؟ لماذا أنا؟ هل أنا الضمير الجمعي الذي يفترض بي أن أقول في برود ما يتكبَّر الآخرون عن البوح به؟ هل أنا مجبرة على أن أكون الحلقة الأضعف؟ أضعف من «ثيودورا»؟ أنا لن أنقلب عليهم على عكسهم جميعًا..

ـ على صعيد آخر، فإن ما يُدعى «البولترجايشت»، أو «الشبح الصاخب»، يتعامل مع الأمور المادية بشكل أكبر؛ فهم يلقون الحجارة ويحركون الأثاث ويكسرون الصحون. على الرغم من ذلك، فإنهم أقل الكائنات الماورائية تعقلًا وعقلًا. مجرد قوة باطشة غير موجهة. هل تذكرون رواية «أوسكار وايلد»، «شبح كانترفيل»؟

أجابت «ثيودورا» سريعًا:

ـ التوأمان الأمريكيان اللذان طردا الشبح الإنجليزي المهذب..

ـ بالضبط. أنا أعتقد أن الأمريكيَين كانا ظاهرة من ظواهر الأشباح الصاخبة. تِلكُم الأشباح هي الوحيدة القادرة على مواجهة الأشباح المهذبة وطردها، بل وطرد أي شيء آخر. هناك ضيعة في أسكتلندا موبوءة بالأشباح الصاخبة، حتى إن سبعة عشر حريقًا اشتعلت بها في يوم واحد. الأشباح الصاخبة تحب تحريك الأثاث وقلب الفُرُش. أذكر أن قسًا اضطر لهجر منزله؛ لأن هناك شبحًا صاخبًا يتلو تراتيم كنسية داخل رأسه كلما جلس الرجل ليرتاح!

فجأة بلا أي مقدمات، انفجرت «إليانور» في الضحك، خالجها شعور عارم بأن تطوّح المنضدة وتحتضن دكتور «مونتاجيو». أرادت أن تعدو وتغني وتدور فاردة ذراعيها بين حجرات «هيل هاوس».

أنا هنا.. أنا هنا..

أغمضت عينيها وأبعدت الخاطر العجيب، ثم سألت دكتور «مونتاجيو»:

ـ ماذا سنفعل اليوم؟

ـ ما زلتم كعُصبة من الأطفال! دائمًا ما تسألوني ماذا ستفعلون اليوم. ألا يمكنكم تسلية أنفسكم بلعبكم؟ لديَّ عمل عليَّ أن أنجزه.

اقترحت «ثيودورا» أن يمارسوا الانزلاق على إفريز الدرج، ورأت «إليانور» أن لعبة الغميضة ستكون أفضل.

ـ افعلوا ما تشاؤون، لكن لا تجولوا في المنزل كثيرًا، لا أعرف السبب، لكنها لا تبدو لي فكرة جيدة.

ـ هل تظن أن هناك دبًا مختبئًا؟

ـ أو نمرًا في العلية؟

ـ أو ساحرة شريرة أعلى البرج، أو تنينًا يسكن حجرة الرسم؟

ـ أنا جاد، لا أمزح!

شاركهما دكتور «مونتاجيو» الضحك، ثم قاطعهم صوت السيدة «ددلي»..

ـ أنا أرفع الأطباق في العاشرة..

ـ صباح الخير سيدة «ددلي»..

قالها دكتور «مونتاجيو» بينما مال «لوك» و«ثيودورا» و«إليانور» خلفًا في محاولة لإخفاء ضحكاتهم.

ـ أنا أرفع الأطباق في العاشرة..

ـ لن نؤخرك عن موعدك.. فقط خمس عشرة دقيقة..

ـ أنا أرفع الأطباق في العاشرة، وأضع طعام الغداء في الواحدة والعشاء في السادسة. والساعة الآن العاشرة..

لاحظ دكتور «مونتاجيو» وجه «لوك» المحتقن بالضحك المكتوم، فرفع منشفته وغطى بها عينيه مستسلمًا:

ـ يمكنك رفع الأطباق.. سيدة «ددلي».

صدح صوت ضحكاتهم عبر ردهات «هيل هاوس»، واصلًا إلى المنحوتة الرخامية في حجرة الموسيقى، ومنها إلى حجرة الأطفال حتى اعتلى قمة البرج الرمادي.

استلقوا على المقاعد في حجرة الاستقبال بينما الضحك لا يزال في أوجه. خبأ دكتور «مونتاجيو» وجهه في كفيه وهو يتمالك نفسه قائلًا:

ـ يجب ألَّا نسخر من السيدة «ددلي»...

راحت كتفاه تهتزان ضحكًا ولم يستطِع أن يُكمل جملته. استغرقهم الضحك طويلاً فلم يقطعه سوى أنصاف الجمل بينهم. اهتزت أحجار «هيل هاوس» حتى خفتت ضحكاتهم، ارتموا منهكين يحاولون أن يلتقطوا أنفاسهم. قال دكتور «مونتاجيو» شاهقًا:

ـ الآن.. الآن أعتقد أننا في حاجة إلى قهوة، أليس كذلك؟

ـ هل تقصد أن نذهب إلى المطبخ ونطلبها من السيدة «ددلي»؟

ـ هل نذهب إليها والساعة ليست الواحدة ولا السادسة ونطلب منها قهوة؟ يالَهُ من جنون!

ـ «لوك» يا بني، أعتقد أنك المفضَّل بيننا عند السيدة «ددلي»...

قاطعه «لوك»:

ـ وكيف لك أن تلاحظ شيئًا كهذا؟ هل تسدد لي نظرات ولهة؟ هل تعطيني طعامًا أكثر، أم...

ـ أنت، قبل كل شيء، الوريث الشرعي للمنزل، وبالتأكيد تشعر نحوك بما يشعر به الخادم المخلص للعائلة تجاه مخدومه الجديد.

ـ في عينيَ السيدة «ددلي» أنا أتفه من شوكة ملقاة أرضًا. فإن كنت ترغب في طلب شيء من السيدة العجوز فلترسل «ثيو» أو ساحرتنا «تيل»؛ فهما ليستا خائفتين من...

ـ لا يمكنك أن ترسل امرأة وحيدة في مهمة كهذه.. نحن هنا لأنكما تحميانِنا، لا لكي نحارب معارككما أيها الجبان.

ـ حسنًا، ليذهب الدكتور..

ـ مستحيل.. لا يمكنك أن تطلب من رجل عجوز مثلي أن يذهب.. أنت الفتى المفضَّل لديها.

ـ أيها المسن الوقح، أتضحّي بي من أجل كوب من القهوة؟! لا تتفاجأ إذًا، وأقولها واضحة: لا تتفاجأ لو فقدتني في تلك المهمة. ربما تحيلني السيدة «ددلي» لفيليه «لوك» مع الليمون والزبد أو «لوك» مشوي مع الصلصة، حسب مزاجها. لو لم أعد، فأعدك أن يكون غداؤك محل شك عظيم..

انحنى «لوك» بشكل تمثيلي مبالَغ فيه وخرج من باب الحجرة وأغلقه خلفه.

تمطَّت «ثيودورا» في كرسيها وهمست:

ـ لطيف «لوك»..

ـ لطيف «هيل هاوس».. «ثيو»، هل لاحظتِ منزلًا خشبيًّا صغيرًا في الحديقة الجانبية؟ لاحظته أمس. هلا استكشفناه اليوم؟

ـ بالتأكيد.. بالطبع لا أحب مغادرة «هيل هاوس» إلى أي مكان

مجهول، لكن اليوم جميل ويجب ألا نهدره في البقاء في المنزل.

ـ اطلبي من «لوك» إذًا أن يأتي أيضًا.. وأنت يا دكتور؟

قال دكتور «مونتاجيو» إن لديه ملاحظات ليدوّنها، ثم قام فجأة فاتحًا الباب وظل هناك يرمق الردهة الخالية، ثم استدار مواجهًا إياهما بوجه ممتقع:

ـ لقد كسرت قانوني الأول وأرسلت «لوك» وحده..

ثوانٍ وكان صوت «لوك» يصدح من الخارج:

ـ أنا هنا، كل شيء على ما يرام، لكن تعالوا إلى الردهة الطويلة..

نهض الجميع وتبعوه إلى حيث الباب المفضي إلى الردهة الطويلة التي بدورها تفضي إلى باب المنزل.

انتفضت «إليانور» حين رأت ما يشير إليه «لوك» رافعًا عود ثقاب ليضيء به الحائط.

ـ أهذه.. كتابة؟

ـ بالفعل.. أنا لم ألحظها إلّا في عودتي.. بالمناسبة السيدة «ددلي» رفضت طلب القهوة.

أخرج دكتور «مونتاجيو» كشافه الكهربي من جيبه وراح يمسح به الحوائط ببطء.

ـ كتابة بالطبشور..

قالها وهو يمسح بإصبعه طرف كلمة. كانت الكتابة بحروف كبيرة،

وكأنها مكتوبة بيد طفل لاهٍ على سور حديقة.

تتجه الكتابات بعرض الردهة، خشنة محفورة على النقوش الخشبية، كبيرة لدرجة صعوبة قراءتها مهما ابتعدت.

سأل «لوك» الدكتور إن كان يستطيع قراءتها، فهمس الثاني ببطء:

ـ **ساعدوا «إليانور» لتعود إلى بيتها.**

شعرت «إليانور» بالكلمات تقف في حلقها حين رأت اسمها على الحائط:

ـ امسحوا تلك الكلمات.. هذا جنون!

أحاطت «ثيودورا» كتفيها بذراعها وقالت:

ـ هذا هراء، تعالي إلى الداخل يا «نيللي» وسوف يُحضر «لوك» شيئًا ما لإزالتها به.

ـ لكن.. لماذا أنا؟! هذا جنون!

أودع الدكتور «إليانور» في حجرة الاستقبال وأغلق الباب خلفهما، بينما حاول «لوك» إزالة الكلمات بمنديله القماشي.

قال الدكتور لـ«إليانور»:

ـ الآن، استمعي لي.. ليس معنى أن المكتوب هو اسمك أن...

ـ هو يعرف اسمي! أليس كذلك؟ يعرفه!

ـ اصمتي.. كان من الممكن أن يكتب أي اسم من أسمائنا، هو يعرف أسماءنا جميعًا..

- «ثيودورا».. هل أنتِ من كتب العبارة؟ أخبريني، لن أغضب.. ربما كانت مجرد دعابة لإرعابي.

نظرت إلى «ثيودورا» بعينين واسعتين ثم للدكتور.

- أنتِ تعرفين أن أحدنا لم يفعلها..

دخل «لوك» ماسحًا كفيه في منديله، التفتت إليه «إليانور» هاتفة:

- «لوك».. أنت من كتبتها؟ أليس كذلك؟ عندما خرجت.

جلس «لوك» على مسند مقعدها ممسدًا شعرها وقال:

- هل تريدين أن أكتب اسمك على الحوائط والأشجار وقصاصات الأوراق؟ «إليانور».. «إليانور»؟ لا يا سيدتي؛ فذوقي أرقى من هذا.

- إذًا لماذا أنا؟

نقلت «إليانور» مرة أخرى عينيها بين أوجه ثلاثتهم في حيرة:

- هل فعلتُ شيئًا لجذب انتباه المنزل أكثر مما فعلتموه؟

مستندة إلى إطار المدفأة، قالت «ثيودورا» في شرود:

- بالطبع لم تفعلي.. ربما.. ربما كتبتِها بنفسك!

صاحت «إليانور» في غضب:

- أتظنين أنني أحب أن أرى اسمي مكتوبًا على تلك الحوائط الكريهة؟ هل تظنين أنني أحب أن أكون مركز الاهتمام؟ لستُ طفلًا لاهيًا، لن أثير شكوكًا تجاهي بفعل كهذا..

ـ العبارة تطلب المساعدة، ألم تلحظي هذا؟ ربما كانت تلك من الروح المعذبة للخادمة الصغيرة وقد وجدت وسيلة للتواصل أخيرًا. ربما كانت تنتظر شخصًا كئيبًا، خجولًا..

ـ ربما وجَّهت العبارة لي لأنني أكثر قابلية لمساعدتها منك، أيتها الأنانية. لديَّ من التفهم والتعاطف ما...

قاطعتها «ثيودورا» في تحدٍّ:

ـ وربما كتبتِها أنتِ بنفسك!

نأى دكتور «مونتاجيو» و«لوك» بأنفسهما في ركن قصي، شأن من يشاهد امرأتين تتناطحان. إلا أن الوضع تطلَّب في النهاية تدخلًا منهما، فتقدم «لوك» خطوة قائلًا:

ـ كفى يا «إليانور»..

عوت «إليانور» كحيوان جريح:

ـ كيف تجرئين؟ كيف؟!

ضحك الدكتور «مونتاجيو»، فنظرت إليه ثم إلى «لوك» الذي كان يبتسم ويحدِّق بها. ما الذي يحدث لي؟ أعتقد أنهم يظنون أن «ثيودورا» استفزتني عن عمد حتى لا أخاف. من المخزي أن يتم خداعي هكذا.

غطت «إليانور» وجهها بكفيها وانهارت على كرسيها.

ـ «نيل» يا عزيزتي.. أنا آسفة.

يجب أن أقول شيئًا، يجب أن أريهم أنني أتمتع بروح رياضية. دعهم

يظنوا أنني أشعر بالخجل من نفسي..

ـ أنا آسفة، كنت فقط خائفة.

قال الدكتور «مونتاجيو»:

ـ بالطبع كنتِ خائفة..

ياله من رجل بسيط شفاف، يؤمن بأشياء سخيفة للغاية، يؤمن أن «ثيودورا» صدمتني لأخرج من هيستيريتي.

ركعت «ثيودورا» جوار كرسي «إليانور» وهمست:

ـ كنت أظن أنكِ ستبدئين في الصراخ، لو كنتُ مكانكِ لفعلتُ. لكننا لم نستطِع أن نتركك تنهارين.

لا يمكنكم أن تدعوا أي شخص آخر يقف في مقدمة المسرح سوى «ثيودورا». لو كانت «إليانور» الدخيلة، فلتكُن كذلك وحدها.

ربتت «إليانور» على رأس «ثيودورا» في رقة وقالت:

ـ أشكرك، أعتقد أنني احتجت إلى ما فعلتِه.

ـ كنت أظنك أنت و«ثيودورا» سوف تتبادلان اللكمات، حتى أدركت ما كانت «ثيودورا» تخطط له.

قالها وهو ينظر إلى عيني «ثيودورا» اللامعتين..

عينان سعيدتان.. لكن ما تظنه لم يكُن نية «ثيودورا» على الإطلاق.

٢٠

يمر الوقت بطيئًا كسولًا في «هيل هاوس».

«إليانور» و«ثيودورا» و«لوك» والدكتور قلقون، محاطون بالتلال، حبيسون بإرادتهم داخل الحوائط الدافئة المظلمة للمنزل.

يتناولون الوجبات التي تعدها السيدة «ددلي» ببراعة معًا، يتحدثون ويلعبون الشطرنج معًا.

انتهى الدكتور من قراءة رواية «باميلا»، وبدأ رواية أخرى. حاجة إلى انفراد كلٍّ بنفسه دفعتهم إلى المكوث في حجراتهم لساعات من دون إزعاج.

قام «لوك» و«ثيودورا» و«إليانور» باستكشاف الأحراش حول المنزل، ووصلوا إلى المنزل الصيفي الخشبي، بينما كان الدكتور يجلس على العشب على مسمع ومرأى منهم، يكتب.

وجدوا حائطًا من الأزهار وحديقة خضراوات يعتني بها بالطبع «ال ددلي». تحدثوا عن تنظيم نزهة لهم عند الجدول.

كانت هناك بعض الفراولة البرية عند المنزل الصيفي، ملؤوا منها منديلًا قماشيًا وعادوا لالتهامه بجوار الدكتور، ملوّثين أصابعهم وأفواههم كالأطفال.

جلس الدكتور «مونتاجيو» يراقبهم وهو يلملم ما قرأه من ملاحظات مجهول كتبوها بشأن مشاهداتهم في «هيل هاوس»، ثم وضع الأوراق في حافظته.

في الصباح التالي، الصباح الثالث لهم في «هيل هاوس»، قام الدكتور، بمساعدة «لوك»، بمحاولة امتدت لنحو ساعة لقياس أبعاد المنطقة شديدة البرودة أمام حجرة الأطفال، مستخدمَين شريط القياس والطباشير. جلست «إليانور» و«ثيودورا» على أرضية الردهة، تكتبان ما يمليه الدكتور من قياسات.

العجيب أن الترمومتر الذي وضعوه في منتصف البقعة الباردة رفض أن يسجِّل أرقامًا غير التي سجلها في باقي المنزل، ما جعل الدكتور يثور، فكيف إذًا قاسوا فرق إحدى عشرة درجة في كنيسة «بورلي»؟!

في النهاية دوَّن ملاحظاته في دفتره، ثم نزل الجميع ليتناولوا الغداء. تحداهم الدكتور في لعب الكروكيه عند العصر.

- كم هو سخيف أن نمضي جل صباحنا تاركين تلك المروج كلها حولنا محاوِلين قياس بقعة باردة لعين. يجب أن نقضي وقتًا أطول في ذلك العالم خارج المنزل.

سألت «إليانور» في حيرة:

- ألا يزال هناك عالم في الخارج؟ أعتقد أن السيدة «ددلي» تذهب إلى مكانٍ ما في بُعد آخر كل ليلة وتعود محملة بكل تلك الكريمة التي تضيفها للحلوى. لا يوجد مكان حولنا تشتري منه تلك الأشياء.

- نحن في جزيرة مهجورة.

- لا أستطيع تخيل عالم آخر سوى «هيل هاوس».

- السيدة «مونتاجيو»، زوجتي، ستكون هنا يوم السبت.

- متى يوم السبت؟! لقد فقدنا الإحساس بالأيام.

تمنَّى دكتور «مونتاجيو» ألَّا تكون زوجته قد تخيلت وجود أمور ماورائية أكثر ممَّا يحدث هنا.

- يوم السبت هو يوم بعد غد، وبالطبع سنعرف أنه السبت من وصول السيدة «مونتاجيو» فيه!

قالت «ثيودورا» وهي تتابع عيني السيدة «ددلي» الثاقبتين وهي تجمع الأطباق:

- لماذا هذا الهدوء كله؟ هذا أسوأ من أن يحدث شيء ما. يُرهقني الانتظار.

- لستِ أنتِ من تنتظرين، المنزل ينتظر وقتًا مناسبًا للهجوم.

- ينتظر أن نشعر بالأمان التام ثم ينقض.

نظرت «إليانور» نحو الدرجات المظلمة وقالت مرتجفة:

ـ ترى كم من الوقت سينتظر؟

صعد الجميع إلى الردهة العلوية تسبقهم «ثيودورا». كانت الردهة مضاءة بفعل باب حجرة الأطفال المفتوح الذي تسلَّل منه الضوء حتى مس خطوط الطبشور على الأرض.

ـ سأخلد للنوم، لم أشعر بكسل كهذا طيلة حياتي.

قالتها «إليانور»، فأضافت «ثيودورا»:

ـ وأنا سأستلقي قليلًا وأحلم بالسيارات والشوارع.

أصبح من عادة «إليانور» أن تتردد قليلًا على عتبة باب حجرتها، تتلفَّت حولها مرات قبل أن تفتح الباب وتدخل. وعندما تدخل فهي تتجه مباشرة إلى النافذة وتفتحها.

اليوم كانت في منتصف طريقها للنافذة حين سمعت صوت باب «ثيودورا» يُغلق ثم يُفتح ويُغلق مرة أخرى، سمعت صوت «ثيودورا» يناديها برفق من الردهة. خرجت «إليانور» تتساءل:

ـ ماذا هنالك؟

نظرت «ثيودورا» من خلف كتفها إلى باب حجرتها وقالت:

ـ ماذا تظنين كنهه يا حمقاء؟

لم تغفر «إليانور» وصفها بالحمق هذه المرة، لكنها واصلت التحديق في الباب. كان يبدو كطلاء لكنه ليس كذلك.

ـ إنها دماء.. دماء تُغرق الباب، ألا ترينها؟

- بالطبع أراها، وهي بالطبع لا تغرق الباب، لا تبالغي.

على مر الأيام الفائتة، لم تبالغ «ثيودورا» إلا نادرًا. فكرت «إليانور» في احتمالية أن تنهار «ثيودورا» ويصيروا في حاجة لإفاقتها. دعت الله ألّا تكون تلك المهمة على عاتقها، وألا تكون «ثيودورا» هي التي... ثم سألت «ثيودورا»:

- المزيد من الكتابة على الحوائط؟

- نعم يا عزيزتي، ولا أعرف كيف فعلتِها.

- لا تكوني سخيفة، نادي «لوك» والدكتور.

- أليس من الأفضل أن يكون هذا سرًّا بيننا، مفاجأة صغيرة لي؟

ثم أفلتت من «إليانور» التي كانت تحاول أن تمنعها من دخول غرفتها، وفتحت خزانة ملابسها صائحة:

- ملابسي.. ملابسي!

ابتعدت «إليانور» ووقفت جوار السلم منادية «لوك» والدكتور. لم يكُن صوتها عاليًا، وحاولت قدر الإمكان المحافظة على ثبات نبرته.

لحظات ثم سمعت أصوات أقدام «لوك» والدكتور يهرعان إليها صاعدين الدرج.

راقبت «إليانور» القلق تحت ملامحهما الواثقة، بدا وكأنهما يتوقان إلى الاستغاثة بأحد.

- «ثيودورا» منهارة، أحدهم تسلّل وخضّب بابها بطلاء أحمر، وكذلك ملابسها.

هرول الجميع وخلفهم «إليانور» نحو غرفة «ثيودورا»، ولدهشتها وجدت «إليانور» نفسها تبتسم.

كانت «ثيودورا» تبكي وتركل الخزانة في غضب، محتضنة قميصها الأصفر المفضل الملطخ بالأحمر، أما باقي ملابسها فكانت منزوعة من حواملها، ممزقة في كومة على الأرض مخضبة بالأحمر.

تساءل «لوك»:

ـ ما هذا؟!

هز الدكتور رأسه وأجاب:

ـ أكاد أقسم إن هذه دماء، لكن للحصول على هذه الكمية كلها يجب أن...

قطع الدكتور عبارته شاردًا. وقف أربعتهم يحملقون في المكتوب على رأس فراش «ثيودورا»:

ـ **ساعدوا «إليانور» لتعود إلى بيتها.**

كانت العبارة مكتوبة بخطٍّ مرتعش وباللون الأحمر. قالت «إليانور» لنفسها: **الآن أنا مستعدة لدور البطولة.**

ـ أحضروا «ثيودورا» لغرفتي، أبعدوها عن هنا.

قالت «ثيودورا» وهي بعدُ تنعي ملابسها:

ـ انظر يا دكتور، ملابسي دُمِّرت..

كانت الرائحة فظيعة، الدماء تسيل على الحائط تحت العبارة المكتوبة،

ومنها تمتد في لطخة طويلة إلى الخزانة. قطرات مسودة تلوث البساط الأخضر تحت أقدامهم.

ـ هذا مثير للاشمئزاز، لتنقل «ثيودورا» إلى غرفتي.

قاد الدكتور و«لوك» «ثيودورا» عبر الحمام المشترك إلى غرفة «إليانور»، بينما تسمَّرت «إليانور» أمام العبارة فوق فراش «ثيودورا».

لا يمكن أن يكون هذا دمًا، لا بُدَّ أنه طلاء.. لا بُدَّ...

في صوت مسموع تساءلت:

ـ لكن، لماذا؟

على الحوائط كُتب اسمها، هل من الممكن أن تكون قد فقدت توازنها إلى هذا الحد؟ عاد الدكتور من غرفة «إليانور» فسألته:

ـ هل هي بخير الآن؟

ـ ستتحسن سريعًا، لكن وجب عليكِ بالفعل أن تنقليها إلى غرفتك. لا أظن في استطاعتها أن تتحمَّل المبيت في غرفتها وهي بهذا الشكل. أظن أن وقتًا طويلاً سيمر حتى تستطيع أن تفتح بابًا بمفردها.

ـ يمكننا أن نتشارك الملابس أيضًا.

ـ بالتأكيد إن لم تمانعي. أعتقد أن تلك العبارات تضايقك أكثر مما تضايق أحدنا؟

حاولت «إليانور» أن تتفهم مشاعرها الخاصة وهمست:

ـ عبارات سخيفة. لا أنفك أحملق فيها وأتساءل: «لماذا»؟ أعني:

تبدو كدعابةٍ ما لا أفهمها. كان عليَّ أن أرتعب أكثر ممّا أنا عليه، لكنني بالفعل لا أشعر بالخوف، الأمر أفظع من أن يكون حقيقيًا. كنت أفكر في طلاء الأظفار الأحمر الخاص بـ«ثيودورا»..

ضحكت «إليانور» فرمقها الدكتور في حدة.

ـ يمكن أن يكون طلاء، أليس كذلك؟

لا أستطيع التوقف عن الحديث، ما هذا الهراء الذي أقول؟

ـ لا أستطيع أخذ الأمر بجدية بعد أن رأيت «ثيودورا» تبكي بهذا الشكل الطفولي على ملابسها، وتتهمني أنا بالكتابة على الحوائط. ربما سأعتاد على اتهامها لي بكل شيء.

ـ لا أحد يلومك على أي شيء.

شعرت «إليانور» أن كلمات الدكتور توبيخ لها، فقالت ساخرة:

ـ أتمنى أن ترقى ملابسي لذوقها.

تلفَّت الدكتور حوله، ثم مد إصبعه يلمس تلك اللطخات على الحوائط، وتشمَّم قميص «إليانور» الأصفر:

ـ سأعاين وأكتب وأصف كل شيء هنا، لكن ربما غدًا..

ـ يمكنني أن أساعدك.. الوضع مقزز، لكنه لا يخيفني.

ـ من الأفضل إغلاق الغرفة الآن. لا نريد أن تأتي «ثيودورا» إلى هنا مرة أخرى حتى أدوِّن ملاحظاتي، ولا أحب أيضًا أن تدخلها السيدة «ددلي» لتزيل آثار كل شيء في سويعات.

راقبت «إليانور» دكتور «مونتاجيو» وهو يغلق باب الحجرة المؤدي إلى الردهة من الداخل، ثم عبر إلى حجرة «إليانور» من خلال الحمام المشترك الذي أغلق دكتور «مونتاجيو» بابه جيدًا أيضًا.

ـ سوف أرى إن كان في إمكاننا نقل فراش آخر إلى هنا. «إليانور»، أنا سعيد أنكِ حافظتِ على توازن أعصابك.

ردت «إليانور» منتشية بكلام دكتور «مونتاجيو»:

ـ قلت لك، الأمر لا يخيفني، فقط يثير اشمئزازي.

التفتت «إليانور» إلى «ثيودورا» الراقدة على فراشها، وكانت يدا «ثيودورا» مخضبتين بالأحمر وراحت تمسحهما في وسادتها. قالت «إليانور» في صوت مبحوح وهي تتقدَّم من الفراش:

ـ ستستخدمين ملابسي حتى تحصلي على ملابس جديدة أو تنظِّفي ملابسك.

ـ أنظفها؟ أنظفها؟

تقلَّبت «ثيودورا» في الفراش واضعةً كفيها على عينيها.

ـ بحق السماء، دعيني أنظف يديكِ.

لم تشعر «إليانور» قط باشمئزاز كالذي تشعر به الآن. هرعت إلى الحمام وعادت بمنشفة مبللة وراحت تمسح كفي «ثيودورا» ووجهها بخشونة.

ـ أنتِ ملوثة تمامًا بهذه القذارة.

كانت تكره أن تلمس «ثيودورا». فجأة ابتسمت الأخيرة قائلة:

ـ لا أظن أنكِ من فعلها، يالي من حمقاء.

كان «لوك» ينظر إليهما، فضحك، وضحكت «ثيودورا».

ـ سوف تبدين جميلة في معطف «إليانور» الأحمر.

«ثيودورا» شريرة.. شريرة ومتوحشة وقذرة.

عادت «إليانور» إلى الحمام ووضعت المنشفة المتسخة في الماء، وعندما عادت سمعت «لوك» يقول:

ـ فراش آخر هنا.. ستتشاركان حجرة واحدة من الآن فصاعدًا.

ـ ستتشارك الحجرة والملابس أيضًا.. سنكون توأمتين فعليًا.

ـ أبناء عمومة.

قالتها «إليانور» فلم يسمعها أحد.

٢١

قال «لوك» وهو يدير كأس النبيذ بين راحتيه:

- كان من الطقوس المهمة للجلّادين أن يضعوا علامات بالطبشور على بطون المحكوم عليهم بالإعدام، لتحديد أماكن الـ...

أريد أن أضرب رأسها بعصا، أو أمطرها بالأحجار.

كانت «إليانور» تحدّق في رأس «ثيودورا» على الكرسي المجاور لها.

- بالطبع كان ذلك التنميق معذبًا للضحية، إن كانت من النوعية التي تدغدغها لمسات الطبشور.

أكرهها، تثير اشمئزازي، تلك النظيفة الفاتنة التي ترتدي سترتي الحمراء.

- عندما كان الإعدام يتم عن طريق التعليق بسلاسل، كان الجلاد...

- «نيل»..

نظرت «ثيودورا» إلى «إليانور» باسمة وأردفت:

ـ أنا حقًا آسفة..

لطالما وددت أن أراها ميتة..

ابتسمت «إليانور» بدورها قائلة:

ـ لا تكوني سخيفة.

ـ عند بعض الصوفيين زَعْمٌ بأن العالم لم يُخلَق؛ لذا فلا يمكن تدميره. لقد قضيت فترة ما بعد ظهيرة اليوم في المكتبة أطالع تلك الموضوعات.

قال الدكتور:

ـ لا مزاج لي للعب الشطرنج اليوم. لقد كان يومًا مرهقًا. أعتقد أنكما يا سيدتيَّ تحتاجان إلى الراحة.

ـ ليس قبل أن يُذهب النبيذ عقلي فلا أذكر ما حدث لي.

ـ الخوف هو التخلّي عن التعقل، أن نتخلّى بإرادتنا عن المنطق، نستسلم للخوف أو نهزمه، لا يمكننا أبدًا أن نقبل معه أنصاف الحلول.

فكرت «ثيودورا» في كلام الدكتور وهي تجرع ما تبقّى في كأسها. قالت «إليانور»:

ـ كنت أتساءل منذ قليل.. كنت أشعر أنني هادئة تمامًا أغلب الوقت، فلِمَ الآن أشعر أنني في قمة الذعر؟!

قطبت إليانور» جبينها، بينما انتظروها كي تكمل حديثها.

ـ عندما يتملّكني الخوف، أرى بوضوح الجانب المتعقل الرائع من

العالم. أرى المناضد والمقاعد والنوافذ كما اعتدتُ أن يكونوا. ألاحظ نسيج البساط لا يتحرك من مكانه، وأعرف ألَّا شيء يستحق الخوف.

ـ أعتقد أننا نخاف أنفسنا.

قال «لوك»:

ـ نخاف أن نرى أنفسنا بلا أي خداع أو تنكر.

ـ نخاف أن نعرف ما نريده حقًّا.

قالتها «ثيودورا» وهي تمس بخدها كف «إليانور». سحبت «إليانور» كفها سريعًا مشمئزة من مجرد لمسها.

ـ دومًا أخاف من أن أبقى وحيدة..

هل حقًّا أتفوَّه بهذه الكلمات؟ هل سأندم على ما أقوله غدًا؟

ـ تِلكُم الكلمات التي شكَّلت اسمي على الحوائط تبدو مألوفة جدًّا ولا أحد سواي يشعر بما أشعر به تجاهها.

نظرت لهم في استجداء وأردفت:

ـ حاولوا أن تفهموني، إنه اسمي، اسمي.. يستخدمه شيءٌ ما ويكتبه ويناديني به.. اسمي!

توقفَتْ عن الحديث برهة، تنقل ناظريها بين وجوه «لوك» والدكتور، وحتى «ثيودورا»:

ـ ثمّة «إليانور» واحدة، لا أملك سواها.. إحساس مريع أن أرى نفسي تنقسم وتتشتت فلا أملك سوى نصف تعقّلي، بينما يضيع النصف

الأمر في الذعر والانقياد ولا أملك شيئًا لإنقاذه، لكن... لكنني أعرف أن شيئًا لن يؤذيني، على الرغم من مرور الثواني والدقائق، لا يخيفني أن يضيع الوقت، فلديَّ دومًا فرصة للاستسلام و...

قاطعها دكتور «مونتاجيو» في حدة أفزعت «إليانور»:

ـ الاستسلام؟!

كرر «لوك»:

ـ الاستسلام؟!

ـ لا أعرف..

ارتبكت «إليانور» للحظات. كنت أتحدث.. ماذا كنت أقول؟

ـ آسفة.. هل بدوت حمقاء مرة أخرى؟

ـ أبدًا.. أكملي شرابك.

ـ شرابي؟

نظرت «إليانور» إلى ما في كفها وأدركت أنها تمسك بكأسٍ من النبيذ.

ـ ماذا كنت أقول؟

ضحكت «ثيودورا» قائلة:

ـ اشربي.. تحتاجين إلى الشرب يا عزيزتي.

في طاعة، رشفت «إليانور» من كأسها شاعرةً بالطعم الحارق، ثم قالت للدكتور:

ـ لا بُدَّ أنني تفوّهت بترهات مرة أخرى. يبدو ذلك على وجوهكم الداهشة.

ـ لا تحاولي أن تكوني مركز الانتباه يا عزيزتي «إليانور».

ضحك دكتور «مونتاجيو»، فتبعه «لوك» قائلًا:

ـ إنه الزهو.. الغرور..

ـ عليها أن تظل تحت الأضواء.

ثم نظر إليها الجميع في محبة.

٢٢

مدت «إليانور» كفها نحو «ثيودورا» لتتلاقى الكفان في منتصف المسافة بينهما. قبضت «إليانور» على كف رفيقتها، وتشبثت.

من الحجرة المغلقة المجاورة، التي كانت حجرة «ثيودورا» صباحًا، تنامى إلى مسمعها أصوات حديث مدغم مكتوم. حديث لا يمكن فهمه أو تجاهله.

أطبقت «إليانور» على كف «ثيودورا» حتى شعرت بعظاميهما تندمجان. سمعت الأصوات التي تتراوح بين حديث صارم واثق، وأنفاس متهدجة خافتة.. ثم، بلا تمهيد، سمعت ضحكة، ضحكة كأنها تصدح تحت الماء نافثة فقاقيع الهواء. أخذت الضحكة تتعالى وتتعالى حتى انتهت فجأة بشهقة عالية.

راحت قبضة «ثيودورا» تُطبق على كف «إليانور» التي تراخت لثوانٍ بعد صمتِ الأصوات. فتحت «إليانور» عينيها فجأة ناظرة إلى حيث

ترقد «ثيودورا» على الفراش المجاور.

لمَ هذا الظلام كله؟ لمَ هذا الظلام كله؟

انقلبت «إليانور» على جنبها وأمسكت كف «ثيودورا» بكلتا كفيها، حاولت الحديث فلم تستطع. استجمعت تفكيرها واستعادت آخر ما فعلتاه الليلة.

لقد تركنا النور موقَدًا قبل أن نستلقي، فلِمَ هذا الظلام كله؟

حاولت «إليانور» أن تهمس بشيء لرفيقتها، لكن شفتيها ظلتا مطبقتين، كانت تريد أن تسأل عن سبب هذا الظلام كله.

عادت الغرغرة والضحك مرة أخرى، ثم صوت الحديث الخافت المستمر. خطر لـ«إليانور» أن في استطاعتها أن تسمع كلمة مفهومة لو ثبتت في مكانها بلا حراك.

أنصتت وأنصتت، استمر الصوت ثابتًا، لكنها لم تفهم شيئًا. تشبثت بكف «ثيودورا» مستغيثة، فأجابت رفيقتها استغاثتها بإحكام الإمساك.

بعد ذلك، عادت الضحكة الرنانة وأغرقت في أمواج جنونها أي صوت آخر، تبعها صمت مطبق.

سحبت «إليانور» شهيقًا طويلاً وتساءلت لو أن بإمكانها الحديث الآن، لكنها سمعت صوت بكاء فتَّت قلبها، بكاء ضعيف حزين.

إنه طفل، طفل يبكي في مكان ما!

عصف بها صوت مفاجئ لا تستطيع وصفه، صوت لطالما تكرر في كوابيسها. سمعت الطفل يصرخ وينهنه:

- ابتعد.. ابتعد.. لا تؤذِني.. لا تؤذِني.. اتركني أعود إلى بيتي..

ثم عاد صوت البكاء الحزين مرة أخرى. لا أستطيع أن أتحمَّل أكثر. هذا الوحش يؤذي طفلًا، لن أسمح لأيٍّ شيءٍ كان أن يؤذي طفلًا.

استمر النحيب يعلو وينخفض كأنما للأبد. حاولت «إليانور» أن توجّه تركيزها نحو مكانها، الفراش وكف «ثيودورا» المطبقة على كفها حتى لتشعرُ بكل عظامها الدقيقة.

لن أتحمل هذا كله. يظن أنه سيخيفني؟ حسنًا، لقد نجح.. بالفعل أشعر بالهلع.. أنا بشر، أنا إنسان ذو مشاعر وعقل، والخوف لن يمنعني من منع تعذيب طفل. سأفتح فمي وأصرخ، وأصرخ..

- كفى.. توقَّفْ!

صرخت، وعاد النور ليضيء أرجاء الحجرة. كانت «ثيودورا» جالسة في فراشها فزعة تمسح آثار النوم من على وجهها، تحملق في وجه «إليانور»:

- «نيللي».. ماذا حدث؟

انتفضت «إليانور» وقفزت واقفة في ركن الحجرة، تحملق في كفيها وترتعد:

- يا إلهي.. يا إلهي! يد من تلك التي كنت أطبق عليها؟!

لا، لا أفهم ولن أفهم. لن أتركك تتلاعب بمشاعري بتلك الطرق الرخيصة.. التعاطف. هذا الرجل مجرد ببغاء متكبّر. سأخبره أنني لا أتفهم أوضاعًا كتلك، ولا يجد للتعاطف منفذًا لقلبي. لن أجعل من نفسي أضحوكة وأشجعه على الاستمرار في السخرية مني.

- بالطبع أتفهم.

- هكذا ظننت.

ودَّت «إليانور» لو تصفعه..

- لطالما رأيتكِ شخصًا طيب القلب يا «نيللي»..

وأضاف مفسدًا ما قال:

- شخصًا لطيفًا، صادقًا.. عندما تعودين إلى بيتك...

تردد قليلًا في إكمال عبارته، ظنت «إليانور» أنه إما سيقول شيئًا مهمًّا للغاية، وإما أنه فقط يكسب وقتًا حتى يُنهي حديثه في أقرب فرصة.

لِمَ تحدَّث عن موضوع أمه الآن؟ هل يظن أن التعاطف سيجعلني أرمي نفسي بين ذراعيه؟ هل يظن أنني غير قادرة على التصرُّف كسيدة عاقلة في مواجهة مشاعرها؟ ماذا يظن بي وبمشاعري حقًّا؟ هل يشعر بالأسف من أجلي؟

تنتهي الرحلة بلقاء الأحبة..

- لم يكُن لدي أمٌّ كما أخبرتك، وقد أدركت أن لكل شخص ميزة افتقدها. أنا أناني، أعلم ذلك.. وكنت أبحث عمَّن تنهرني وتطلب مني أن أحافظ على تصرفاتي.. أن تكون مسؤوليتها تربيتي.

بالأنانيته! الرجل الوحيد الذي جلست أحادثه وحدنا يصيبني بالملل ويبدو غير مهتم بذلك.

ـ لماذا لا تربي نفسك؟

تساءلَتْ عن عدد الأشخاص، أو تحديدًا عدد النساء اللاتي سألنه السؤال نفسه من قبلُ.

ـ أنتِ ذكية..

وعن عدد المرات التي أجاب فيها الإجابة نفسها.

كان الحديث تلقائيًا بشدة، ردت في رفق:

ـ تبدو كشخص وحيد للغاية..

كل ما أريده أن يحبني أحدهم.. ها أنا أبدو حمقاء أتفوَّه بترهات أمام شخص أناني كهذا.

ـ لا بُدَّ أنك وحيد بالفعل..

لمس كفها وابتسم مرة أخرددى..

ـ أنتِ محظوظة لوجود أمّ في حياتك.

٢٤

ـ وجدته في المكتبة.. أقسم إنني وجدته في المكتبة!

صاح «لوك» ممسكًا بكتاب ضخم واضعًا إياه على المنضدة.

ـ رائع.

قرأ دكتور «مونتاجيو» عنوانه بصوت عالٍ:

ـ لقد صنع الكتاب بنفسه، اسمعوا عنوانه الذي كتبه يدويًا بالحبر:

ـ مذكرات، إلى «صوفيا آن ليستر كرين». إرث التعليم والتنوير الذي تلقته خلال حياتها على يد والدها الحبيب المخلص «هيو ديزموند ليستر كرين». في الحادي والعشرين من يونيو ١٨٨١م.

تجمَّع أربعتهم حول المنضدة، وفتح «لوك» أول صفحة في الكتاب:

ـ انظروا، هذا الكتاب مجمَّع من قصاصات لكتب شهيرة ملصقة على الصفحات.

ـ يالِغرور الإنجاز البشري! تخيلوا عدد الكتب المهمة التي مزّقها «كرين» ليصنع هذا الكتاب! والآن، قصاصة تحمل رسمًا موحشًا للرسام «جويا»، يالَما من لوحة يضعها أب في كتاب لابنته!

ـ تحت تلك الصورة الكريهة كتب: مجّدي أباك وأمك يا بنيتي، اللذين كتبا مصيرك وكينونتك. وتحت وطأة مسؤوليتهما الثقيلة، قادا ابنتهما عبر الطريق الموحش المحصور بالمُضلات إلى النعيم الأبدي، وأسلما روحًا طاهرة تقية لرب العالمين.

تفكَّري يا بنيتي في نعيم الجنة، تلك التي تحلّق فيها أرواح المتقين عاليًا، أولئك مَن حاربوا الضلالة وانتصروا للحق والطُّهر.

شهقت «إليانور» وهي ترى ما انكشفت عنه الصفحة التالية، التي كانت تحوي لوحة لحفرة تملؤها الأفاعي بطول الصفحة. فوق اللوحة كُتب بماء الذهب درسه الثاني:

ـ العذاب الأبدي هو مصير البشرية. الدموع والندم لن تحمي نسل بني آدم من الخطيئة. يا بنيتي، انأي بنفسك عن هذا العالم بشهواته وفساده، يا بنيتي، احفظي نفسك.

قال «لوك» ضاحكًا:

ـ الصفحة التالية ليست لضعاف القلوب..

ـ لن أنظر، لكن اقرأ لي.

أكد الدكتور كلام «إليانور» وأردف:

ـ خيرًا قلت. تلك واحدة من رسومات «فوكس» التي تمثل طريقة

موت لن تخطر على بال أحدكم، من منكم يكره أن يموت شهيدًا؟!

- انظروا، لقد أحرق «كرين» زاوية الصفحة وكتب:

- بنيتي، لن تستطيعي سوى أن تسمعي صرخات العذاب، واستجداء المغفرة، لأولئك المعذبين أبدًا في السعير. ذلكم الذين تسيل أعينهم بهجير أرض الضياع. واحسرتاه على الذين في جهنم يخلدون بلا موت!

بُنيتي، لقد مسَّ أبوك طرفَ تلك الورقة بلهيب شمعة، فتفحَّم الطرف جرَّاء نار ضعيفة دنيوية، وكذا ستفعل روحك في سعير الأبدية الذي لا يُحتمل.

- أراهن أنه كان يقرأ تلك الكلمات على مسامعها كل ليلة قبل النوم.

قالتها «ثيودورا» ممتعضة.

- انتظري، أنتِ لم تري الجنة بعدُ! انظري يا «نيل»، تلك لوحة للرسام «بليك»، كئيبة نوعًا لكن بالتأكيد أفضل من الجحيم! اسمعوا:

- رباه، رباه، رباه.. لتتقدَّس في ملكوتك. هكذا تنشد الملائكة في سماوات الفردوس، تسبيحًا مؤبدًا لا ينقطع. يا بنيتي، هنا، سوف أنتظرك.

- هذا الرجل مريض! كل تلك المحبة المشوهة، والساعات التي كان يقضيها في تقطيع وكتابة...

- والآن، الخطايا السبع.. أعتقد أن رجلنا هو من رسمها بنفسه.

حدَّقت «ثيودورا» في الرسومات وتقلَّص وجهها.

- لقد وضع الرجل إبداعه كله في خطيئة شهوة الطعام، أعتقد أنني لن أجوع لفترة لا بأس بها.

ـ انتظري حتى تري خطيئة الجنس، لقد تفوّق على نفسه!

ـ لا أريد أن أرى أي شيء. سأجلس في هذا الركن مع «إليانور»، وإن صادفتكما فقرات مهمة تريان أنها ستفيدنا بمعرفتها اقرآها علينا.

ـ هذه خطيئة الجنس، هل يمكن لامرأة أن تتموضع في شكلٍ كهذا؟

اتسعت عينا الدكتور «مونتاجيو» هاتفًا:

ـ يا إلهي.. يا إلهي!

ـ لا بُدَّ أنه رسمها بنفسه.

ـ رسمها لطفلة؟!

ـ كتابه وهو حر فيما يراه.. خطيئة التكبُّر، لديَّ رسم يشبهك يا «إليانور».

ـ ماذا؟

قامت «إليانور» فزعة، فضحك الدكتور و«لوك».

ـ «لوك» يمزح، لا تأتي يا عزيزتي، فقط يمزح.

ـ خطيئة الكسل..

ـ الحسد.. كيف تعايشت الطفلة مع مفاهيم كهذه؟

ـ الصفحة الأخيرة، الأفضل على الإطلاق. أعتقد أن هذا هو دم «هيو كرين» شخصيًا. «نيللي»، هل تريدين أن تري دم «هيو كرين»؟

ـ لا، شكرًا..

ـ «ثيو»؟ كلا؟ في هذه الحالة، أنا أصر، لأغراض علمية، أن تقرأ ما كتبه «هيو كرين» في خاتمه كتابه:

ـ بنيتي، تُوثَّق الأحلاف المقدسة بالدماء، وأنا هنا ذرفت من رسغي السائل المقدس كي أوثق عهدي بك. بتقوى تحيين، بوداعة. ليكُن إيمانك بالمسيح المخلص. وأعدك أن نجتمع أنا وأنت معًا في نعيم لا ينضب. اقبلي نصائح أبيك المحب، الذي صنع لك هذا الكتاب بروحه المتواضعة للخالق. ليبارك الرب كتابي ويوفقه إلى أن يخدم ما كُتب لأجله، وليحفظ ابنتي حتى تلحق بي في الفردوس.

أبوكِ المحب، في الحياة الدنيا والآخرة، حامي فضيلتك «هيو كرين».

ارتعدت «ثيودورا» قائلةً بصوت واهن:

ـ يبدو أنه استمتع بكتابة اسمه بدمه. أستطيع أن أتخيَّل ضحكاته المجنونة.

ـ تلك فعلة لا تنم عن صحة عقلية أبدًا.

ـ حسب معلوماتنا يا دكتور، فإن ابنته كانت صغيرة جدًّا حين غادر «كرين» المنزل. أشك أنه قد قرأه عليها.

ـ متأكدة أنه قد فعلها، منحنيًا على مهدها يبصق كلماته الشائهة في أذنيها لتثبت جذورها في عقلها الصغير.

صمتت «ثيودورا» لحظةً ثم أردفت:

ـ «هيو كرين».. أنت عجوز قذر، بنى منزلًا عجوزًا قذرًا، وإن كنت تسمعني حيث أنت فإنني أرى أن أخبرك أنني أتمنى أن تمضي

الأبدية في حفرة الأفاعي اللعينة التي وضعتها في كتابك، ولا تتوقف عن العذاب لحظة.

ساد تعبير مشمئز ساخر على وجه «ثيودورا»، وللحظات عمَّ الصمت وكأنها ينتظرون إجابة «كرين» على تلك الإهانة. انفلقت قطعة فحم في المدفأة فطار «لوك» من مقعده فزعًا.

قال الدكتور في راحة:

ـ لقد جاوز ارتفاع الشمس الصارية، لاح النهار.

٢٥

في المساء التالي، تكوَّرت «ثيودورا» أمام المدفأة، تشاهد نقلات قطع الشطرنج. همست لـ«إليانور»:

ـ هل ستدعينه إلى شقتك الصغيرة، وتقدمين له الشاي في كوب النجوم الخاص بك؟

نظرت «إليانور» إلى النيران بلا إجابة. لقد كنتُ سخيفة وحمقاء بما يكفي.

ـ «نيللي»، هل لديكِ متسع له في الشقة؟ هل سيأتي لو دعوتِه؟

لا يوجد شيء أسوأ من أن يبدو المرء أحمقَ.

ـ ربما يتوق «لوك» إلى بيت صغير، أصغر بالطبع من «هيل هاوس». أرجِّح أنه سيوافق أن يصحبك لشقتك بستائرها الملونة، وتمثالي الأسدين الحجريين..

قامت «إليانور» من مكانها، غير عابئة بالهمهمات التي سرت حولها، لا ترى إلى أين تذهب. شقت طريقها بوسيلةٍ ما إلى الباب الرئيسي ومنه إلى الليل الدافئ بالخارج.

الخوف والإحساس بالذنب أخوان.. لحقتها «ثيودورا». غاضبتين، مجروحتين، صامتتين، غادرتا «هيل هاوس» جنبًا إلى جنب.

كانت كلٌّ منهما تشفق على الأخرى، تخشاها، تغار منها. لم يخطر ببال إحداهما خطورة الابتعاد عن «هيل هاوس» في الظلام.

مطوية على يأسها، سارت كل منهما متدثرة في عباءة الظلام المحكمة الحانية، تعتزم كلٌّ منهما الصمت حتى تكسره الأخرى أولًا.

تحدثت «إليانور»؛ فقد صُدمت قدمها بصخرة ومنعتها كرامتها من الإفصاح عن ألمها إلا بقولها:

ـ لا أعرف ما الذي أعطاكِ حقًّا للتدخُّل في حياتي الخاصة!

حاولت «إليانور» استخدام أقل كلمات ممكنة كي لا تدخل في متاهة الحديث أكثر من اللازم وفضح ذعرها وتخبطها.

لسنا غريبتين، بنات عمومة.. ربما؟

ـ واثقة ألّا شيء ممّا أفعله يعنيكِ.

ـ أنتِ على صواب، لا شيء ممّا تفعلينه يعنيني.

كانتا تسيران كلٌّ على جانب من الحاجز الخشبي الصغير في الحديقة. رأت «إليانور» أن لها الحق في العيش أيضًا، لقد أضاعت ساعة مع «لوك» جوار البيت الصيفي بلا جدوى.

ـ لقد جُرحت قدمي.

بدت «ثيودورا» صادقة في شعورها تجاه «إليانور»:

ـ أنا آسفة للغاية.. أنتِ تعرفين أن «لوك» متلاعب..

ثم ترددت قبل أن تضيف في لمسة من الاستمتاع:

ـ خليع..

ـ بالتأكيد لا تهمني أخلاقه في شيء.

ولأنهما امرأتان تتشاجران، قالت «إليانور» منهيةً جملتها:

ـ وكأنك تهتمين بشأني.

ـ يجب ألّا ينجو بفعلته يا «إليانور».

ـ أيُّ فعلة؟

ـ أنتِ تجعلين من نفسك أضحوكة.

ـ لنفترض أنك مخطئة هذه المرة، بالطبع لن تسمحي لأحد أن يثبت خطأ ظنك.

ردت «ثيودورا» في تهكم وإنهاك:

ـ لو تأكدنا وكنتُ مخطئة، سأبارك قرارك من كل قلبي.. أيتها الحمقاء.

كانتا تسيران في الاتجاه المؤدي للجدول. تستشعر أقدامهما في الظلام انحدار الطريق تحتهما. تلوم كلٌّ منهما اختيارها لوجهة قطعتاها معًا في سعادة من قبلُ.

ـ أيًا ما كان، لا يعنيكِ في شيء هذا كله، ولا يعنيكِ إن كنتُ أبدو حمقاء.

صمتت «ثيودورا» لبرهة، سارت في الظلام حتى انتفضت «إليانور» حين شعرت بكف رفيقتها على كفها.

ـ «ثيو»، لستُ بارعةً في الحديث مع الآخرين..

ـ ما الذي تبرعين فيه إذًا؟ الهرب؟

لم تتحدثا في شيء قاطع في ذلك الأمر، ولم يبقَ سوى هامش ضيق من الأمان جعلتهما تسيران على حافة سؤال لم تنطقه إحداهما. «هل تحبينني؟».. سؤال لم يُسأل ولم يُجبْ ولا يمكن تجاهله.

عانقت ذراع «ثيودورا» ذراع «إليانور» في ظلام الطريق، حميمية غير متوقعة بين امرأتين اختارتا الجفاء معًا. انعطف بهما الطريق وزادت كآبته وغموضه فلم تباليا.

شهقت «إليانور»، فضغطت «ثيودورا» على ذراعها كي تصمت. تحفهما الأشجار من الجانبين، تحتضن ظلام أوراقها حتى تذوب باهتة في سواد السماء، ولم يكُن سوى ذلك حولهما.

اصطكت أسنان «إليانور» وازداد انقباض كف «ثيودورا» على ذراعها. كل خطوة في أي اتجاه صارت عبئًا ثقيلًا، وكأن نقل قدم أمام الأخرى عمل بطولي.

دمعت عينا «إليانور» وهي تحدق حولها في العتمة، يتردد في ذهنها فقط أنها مرتعبة للغاية.

كانت أطراف الأشجار تضيء بلون أبيض باهت، كذلك أكفهما وأقدامهما. غارقتَين في كل هذا السواد والإضاءة الغامضة الشريرة، لم تجدا سوى المضي قدمًا وكأنَّ السير هو العمل الوحيد المتاح لهما.

الآن أشعر بالذعر.

تحرق الأفكار عقلها، بينما «ثيودورا» غارقة في صدمتها. كان الجو قارس البرودة وكانتا منقادتين إلى حيث يؤدي بهما الطريق المنعطف مضيء الأشجار.

أمامهما عبر شيء أكثر بياضًا من الضوء الغامض، هل يراقب؟ هل ثَمّة ما يتحرّك على جانبيهما وسط الحشائش؟ ما مصدر صوت الخطوات الخفية حولهما؟

انتهى الطريق مفضيًا إلى حديقة يغمرها ضوء الشمس الساطع. كانت ضحكات الأطفال تملأ المكان، ونبرة المحبة تصدح من أصوات الأب والأم.

الحشائش نضرة سميكة مزدانة بالأزهار الحمراء والصفراء والبيضاء، السماء زرقاء بهية. طفل يرتدي رداءً أرجوانيًا يعدو ضاحكًا خلف جرو.

تحت الأب والأم ملاءة منقوشة بالمربعات الحمراء، يعلوها صحن فاكهة بألوان زاهية.

هرعت «إليانور» نحو الحديقة وهي بعدُ لا تعرف لِمَ فعلت ذلك. كانت تظن أنها ستتعثّر في الملاءة أو تصطدم بالكلب.

ـ اجري يا «إليانور»، لا تنظري خلفك.. لا تنظري خلفك!

عدت «ثيودورا» معها، لكن لم يكُن حولهما سوى الحشائش الجافة

السوداء. تعثرت «ثيودورا» وسط الأحجار ورأت ما بدا لها كفنجان
شاي مكسور. وأمامهما حائط أبيض مغلف بالنباتات المتسلقة الجافة
التي راحت تخدش وجهيهما وتتشابك مع ملابسهما كأنها مصيدة.
صرختا حتى بُح صوتهما وهما تنتفضان وتتلويان.

ظهرت أمامهما بوابة حديدية مفتوحة دخلتا منها سريعًا لتجدا أنفسهما
وسط حديقة مطبخ «هيل هاوس» و«لوك» والدكتور يجريان نحوهما.

- ماذا حدث؟!

- هل أنتما بخير؟

- كنا على وشك الجنون، خرجنا نبحث عنكما في كل مكان لساعات.

- كانت نزهة..

تهاوت «إليانور» على كرسي المطبخ تنظر إلى يديها وساقيها المخدوشة
الدامية.

- حاولنا أن نخرج من ذلك المكان.. كانت نزهة.. كان الأطفال...

مدت «إليانور» ذراعيها المجروحتين أمامها وراحت ترتجف. ضحكت
«ثيودورا» وبكت في آنٍ واحد. ذاب جنونها في بداية حديثها الخفيض:

- نظرت خلفي.. عدوت ثم نظرت خلفي..

ثم ضحكت ثانية:

- الأطفال.. الجرو!

احتضنت «ثيودورا» «إليانور» ونظرتا إلى «لوك» والدكتور غارقتين
في دموعهما ودمائهما، تدور بهما الحجرة ويتوقف الزمن، كما يفعل دومًا.

٢٦

في عصر يوم وصول السيدة «مونتاجيو»، ذهبت «إليانور» إلى التلال خلف «هيل هاوس»، لا تنوي الذهاب إلى نقطة محددة، فقط ذهبت لتبتعد عن الوجود الثقيل لـ«هيل هاوس».

وجدت بقعة ذات حشائش خضراء جافة فاستلقت، تساءلت عن آخر مرة جلست فيها على عشب هكذا وحدها.

قاطع وجودها رحلة الحياة والموت الطبيعية للأشجار والعشب، فالتفوا حولها عازمين على منحها ما يستطيعون؛ فهي كائن وحيد مخلوع الجذور، مكتوب عليه الانتقال من مكان لآخر للأبد.

بكسل، قطفت «إليانور» زهرة أقحوان ذابلة، أسلمت روحها بالكامل بين أناملها. رفعتها «إليانور» وراحت تحدّق في أوراقها الجافة التي نزعتها واحدة تلو الأخرى شاردة.

ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟

٢٧

قالت السيدة «مونتاجيو»:

ـ ضع حقائبي في نهاية القاعة يا «آرثر». هل تظن أننا سنجد أحدهم ليساعدنا في نقل الحقائب للأعلى؟ «جون».. «جون»..

هرع دكتور «مونتاجيو» من نهاية الرواق ممسكًا بمنديله، وقبَّل زوجته في أدبٍ على وجنتيها:

ـ عزيزتي، عزيزتي.. أنا سعيد بوصولك، لقد فقدنا الأمل أن تأتي.

ـ قلتُ إنني سأصل اليوم، أليس كذلك؟ هل تعرف أن من ديدني إخلاف مواعيدي؟ لقد أحضرت «آرثر» معي.

قال دكتور «مونتاجيو» فاقدًا حماسه:

ـ «آرثر»؟

ـ كان لا بُدَّ لشخصٍ ما أن يقود السيارة إلى هنا. هل توقعت أن

أقود تلك المسافة كلها بنفسي؟ أنت تعرف جيدًا أن الطرق الطويلة ترهقني.. كيف حالك؟

التفت الدكتور مبتسمًا إلى «إليانور» و«ثيودورا» و«لوك» من خلفها، الذين اصطفوا في مدخل القاعة.

- عزيزتي، هؤلاء هم أصدقائي الذين كانوا يقيمون معي في «هيل هاوس» الأيام الماضية. «ثيودورا»، «إليانور فانس»، «لوك ساندرسن».

غمغمت «إليانور» و«ثيودورا» بعبارة ترحيب ما، وهزت السيدة «مونتاجيو» رأسها قائلة:

- أرى أنكم لم تكترثوا لنا، لقد تناولتم العشاء من دوننا.

- لقد يئسنا من قدومك.

- لقد أخبرتكَ أنني سأصل اليوم.. ربما أكون مخطئة، لكنني أذكر جيدًا أنني أكدت لك حضوري اليوم. سأحرص على تذكر أسمائكم جميعًا قريبًا. هذا الرجل المهذب برفقتي هو «آرثر باركر»، وقد أوصلني إلى هنا لأنني لا أحب قيادة السيارة بنفسي. «آرثر»، هؤلاء هم أصدقاء «جون». هل يمكن لأحدهم أن يتصرَّف بشأن نقل حقائبنا للأعلى؟

تقدم «لوك» والدكتور مغمغمين، وقالت السيدة «مونتاجيو»:

- أود أن أقيم في أكثر حجرة تزعم أنها مسكونة، أما «آرثر» فيمكنه المكوث في أي مكان. الحقيبة السوداء حقيبتي أيها الشاب، وتلك الأخرى الصغيرة. ضعهما في الحجرة المسكونة.

نظر «لوك» إلى الدكتور متسائلًا عن الحجرة المسكونة التي ذكرتها زوجته.

ـ حجرة الأطفال فيما أعتقد.. أعتقد أنها مصدر الظواهر الغريبة لـ «هيل هاوس».

زفرت السيدة «مونتاجيو» في ضيق قائلة:

ـ ألا يمكن أن تكون أكثر منهجية؟ أعتقد أنك أمضيت نحو أسبوع هنا من دون أن تفعل شيئًا باللوح! الكتابة التلقائية! لا أعتقد أيضًا أن واحدة من هاتين المرأتين تملك قدرة على الوساطة الروحية. آه، تلك هي حقائب «آرثر»، لقد جلب معه عصي الجولف، على سبيل الاحتياط.

سألت «ثيودورا»:

ـ الاحتياط من ماذا؟

التفتت السيدة «مونتاجيو» لها قائلة في برود:

ـ لا تدعيني أقاطع عشاءك.. أكملي طبقك..

قال دكتور «مونتاجيو» آملًا في أن يجد ما سيقوله استحسان زوجته:

ـ هناك بقعة شديدة البرودة عند عتبة باب حجرة الأطفال.

ـ نعم.. جميل.. هل سيحمل ذلك الشاب حقائب «آرثر» للدور العلوي أم ماذا؟ يبدو أنكم في حالة يُرثَى لها من التخبُّط هنا. كنت أتصور أن خلال تلك الفترة ستكون قد حصلت على أدلة كافية.. هل تجسدت أي كيانات أمامكم؟

ـ رأينا أن هناك نوايا للـ...

ـ حسنًا، أنا هنا الآن، سأرتب كل شيء.. أين يوقِف «آرثر» سيارتي؟

ـ هناك مرآب خلف المنزل حيث نحفظ سياراتنا. يمكنه أن يضعها هناك صباح الغد.

ـ هراء، لا أومن بتأجيل فعل ما وجب فعله. كما لا بُدَّ أنك تعرف يا «جون»، هناك الكثير ليفعله «آرثر» في الصباح بالإضافة إلى عمل الليلة. يجب أن ينهي مسألة السيارة الآن.

ـ الليل حالك في الخارج يا عزيزتي.

ـ أنت تذهلني يا «جون»، أتظن أنني أغفل عن أن الليل حالك في الخارج؟! للسيارة مصابيح يا «جون»، ويمكن لهذا الشاب أن يذهب مع «آرثر» ليريه الطريق.

ـ شكرًا يا سيدتي، لكن لدينا هنا سياسة تجاه الخروج في الظلام. يمكن لـ«آرثر» أن يخرج إن كان يرغب في ذلك، لكنني لن أفعل.

قال دكتور «مونتاجيو» في صوت خافت:

ـ «لوك» محق. لقد واجهت السيدتان ليلًا ما يمكن أن...

ـ هذا الشاب جبان.

قالها «آرثر» واقفًا مع حقائبه وعصي البيسبول خاصته جوار السيدة «مونتاجيو». كان «آرثر» ذا وجه محمر وشعر أبيض. أردف «آرثر»:

ـ يجب أن تخزى من قولك هذا أمام النسوة.

قال «لوك» في بساطة:

ـ النسوة خائفات كخوفي تمامًا.

قال دكتور «مونتاجيو» واضعًا كفه على عضد «آرثر» مهدئًا:

- بالتأكيد، بالتأكيد.. بعد أن تمضي وقتًا هنا يا «آرثر» ستجد أن موقف «لوك» أقرب للحكمة منه إلى الجبن. لقد اتفقنا على أن نمكث هنا بعد حلول الظلام.

- دعني أخبرك يا «جون» أنني لم أتوقع أن تكون بهذا القلق. أنا أستهجن الخوف في مواقف كهذه. تعرف أن أولئك الذين عبروا من عالمنا يتوقعون أن نتعاطف معهم، لا أن نخاف. ما يكمن في هذا المنزل سيستشعر خوفكم ويؤلمه هذا.

- يمكننا أن نتحدث عن هذا لاحقًا.

نظرت السيدة «مونتاجيو» بجانب عينها إلى «إليانور» و«ثيودورا» ثم قالت:

- بالتأكيد.. خسارة أننا قد قاطعنا عشاءكَ.

- هل تناولتِ شيئًا؟

- بطبيعة الحال، لن نتناول شيئًا يا «جون». أنا قلت إننا سنصل في موعد العشاء، ألم أقُل ذلك، أم ترى أنني نسيت ذلك أيضًا؟

فتح الدكتور «مونتاجيو» باب حجرة الصيد التي دلفوا منها إلى حجرة الطعام قائلًا:

- لقد أخبرت السيدة «ددلي» بقدومك، لقد قامت بإعداد وليمة رائعة.

يالبؤس دكتور «مونتاجيو».

تنحت «إليانور» عن الباب لتدع الرجل يقود زوجته إلى الداخل.

يبدو قلقًا، لا أعرف إلى متى سيمكنه المكوث معها هنا.

تساءلت «ثيودورا» هامسة في أذن «إليانور»:

ـ تُرى إلى متى ستقيم هنا؟

ـ أتخيل أن حقيبتها مليئة بالـ«إكتوبلازم» ومخلفات الأشباح.

جلس دكتور «مونتاجيو» على رأس الطاولة وسأل زوجته:

ـ إلى متى تنوين الإقامة هنا؟

تذوقت السيدة «مونتاجيو» بطرف ملعقتها صلصة «الكيبر» وقالت:

ـ حسنًا يا عزيزي، لقد وجدتم طاهية ممتازة. تعلم أنه يجب على «آرثر» أن يعود إلى مدرسته؛ فهو الناظر هناك. وقد قام شاكرًا بإلغاء مواعيده حتى يوم الاثنين؛ لذا سنعود عصر يوم الاثنين ليكون «آرثر» في مدرسته صباح الثلاثاء.

قال «لوك» همسًا لـ«ثيودورا»:

ـ لا بُدَّ أن تلامذته يقيمون الأعياد في المدرسة ابتهاجًا بالخلاص منه.

ـ يعجبني الطعام، سأتحدث إلى طاهيتك صباح غد.

ـ السيدة «ددلي» سيدة فاضلة.

قال «آرثر» مبتلعًا طعامه مخاطبًا «ثيودورا»:

ـ أرى الطعم منمقًا بشكل زائد. أنا رجل أحب الطعام البسيط المألوف، لحم وبطاطس مثلًا. لا أشرب، لا أقرأ أعمالًا غير هادفة،

لا ادخن.. يجب أن أكون مثالًا يُحتذى به لتلامذتي كما تعرفين.

- واثقة بأنك قدوتهم بالطبع.

مد «آرثر» ذراعه ليقرِّب طبق الزبد، فمالت السيدة «مونتاجيو» عبر المائدة مخاطبة إياه بلهجة آمرة:

- لا تثقل في الطعام يا «آرثر». أمامنا ليلة حافلة.

سأل الدكتور:

- ماذا تخططين لفعله بحق السماء؟

- سأفعل ما لم تستطع فعله، تلك أمور تبرع النسوة فيها.. بالطبع لا أعني النسوة كلهن.

نظرت إلى «إليانور» نظرة ذات معنى، ثم أردفت:

- كلتاهما لا تبرع فيها، أليس كذلك؟ بالطبع ستنكر يا «جون»، أنت بارع في إنكار حقائقي.

- عزيزتي...

- لا يمكنني الاستسلام لإهمالكم هذا. «آرثر» سيقوم بالحراسة، لهذا اخترته.

وجهت حديثها لـ«لوك» من دون أن تنظر إليه بشكل مباشر وأردفت:

- من النادر، كما تعلمون، أن يجد المرء من يعمل في مجال التدريس ويتفهم الماورائيات كذلك. ستجدون أن «آرثر» كذلك ذو علم كبير في هذه الموضوعات.. سأقيم في تلك الحجرة المزعومة بجوار ضوء

خافت، وسأحاول أن أتواصل مع أيٍّ ما كان يسكن هذا المنزل. لا أستطيع النوم طالما وُجدت أرواح مثقلة حولي.

هز «لوك» رأسه وصمت. قال «آرثر» في حماس:

ـ علينا القيام بواجباتنا بلا تردد أو خوف، دائمًا ما أقول ذلك لتلامذتي في المدرسة.

ـ دعونا نجرب جلسة باللوح بعد العشاء.. أقصد نجرِّب أنا و«آرثر» بالطبع، أما بقيتكم فأرى أنكم غير مؤهلين لذلك. سوف تبعدون الأرواح. سنحتاج إلى غرفة هادئة.

اقترح «لوك» في أدب:

ـ المكتبة.

ـ المكتبة؟ ربما تصلح. الكتب حاملة جيدة للأرواح. دائمًا ما تتجسَّد الكيانات بشكل أفضل في الأماكن التي تحوي كتبًا. لا أذكر أي مرة حدث فيها تجسد في مكان بلا كتب. هل المكتبة نظيفة من الغبار؟ لدى «آرثر» حساسية منه..

ـ السيدة «ددلي» تقوم بتنظيف المنزل كله جيدًا.

ـ أود حقًّا الحديث مع السيدة «ددلي» في الصباح. سترينا مكان المكتبة بالطبع يا «جون»، وسيُحضر هذا الشاب حقيبتي، الحقيبة الصغيرة. أحضرها لي في المكتبة. سننضم إليكم لاحقًا بعد جلسة اللوح، وسأحتاج بعد الجلسة كالعادة إلى كوب من الحليب وبعض الكيك، أو بسكوت مملح إن لم يكُن ملحه زائدًا. سأحتاج أيضًا إلى الحديث مع عقول ناضجة

ـ أفضِّل أن أبقى كما سأصل إليه.. «آرثر»!

ضحكت بخفة لـ«إليانور» و«ثيودورا» ثم خرجت برفقة زوجها و«آرثر» و«لوك». بعد برهة قالت «ثيودورا»:

ـ تعجبني تلك السيدة!

ـ لا أعرف، «آرثر» أقرب لذوقي، بالإضافة إلى أن «لوك» جبان، أليس كذلك؟

ـ «لوك» بائس، لم يكُن لديه أمٌّ أبدًا..

نظرت «إليانور» إلى «ثيودورا» فوجدتها تحملق فيها بابتسامة فضولية، فقامت «إليانور» مبتعدة عن الطاولة حتى إنها صدمتها فأوقعت كوب اللبن.

ـ يجب ألَّا نمكث وحدنا.. لنلحق بالآخرين.

خرجت «إليانور» من الحجرة، تكاد تعدو هاربة. ضحكت «ثيودورا» وعدت خلفها حتى وصلتا إلى حجرة الاستقبال. كان «لوك» والدكتور واقفَين أمام المدفأة.

ـ لو سمحت يا سيدي، ما اللوح الذي تحدثت عنه السيدة زوجتك؟

ـ بُلهاء.. آسف، الفكرة كلها تضايقني. لكن إن كانت تروق لها...

التفت إلى النار ونكز الخشب من تحتها بالمحراك في عصبية.

ـ اللوح هو شيء يشبه «الويجا»، يُستخدم كنوع من أنواع الكتابة التلقائية التي يزعمون أن الأرواح تكتبها لنقل معلومة ما إلى عالمنا،

محاولة للتواصل مع... مع كيانات غير مادية. حسب طريقتي العلمية، فإن تلك الكيانات موجودة فقط في أذهان من يحركون تلك الأداة. حسنًا، فاللوح هو قطعة خشب صغيرة خفيفة الوزن، على شكل قلب أو مثلث، مع قلم مثبت في أسفل الطرف المدبب، وتحت الطرفين الآخرين عجلتان صغيرتان تساعدان اللوح على الانزلاق بسهولة فوق الورق.

يضع شخصان إصبعيهما فوقه ثم يسألانه أسئلة، فيتحرك اللوح بواسطة ما لا يسعنا مناقشته الآن، إلى حروف مكتوبة على الورقة من تحته مشكّلًا إجابات ما. بالفعل اللوح هو نوع من أنواع لوحات «الويجا» المعتادة. رأيت أيضًا من يستخدمون زجاجة مربوطة إلى سيارة من لعب الأطفال بالطريقة نفسها ويدونون ما تمليه عليهم اللعبة السخيفة.

بالطبع تبدو تلك الإجابات سخيفة بلا معنى، مع أن زوجتي سنزعم أن لها ألف تأويل.

نكز الحطب نكزة أخرى وأردف:

- محض خرافات..

٢٨

ـ اللوح كان كريمًا معنا جدًّا الليلة. «جون»، بالفعل هناك عناصر دخيلة موجودة في هذا المنزل.

قالتها السيدة «مونتاجيو» فأمَّن على كلامها «آرثر» ملوحًا بورقة الانتصار قائلًا:

ـ أداة رائعة هي.

ـ لقد حصلنا على مجموعة معلومات قيمة بواسطتها. اللوح كان مصممًا على ذكر راهبة. هل قرأتم أو عرفتم أي شيء عن راهبة لها علاقة بالمكان؟

ـ راهبة في «هيل هاوس»؟ لا أعتقد.

ـ شعر اللوح بشعور قوي تجاه وجود راهبة في الأمر. ربما كان هناك تجسد داكن غامض يشبه الراهبات رآه أحد القرويين في الجوار،

هل يكرهون الخروج ليلًا؟

ـ تجسد لراهبة! أعتقد أنه تجسد شائع في الأساس كما يزعمون.

ـ «جون»، هل تلمِّح إلى أنني على خطأ مرة أخرى، أم غرضك هو وضع اللوح موضع الشك؟ أؤكد لك: إن لم تصدق كلامي، فاللوح بالتأكيد صادق في أن هناك تجسدًا لراهبة.

ـ كل ما أردت قوله يا عزيزتي هو أن تجسد الراهبة تجسد شائع وشهير جدًا. لم يكُن هناك أي راهبة ذات صلة بـ«هيل هاوس»، بل لم يكُن ثمَّة راهبة في...

ـ «جون»، لو سمحت، هل لي أن أكمل كلامي؟ شكرًا. الآن، هناك أيضًا اسمٌ ذُكر بكثرة، «هيلين» أو «إلين» أو «إيلينا». مَن عساها تكون؟

ـ عزيزتي، الكثير من الأشخاص عاشوا هنا...

ـ «هيلين» حذرتنا من راهب غامض. متى اجتمع راهبة وراهب في منزل واحد فإن...

قاطعها «آرثر»:

ـ لو أن المنزل قد بني فوق بناء آخر أقدم، فإن التأثيرات من البناء الأقدم تسود وتعلق في المكان الجديد.

ـ يبدو لي يا «آرثر» شيء يتعلق بعهود كنسية نُقضت، أليس كذلك؟

ـ بالفعل، كانت أشياء مثل ذلك تحدث تحت تأثير الغواية مثلًا.

حاول الدكتور المشاركة في الحديث قائلًا:

ـ بالكاد أعتقد أن...

ـ «آرثر»، أجرؤ على القول إن الراهبة قد دُفنت حية خلف جدار، كان ذلك عقابهم قديمًا. لن تتصوَّر كمية الرسائل التي تصل إليَّ من أرواح الراهبات اللائي دُفنَّ أحياء.

ـ عزيزتي، لم يكُن ثمَّة حدث موثق عن راهبة قد...

ـ «جون»، هل وصلك حديثي عن أنني أنا شخصيًّا قد وصلت إلي رسائل من راهبات دُفنَّ أحياء خلف جدران؟ هل تظن أنني أروج لأكاذيب يا «جون»، أم تلمِّح لكون راهبة تزعم أنها ماتت مدفونة خلف جدار ولم تكُن كذلك؟ هل من الممكن أن أكون مخطئة مرة أخرى يا «جون»؟

ـ بالطبع لا يا عزيزتي..

قال «آرثر» لـ«ثيودورا»:

ـ بشمعة واحدة وكسرة خبز كانوا يتركونهن خلف تلك الجدران حبيسات للأبد حتى يَمُتن. شيء بشع لو تفكرتِ فيه.

قال دكتور «مونتاجيو» محاولًا رفع صوته وإحكام جديته:

ـ لم تحبس راهبة خلف جدار قط، تلك خرافة، قصة، ادعاء اشتهر بين...

ـ نحن لن نتشاجر هنا يا «جون»، فلتؤمن بما تريد. فقط حاول أن تتفهَّم أنك في حاجة لأن تنحِّي وجهة نظرك جانبًا أمام بعض الأمور

غير المثبتة كحقائق؛ لذا فمن المهم أن تقبل إن كان ثَمّة راهبة في هذا المنزل وكذلك...

قاطعها «لوك» في تردد:

- ماذا كان هنا أيضًا؟ لديَّ شغف لمعرفة ما قاله الـ... اللوح.

حركت السيدة «مونتاجيو» إصبعها في وجهه متخابثة:

- لم يذكر شيئًا عنك، لكن ربما إحدى الشابتين في حاجة للإنصات لي.

مستحيل.. مستحيل..

قطعت السيدة «مونتاجيو» خاطر «إليانور» قائلة:

- الآن، «هيلين».. تريد منّا أن نفتش القبو القديم بحثًا عن بئر.

- عزيزتي، لا تخبريني أن «هيلين» قد دُفنت حية.

- لا أظن، كانت ستخبرني. «هيلين» كانت غامضة تمامًا بشأن ما علينا أن نجده في القبو. أشك أنه كنز ما، لا يجد المرء كنوزًا في مهنتنا. غالبًا ما سنبحث عنه هو معلومة تؤكد ما رأيناه بشأن الراهبة.

- أغلب الظن لن تجد سوى ثمانين عامًا من القمامة.

- لا أصدق ذلك الشك الذي يفعمك. أنت مِن دون الناس، أنت مَن جئت إلى هذا المنزل للبحث في أمر خوارقي. والآن بعد أن جلبت لك أدلة كاملة وخارطة للبحث عن الحقيقة أجدك تحتقر كلامي!

- ليس لدينا سلطة لحفر القبو! إيجاري للمنزل لا يخوِّل لي حفر الأقبية أو تخريب النقوش الخشبية أو نبش الأرضيات. «هيل هاوس»

لا زال مبلي فينا ونحن علماء لا مخربون.

ـ كنت أظنك تسعى خلف الحقيقة يا «جون».

ـ لم اسعَ في حياتي قدر سعيي خلف الحقيقة.

قام الدكتور «مونتاجيو» عابرًا الحجرة. وقف أمام لوح الشطرنج والتقط فارسًا وراح يديره بين أصابعه شاردًا، كأنما يحاول السيطرة على غضب عارم.

ـ يجب على المرء أن يتحلَّى بالصبر أحيانًا، لكنني أرغب في قراءة الرسالة التي وصلت إليَّ في نهاية الجلسة عليكم. هل معك الرسالة يا «آرثر»؟

قلَّب «آرثر» في الأوراق التي يحملها وناول السيدة «مونتاجيو» عدة ورقات مغطاة بكتابات متعجلة مبعثرة الأحرف. تابعت السيدة «مونتاجيو» السطور بطرف إصبعها قائلة:

ـ هنا.. اقرأ يا «آرثر» الأسئلة وأنا سأقرأ الإجابات. هكذا سيبدو الحوار واقعيًا مفهومًا.

مال «آرثر» على كتف السيدة «مونتاجيو» كي يقرأ معها من الورقة ذاتها وبدأ بسؤال:

ـ من أنتِ؟

ـ «نيل».. «نيللي»..

نظرت «إليانور» و«ثيودورا» إلى بعضهما البعض ثم إلى الدكتور..

أكمل «آرثر»:

- «نيل» من؟

- «إليانور».. «نيل».. «نيللي».. أحيانًا ما تكرر الأرواح اسمها بطرق شتَّى غريبة وكأنها تؤكد وصول المعلومة.. أكمل يا «آرثر».

- ماذا تريدين؟

- البيت.. أريد أن أكون في بيتي.

- وماذا تفعلين هنا؟

- أنتظر.

- ماذا تنتظرين؟

- البيت..

وأردف «آرثر»:

- ها هي تكرر الكلمة مرات ومرات بلا سبب.

- عادةً لا نسأل عن الأسباب؛ لأن أسئلةً من هذا النوع تربك اللوح. لكننا في هذه المرَّة تجرَّأنا وسألنا.. أكمِل يا «آرثر».

- لماذا؟

- أمي.. كنا على صواب حين فكَّرنا في السؤال؛ فقد كانت الإجابة واضحة أمام اللوح.. سألتها إن كان «هيل هاوس» هو بيتها.

- البيت..

ـ هل تتعذبين؟

ـ لم تجب عن هذا السؤال. في أحيان كثيرة ترفض الأرواح الاعتراف بالألم.

ـ هل نستطيع مساعدتك؟

ـ لا.

ـ هل يمكننا فعل أي شيء؟

ـ لا.. أنا ضائعة.. ضائعة.. ضائعة. هل ترون؟ تكرار الكلمة مرات كثيرة. أحيانًا ما يغطي تكرار كلمةٍ ما صفحات كاملة.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أمي.

ـ لماذا؟

ـ طفل.

ـ أين أمك؟

ـ البيت.

ـ أين بيتك؟

ـ ضائعة.. ضائعة.. ضائعة. ظلت تكرر الكلمة ذاتها ثم ما كان بعد ذلك كلامٌ بلا معنى.

ـ لم نعهد اللوح متعاونًا معنا مثل هذه المرة. تجربة رائعة فعلًا.

سألت «ثيودورا» في ضيق:

- لِمَ ذكرَت «نيل»؟ لِمَ يتعمد هذا اللوح الحقير مضايقتها واستقبال رسائل من...

- لم تجني أي فائدة من التعدي لفظيًا على اللوح.

قالها «آرثر» فأكملت السيدة «مونتاجيو» وهي تلتفت في حنق نحو «ثيودورا»:

.. هل أنتِ «نيل»؟ لِمَ تتكلمين إذًا؟!

- ثم؟

- لن يؤثّر شيء في محتوى الرسالة، اللوح يعرف الفرق بينكما.

قال «لوك» ضاحكًا:

- لا تشعري أن اللوح تجاهلك، لا تقلقي، سندفنك حيةً أنت الأخرى.

يبدو أن الجميع يتحاشى النظر إليَّ. يختلقون الشجار أو المزاح. لقد تم إقصائي عن المجموعة مرة أخرى.

- لِمَ تظنون أن هذا كله موجَّه لِي؟

وضعت السيدة «مونتاجيو» الأوراق على منضدة منخفضة وقالت لـ«إليانور»:

- ربما لكونك أكثر حساسية تجاه الأرواح من أي شخص آخر. كيف ظللتم أسبوعًا كاملًا هنا من دون أن تستقبلوا أي رسائل من

العالم الآخر؟ ليحرك أحدكم حطب النار، لقد خمدت تقريبًا!

قالت «ثيودورا» وهي تغوص في مقعدها وتلتقم كف «إليانور» في كفها:

- لا تحتاج «نيل» إلى رسائل من العالم الآخر. كل ما تحتاج إليه هو سرير مريح ونوم هانئ.

السلام، كل ما أريده في هذا العالم هو السلام. مكان هادئ أستلقي فيه وأفكر. مكان وسط الأزهار حيث أستطيع أن أحلم وأحكي لنفسي حكايات وردية.

٢٩

قال «آرثر»:

- سيكون مقرّي هنا، في تلك الحجرة جوار حجرة الأطفال. سأسمع أقل استغاثة منكم وسأكون مسلحًا بمسدس، أنا رامٍ ماهر. ومعي كشاف، وصافرة حادة الصوت. لن تكون ثَمّة صعوبة في استدعائكم في حال وجدتُ شيئًا يستحق أو احتجت... احتجت إلى صحبة. يمكنكم أن تناموا مطمئنين.

- «آرثر» سيحرس المنزل، على رأس كل ساعة سيقوم بجولة بين حجرات الطابق العلوي. لا يهم الدور السفلي اليوم؛ لأنني سأكون بالأعلى. لقد قمنا بذلك من قبلُ مرات كثيرة.

دعتهم لاتباعها إلى الطابق العلوي ففعلوا، متابعين لمساتها لنقوش الدرابزين والزينة على الحوائط.

ـ هي نعمة عظيمة، أن أعلم أن الكيانات الموجودة في المنزل في انتظار فرصة لتحرير أنفسهم من ثقل الأحزان بسرد حكاياتهم لي. «آرثر» سيتفقّد الغرف أولًا.

فتح «آرثر» باب الحجرة الزرقاء التي تتشاركها «إليانور» و«ثيودورا».

ـ معذرة سيدتيَّ.. معذرة. يالها من حجرة تليق بسيدتين ساحرتين مثلكما، سأزيل من على عاتقيكما عبء النظر أسفل الفُرش وفي الخزائن.

في صمتٍ، شاهدتا «آرثر» يزحف تحت الأسرَّة على كفيه وركبتيه، ثم يقف منظفًا كفيه من الغبار.

ـ كل شيء آمن تمامًا.

ـ أين وضع الشابُّ حقائبي؟

ـ في حجرة الأطفال، آخر الرواق.

تبع «آرثر» السيدة «مونتاجيو» إلى نهاية الرواق عابرين البقعة الباردة قبيل الباب.

ـ بالتأكيد سأحتاج إلى أغطية إضافية. اطلب من الشاب يا «جون» أن يحضر أغطية من الغرف الأخرى.

فتحت السيدة «مونتاجيو» باب الحجرة وتشممت الهواء متفحصة الفراش:

ـ الفراش يبدو نظيفًا، لكن هل تمت تهوية الغرفة؟

ـ لقد طلبتُ ذلك من السيدة «ددلي».

- أشم رائحة عطنة. «آرثر»، افتح النوافذ من فضلك.. مضطرون لذلك على الرغم من برودة الجو.

بتوحُّش، أطلت الحيوانات الصغيرة المنقوشة على الحوائط على السيدة «مونتاجيو»، كما ركَّزت منحوتتا الطفلتين على الباب أعينهما عليها. قال دكتور «مونتاجيو» في قلق:

- هل أنتِ متأكدة؟ أعني: هل تفضلين أن يبقى أحد منا معك في الغرفة؟

بدت السيدة «مونتاجيو» متألقة في حضور الأرواح حولها.

- عزيزي، كم من الساعات الطويلة أمضيتُ وحيدة في حضرة الأرواح! لا يوجد خطر هنا في تلك الأجواء من المحبة والتعاطف اللذين أحرص على نشرهما. أنا هنا كي أمدَّ يد العطف إلى من يحتاجون إليها في العالم الآخر. لقد انتهت وحدتهم؛ فأنا...

- حسنًا، سأترك الباب مفتوحًا.

- أغلقه بلا أقفال لو كنت مصممًا.

- سأكون في نهاية الرواق. لن أعرض عليكِ الحراسة بما أن «آرثر» قد تطوَّع لذلك. لكنني سأكون منصتًا لو احتجتِ إلى أي شيء.

ضحكت السيدة «مونتاجيو» ولوحت بكفها أمامه:

- الآخرون يحتاجون إلى الحماية أكثر مني. سأفعل ما يسعني فعله بالطبع، لكنهم ضعفاء للغاية بقلوبهم المتحجرة وأعينهم المعمية.

عاد «آرثر» و«لوك» من جولتهما لتفتيش الغرف الأخرى، هزَّ «آرثر» رأسه للدكتور قائلًا:

ـ الحجرة آمنة، يمكنك المبيت فيها من دون قلق.

ـ تصبحون على خير..

ـ لا تخافوا يا أعزائي، مهما حدث فلا تخافوا، أنا هنا!

أجابت «ثيودورا» السيدة «مونتاجيو» باسمةً في سخرية:

ـ شكرًا لكِ، تصبحين على خير.

سار «آرثر» خلف المجموعة يوصل كلًّا منهم إلى حجرته، مؤكدًا عليهم ألَّا يقلقوا لو سمعوا طلقات نارية.

دخل كلٌّ إلى مهجعه، بينما ظل دكتور «مونتاجيو» للنهاية، ينظر نحو باب حجرة زوجته المغلق ثم استدار داخلًا حجرته.

بمجرد أن أغلقت «إليانور» باب الحجرة عليها هي و«ثيودورا»، قالت الأخيرة:

ـ انتظري، «لوك» أخبرنا أنه سينتظرنا في نهاية الرواق. لا تغيِّري ملابسك، فقط ابقي هادئة.

فتحت فرجة بسيطة من باب الغرفة وهمست وهي تنظر:

ـ لقد أغلق «آرثر» باب حجرته، هيا..

في هدوء، خطت «إليانور» و«ثيودورا» فوق بساط الرواق ببطء شديد إلى حجرة الدكتور «مونتاجيو».

ـ تعاليا، بسرعة.

كان الدكتور فاتحًا بابه بقدر ما يمرر جسديهما فقط، ثم أغلق الباب عليهم في حرص.

كان «لوك» في الداخل متربعًا على الأرض.

ـ المكان لم يعُد آمنًا. هذا الرجل في مقدوره إصابة أي أحد منا بطلق ناري.

ـ لا يعجبني الوضع أيضًا يا «لوك»؛ لذا سأظل متيقظًا أرقب ما يحدث. أردتُ لهذا السبب أن تجتمعوا هنا كي أستطيع حمايتكم. شيء ما سيحدث.

ـ فقط نتمنَّى ألا تفعل شيئًا مجنونًا بلوحها الغريب هذا. آسفة يا دكتور، لم أقصد أن أقلل من شأن زوجتك.

ضحك دكتور «مونتاجيو» وهو بعدُ محدِّق في الباب.

ـ «ثيودورا»، لا عليكِ. زوجتي كانت تخطِّط لتمضية فترة إقامتنا كلها هنا معنا، لكنها كانت قد اشتركت في فصل لتعليم «اليوجا» فلن تفوِّت تدريباتها. هي سيدة فاضلة في جوانب أخرى كثيرة. هي زوجة ممتازة لكن هذه...

وأشار برأسه إلى نهاية الرواق.

ـ هذه هي رذيلتها الوحيدة.

قالت «إليانور»:

ـ ربما تظن أنها تساعدك بعملها هذا.

قبل أن يفتح الدكتور فمه ليجيب، انفتح باب الغرفة على مصراعيه فجأة ثم انغلق محدثًا دويًا. بعدها ساد صمت استطاعوا أن يسمعوا فيه صوت رياح عاتية تهب بين حوائط الرواق.

نظر كل منهم للآخر محاولين التظاهر بالشجاعة، قبل أن يضربهم البرد القارس مقرونًا بدويّ الريح وخبطات فتح الأبواب وانغلاقها في الطابق السفلي.

من دون كلمة، سحبت «ثيودورا» الغطاء من فوق فراش الدكتور ولفته حولها هي و«إليانور». كادت «إليانور» تتجمَّد على الرغم من ذراع «ثيودورا» التي تطوقها.

كان ذاك اسمي.. هو يعرف اسمي.

تعالى صوت الطرقات كأنها ترتقي السلم نحو الدور العلوي، تضرب كل درجة وتكاد تشقها. وقف الدكتور و«لوك» بجوار الباب في ترقُّب، وضع «لوك» كفه على كف الدكتور مانعًا إياه من فتح الباب.

ـ الأصوات بعيدة جدًّا عن غرفة الأطفال.

ـ كنت أظن أننا قد استنفدنا ذخيرة «هيل هاوس» من الطرقات، لكن ها هو يعيد الكرَّة مرة أخرى.

صمتت «ثيودورا» وهي تسمع الطرقات تقترب، تجمَّدت يد الدكتور على مقبض الباب هازًّا رأسه في قلق:

ـ يجب أن أخرج.. من المؤكَّد أن ما يحدث أثار ذعرها.

بدت الطَّرَقات كأنما داخل رأس «إليانور» أكثر من كونها في الرواق، فراحت تهتز للأمام والخلف ممسكةً بـ«ثيودورا».

ستستمر الطرقات غادية وعائدة على طول الرواق، ستطرق الأبواب كلها كما فعلت من قبلُ، ثم ستطرق بابنا كأنما تريد خلعه، ثم سيسود الصمت.. وقتها سننظر إلى بعضنا البعض ونضحك.

غطَّت «إليانور» عينيها بكفيها وتطوّح جسدها مع صوت الضوضاء. قالت «ثيودورا»:

- ذلك الشيء لم يؤذِنا من قبلُ؛ لذا لن يؤذي السيدة «مونتاجيو» أو «آرثر».

- أتمنى ألّا تفعل زوجتي أي شيء تجاه تلك الطَّرَقات.

كان لا يزال قابضًا على المقبض، لكنه بدا أقل حماسًا للخروج في تلك الضوضاء المرعبة.

عمَّ الصمت بشكل مفاجئ، فحبسوا أنفاسهم ترقُّبًا. أمسك الدكتور مقبض الباب بكلتا يديه. ابيَضَّ وجه «لوك» وارتجف صوته:

- هل يرغب أحدكم في بعض النبيذ؟ أريد بعض المشروبات الروحية التي...

- لا.. روحية؟! لا تستخدم تلك التورية هنا لو سمحت!

ضحكت «ثيودورا»، بينما أحضر «لوك» الزجاجة والكؤوس التي اصطكت بين أنامله.

- آسفة، لكنني لا أستطيع أن أفكر في الكلمة كتورية. هذا ما تفعله

المنازل المسكونة بحس الفكاهة.

أخرجت «ثيودورا» ذراعًا واحدة مرتجفة لتتناول كأسها من «لوك» وهي بعدُ متدثرة مع «إليانور» بالغطاء ثم قرّبت الكأس من شفتي «إليانور»:

- اشربي..

رشفت «إليانور»، ما زال البرد يجمّد أطرافها.

نحن في عين الإعصار، ليس أمامنا وقتٌ أطول.

شاهدت «لوك» يحمل كأس الدكتور «مونتاجيو» إليه، فسقطت الكأس من بين أصابع «لوك» المرتجفة عندما اهتزَّ الباب فجأة. أبعد «لوك» الدكتور عنه بينما ظل الباب على ارتجافه بلا صوت وكأنه سيُنتزع من مكانه تاركًا إياهم في مهب الريح.

تراجع الدكتور و«لوك» في هلع شاعرَين بقلة الحيلة. ظلت عينا «ثيودورا» على الباب وهمست:

- لا أفهم شيئًا.. لن يستطيع الدخول.. لا تدعوه يدخل، لن يدخل، أليس كذلك؟!

توقف الاهتزاز وبدأت اليد في الخارج تتحسّس الباب وتحاول إدارة المقبض. وحين فشلت، راحت تتحسس حلق الباب في محاولة لإيجاد مدخل ما.

قالت «إليانور»:

- هو يعلم أننا هنا.

نظر إليها «لوك» من فوق كتفه نظرة أخرستها، فلن يتحمَّل أحدٌ ضغطًا آخر.

الجو بارد للغاية. لن أستطيع النوم مرة أخرى مع كل تلك الضوضاء التي تصدح داخل عقلي. كيف يسمع الآخرون تلك الأصوات وهي قادمة من داخلي؟

أنا أختفي تدريجيًا في هذا المنزل، أذوب. هذه الأصوات تفتتني. ما سر الرعب الذي يعتلي الآخرين إذًا؟

بدأت الطرقات مجددًا بقبضة معدنية رنانة. وضعت «إليانور» كفها على فمها لتتأكد من أن الأصوات لم تنتزع وجهها بعد.

أنا اكتفيت..

انتقلت الطرقات إلى حجرة الأطفال، فأمسك «لوك» بذراع دكتور «مونتاجيو» مانعًا إياه من الخروج:

- لو لم تفتح زوجتك الباب فلن يستطيع الدخول.

أسند الدكتور رأسه إلى الحائط وأبقى «لوك» قبضته حول معصمه كي لا يتهوَّر ويخرج.

توقفت الطرقات وسمعوا صوت خطوات تذرع الرواق جيئة وذهابًا، كأنها خطوات وحش حبيس نافد الصبر. تتوقَّف الخطوات لحظات عند كل باب. ثم سمعت «إليانور» صوت الهمهمات في رأسها، ثم صدح صوت الضحكة الرنانة من خلف الباب.

قالت «ثيودورا» من خلف أسنانها المصطكة:

ـ فا في فو فام.. أشم رائحة إنسان هنا.. يذكّرني ما يحدث بحكايات الغيلان الخرافية.

تحولت الضحكة تدريجيًا إلى صرخة شنيعة، غطت «إليانور» رأسها بكفيها وأغمضت عينيها.

ارتجّ المنزل بأكمله وراحت الستائر تهتز والأثاث يتمايل. تصاعدت الاهتزازات من الدور السفلي إلى العلوي وكأنها ستفجّر الحوائط. سمعوا أصوات تكسير أطُر اللوحات المعلّقة في الرواق إذ تسقط أرضًا، وتحطم زجاج النوافذ.

التصق «لوك» والدكتور ظهريهما بالباب كي لا ينفتح، ومادت الأرض من تحت أقدامهما.

ـ المنزل ينهار..

قالتها «ثيودورا» في هدوء غريب، ممسكةً بأطراف الفراش كي لا تسقط، وكأنَّ انهيار المنزل هو راحتهم المنتظرة. بينما كانت الحجرة تدور في عيني «إليانور» الجاحظتين رعبًا.

عند الباب، تداعى الدكتور أرضًا فأمسك «لوك» به.

ـ هل أنت بخير يا دكتور؟ «ثيو».. هل أنتِ بخير؟

ـ أحاول التماسك، أنا قلقة على «إليانور».

ـ أبقيها دافئة. أعتقد أن الليلة ستكون حافلة.

كانت الأصوات تبتعد عن أذني «إليانور»، كان كل شيء بالنسبة لها

بعيدًا وخفيضًا. كأنَّ الظلام يملأ المسافات ويَخفض الأصوات، ولم تر سوى شحوب كفيها بينما كل شيء يبتعد، الفراش والباب والدكتور و«لوك» و«ثيودورا».

من بعيد، دوَّى صوت انهيار هائل، ظنت «إليانور» أنه البرج وقد تهاوى.

وأنا التي ظننت أن «هيل هاوس» سيصمد سنوات وسنوات أخرى. لقد ضعنا، ضعنا تمامًا. المنزل يدمِّر ذاته.

سمعت «إليانور» الضحكة المجنونة تعلو..

أنا أستسلم، لا أستطيع التحمل فوق هذا.. فليأخذني ما يريد أن يأخذني.. لن أقاوم أكثر.

ـ أنا آتية..

صرخت بها «إليانور» فاحتضنتها «ثيودورا» خائفة. ثم صمت كل شيء. ومن بين فرجات الستائر استطاعت «إليانور» أن ترى ضوء الشمس.

كان «لوك» جالسًا على كرسي، تغزو الكدمات جسده. يحتسي النبيذ في هدوء. بينما جلس الدكتور قبالته منمق الشعر في ملابس نظيفة مهندمة.

انحنت «ثيودورا» على «إليانور» النائمة هاتفة:

ـ إنها بخير على ما أظن.

جلست «إليانور» في ذعر ملتفتة حولها. كل شيء هادئ وفي مكانه. قالت «إليانور»:

ـ كيف؟

ضحك ثلاثتهم، وأضاف الدكتور في إرهاق يتنافى مع مظهره الهادئ:

ـ يوم جديد، ليلة جديدة..

كان حلق «إليانور» جافًا تخرج منه الكلمات محشرجة حارقة:

ـ كيف؟ هل هم؟

ـ كلاهما نائم كالأطفال. لا أصدق أن ما فعلته زوجتي أثار تلك العاصفة كلها.. لا أريد أن أسمع منها كلمة أخرى عن المحبة والتعاطف والتفهم.

لا بُدَّ أنني كنت أضغط على أسناني طيلة الليل، فكِّي يؤلمني.

ـ ماذا حدث؟

ـ «هيل هاوس» كان يرقص.. أو يقوم ببعض الشقلبات المسائية.

قال دكتور «مونتاجيو» في بطء:

ـ الساعة التاسعة. عندما تستعد «إليانور»...

قاطعته «ثيودورا»:

ـ تعالي يا صغيرتي، «ثيودورا» ستغسل لك وجهك وستعدك للإفطار.

٣٠

ـ هل أخبرهم أحدٌ أن السيدة «ددلي» ترفع الأطباق في العاشرة؟

قالتها «ثيودورا» وهي تنظر إلى قدح القهوة ومكاني السيدة «مونتاجيو» و«آرثر» الخاليين.

ـ لا أحب أن أوقظهما بعد ليلة كهذه.

ـ لكن السيدة «ددلي» ترفع الأطباق في العاشرة.

قالت «إليانور»:

ـ إنهما قادمان، أسمع خطواتهما على الدرج.

أرادت «إليانور» أن تخبرهم أنها تسمع كل شيء في كل أرجاء المنزل، لكنها صمتت.

سمعوا أصوات «آرثر» والسيدة «مونتاجيو» على مبعدة، فقال «لوك» متنهدًا:

ـ يا إلهي! لن يستطيعا أن يجدا غرفة الطعام.

هرع «لوك» ليفتح الأبواب كي يجدا طريقهما. دخلت السيدة «مونتاجيو» تحية زوجها بربتة على كتفه ثم هزت رأسها في تحية عامة للجميع.

ـ أعتقد أنه من الذوق أن توقظونا لتناوُل الإفطار. الطعام قد برد، هل بردت القهوة أيضًا؟

جلس «آرثر» ملقيًا تحية الصباح، وبدا عليه تعكُّر المزاج. هرعت «ثيودورا» لتملأ فنجانها بالقهوة قبل السيدة «مونتاجيو».

ـ سأتحدث مع السيدة «ددلي» اليوم، لا بُدَّ لتلك الغرفة أن تتلقَّى الهواء والشمس. القهوة باردة بالفعل..

سأل الدكتور في تردد:

ـ هل... كيف... كيف كانت ليلتك؟

ـ إن كنت تسأل عن ليلتي فأحب أن أخبرك أنني لم أنم للحظة. الحجرة لا تُطاق. كيف كانت ليلتك يا «آرثر»؟

ـ منزل قديم مزعج، أليس كذلك؟ ظل غصنٌ جاف يقرع نافذتي طيلة الليل.

ـ حتى مع النوافذ المفتوحة، الغرفة كانت عطنة للغاية. قهوة السيدة «ددلي» ليست سيئة بقدر سوء عنايتها بنظافة المنزل وتهويته. صُبّ لي فنجانًا آخرَ لو سمحت يا «جون». أنا مندهشة، كيف اخترت لي حجرة عطنة كتلك؟ لو كان لي أن أتواصل مع العالم الآخر فلا بُدَّ من وجود تيار هواء نقي في المكان.

قال «آرثر» حانقًا للدكتور:

- أنا لا أفهمك، لِمَ كل هذا التوتر الذي تشعر به تجاه ذلك المكان؟ لقد قضيت الأمسية كلها متيقظًا حاملًا سلاحي، ولم أرَ فأرًا يتحرك، فقط ذلك الفرع المزعج الذي ظل ينقر شباكي.

- لا تفقد الأمل يا «آرثر»، ربما نرى بعض التجسدات الليلة.

٣١

راحت «ثيودورا» تكتب سريعًا، بينما أغلقت «إليانور» نوتتها الخاصة ونظرت إلى «ثيودورا» مفكرة:

ـ «ثيو».. كنت أفكر في شيء.

ـ أكره كتابة تلك الملحوظات! أشعر بأنني بلهاء وأنا أحاول تدوين تلك الأحداث الجنونية.

ـ كنت أتساءل...

ـ تبدين جادة، هل أنت على شفا قرار مهم؟

ـ نعم، بخصوص ما سأفعله بعدها، بعد أن نغادر «هيل هاوس».

ـ حسنًا؟

ـ سآتي معك..

ـ ستأتين معي إلى أين؟

ـ إلى بيتك.. سآتي معك إلى بيتك.

اتسعت عينا «ثيودورا» وسألت:

ـ لماذا؟

ـ لم يكُن لديَّ من يعتني بي. أريد أن أكون في مكان أستطيع الانتماء إليه.

ـ ليس من عادتي التقاط القطط الضالة.

ضحكت «إليانور» هاتفة:

ـ هل تعتبرينني قطة ضالة؟

التقطت «ثيودورا» قلمها مجددًا وراحت تخط في نوتتها:

ـ حسنًا، لديكِ بيتك، ستكونين سعيدة بالعودة إليه عندما ينتهي هذا كله. «نيل»، «نيللي»، أعتقد أننا جميعًا سنكون سعداء بالعودة إلى بيوتنا. كيف تصفين تلك الأصوات التي سمعناها أمس؟ لا أجد وصفًا مناسبًا كي أكتبه.

ـ سآتي معك..

ـ «نيللي»، تلك فقط أيام صيفية في منزل عتيق في الريف. لديكِ حياة كاملة تعودين إليها، ولديَّ حياة. عندما ينتهي الصيف سنعود جميعًا. سأكتب لك وستكتبين لي، ربما نتبادل الزيارات. لكن أيام «هيل هاوس» لن تدوم للأبد.

ـ يمكنني أن أجد وظيفة، لن أكون عبئًا عليكِ.

وضعت «ثيودورا» قلمها في غضب:

ـ هل تذهبين دومًا إلى حيث لا يُرحّب بكِ؟

ابتسمت «إليانور» في صفاء قائلة:

ـ لم يرحّب بي في أي مكان من قبلُ.

٣٢

قالت «ثيودورا» شاردة:

ـ كل شيء هنا ناعم، وثير، أرائك عظيمة ومقاعد منتفخة، وحين تجلسين عليها تجدينها خشنة صلبة معادية.

ـ «ثيو»..

ـ وأكُفٌّ في كل مكان، أكُفٌّ زجاجية تمتد تجاهك من تماثيل الرضع الذين...

ـ «ثيو»..

ـ لا.. لن أصحبك إلى بيتي، ولا أريد الحديث في هذا الموضوع مرة أخرى.

تحدث «لوك» عن زخارف القاعات المشؤومة، والزجاج المغبر الذي يعكس الأضواء في تعاسة. لكن بدا أن المرأتين لا تكترثان لحديثه.

- ..... «ثيو»...

- «نيللي»، اتركيني وشأني. لنسِر نحو الجدول أو لنذهب إلى أي مكان.

- «إليانور»، لقد اقترحَتْ «ثيودورا» أن تذهبا إلى الجدول، أنتِ أردتِ بالطبع، يمكنني مرافقتكما.

قالت «ثيودورا»:

- كما تشاء.

- يمكنني مطاردة الأرانب، سأحمل عصا معي كي أبعدها. إن كنتما لا تريدان أن آتي فلا بأس.

- ربما تفضل «نيل» أن تظل هنا لتكتب اسمها على الحوائط.

- أنتِ لئيمة يا «ثيو»، لا تقولي ذلك.

ثم شرع «لوك» يكمل وصفه الدقيق لتفاصيل «هيل هاوس» الثمينة البرّاقة المقبضة، فانفرجت أسارير «ثيودورا» وظلت تلقي الدعابات حول كل ما يقول.

- «نيل»، أنتِ لا تنصتي لي.

- لقد أفزعها وصفك يا «لوك».

- ربما لأن «هيل هاوس» سيؤول إليَّ يومًا ما، بكل كنوزه الدفينة ووسائده الوثيرة فلن أكون رحيمًا مع المنزل يا «نيل»، وسأحطِّم كل ما لا يروق لي. سأضرب أعناق التماثيل بعصاي، وسأكسر كل تلك الأكف العجيبة الصغيرة و...

ـ أترى؟ لقد أفزعتها.

ـ أعتقد ذلك. «نيل»، أنا فقط أمزح.

ـ هو حتى لا يملك عصا ليحطم بها شيئًا.

ـ في الواقع يا «ثيو» عندي عصا بالفعل. «نيل»، أنا فقط أمزح. ما الذي تفكرين فيه يا «ثيو»؟

ـ تريدني أن أصحبها لبيتي بعد خروجنا من «هيل هاوس»، وأنا لا أريد ذلك.

ضحك «لوك» قائلًا:

ـ يالـ«نيللي» البائسة.. لنذهب إلى الجدول.

عبر «لوك» الشرفة الخارجية إلى العشب في الخارج:

ـ سأكون سيدَ منزلٍ عظيمًا عندما يؤول «هيل هاوس» إليَّ.

ـ لا أفهم لِمَ قد يريد المرء أن يملك «هيل هاوس»!

دار «لوك» على عقبيه متأملًا المنزل في إعجاب:

ـ لا يمكن أن يكون لديك شعور ما تجاه شيء لن يحدث لك. ربما كنت سأشعر بشيء مختلف لو لم أرَ هذا المنزل وأعرف أنه سيكون ملكي.

أخيرًا فتحت «إليانور» فمها واجمةً وقالت:

ـ لقد كان خطئي أن ماتت والدتي. لقد قرعَتِ الحائط وراحت تنادي عليَّ، تنادي وتنادي ولم أسمعها، كنت نائمة. كان عليَّ

أن أسمعها وأحضر لها الدواء كما اعتدتُ دائمًا. لكنها نادتني ولم أسمع، لم أستيقظ.

ـ «نيل»، يجب أن تنسي ذلك كله.

ـ كنت أسأل نفسي من وقتها: ماذا لو كنت قد صحوت وأعطيتها الدواء ثم نمت مرة أخرى؟ لم تكُن لتموت، ولم أكُن لألوم نفسي حتى الآن.

ـ انعطِفا من هنا إن كنا سنذهب إلى الجدول.

ـ أنتِ تفكرين بشكل زائد يا «نيل». أحيانًا ما أشعر أنكِ تحبين أن تؤنبي نفسك.

ـ كان سيحدث هذا آجلًا أم عاجلًا، لكن متى كان سيحدث ستكون غلطتي.

ـ لو لم يحدث هذا لما جئتِ إلى «هيل هاوس».

لقد أخبرتها عن أمي، والآن أعرف أين سأذهب. سأشتري شقة كشقتها وسنتبادل الزيارات. سأراها كل يوم ونخرج لنبحث عن أطباق مذهبة، وقط أبيض، وكوب نجوم. لن أخاف أو أكون وحيدة مرة أخرى، وسأخبر الناس أن اسمي فقط «إليانور».

كان «لوك» و«ثيودورا» يتحدثان، بينما تقدمتهما «إليانور» على الممشى الضيق:

ـ هل تتحدثان عني؟

ـ صراع بين الخير والشر على روح «نيل».

ردت «ثيودورا» على مزاح «لوك» قائلة:

- بالطبع لن يسعك أن تثقي بأحدنا.

- لا تثقي بي تحديدًا.

- بالإضافة إلى أننا لا نتحدث عنك مطلقًا يا «نيل».. اطمئني.

لقد انتظرت تلك الفترة كلها كي أحصل على سعادتي المستحقة.

قادتهما «إليانور» إلى ما فوق التل، وظهرت قمم الأشجار المدببة التي عبروا خلالها منذ قليل. كان «لوك» مخطئًا حين ظن أن كل شيء في المكان ناعم، طري. تلك الأشجار جامدة مدببة شامخة.

ما زالوا يتحدثون عني، وعن كيفية مجيئي إلى «هيل هاوس» وكيف قابلت «ثيودورا». لن أترك «ثيودورا» تبتعد عني.

كان صوتهما يصل إلى أذني «إليانور» مدغمًا؛ فتارة تسمع ضحكات، وتارة تسمع شجارًا عفويًا ضاحكًا. تستطيع «إليانور» أن تعرف من دون أن تلتفت إليهما أنهما دخلا خلفها منطقة الحشائش من صوت أقدامهما على العشب، وهروب نطاط الحقل أمامها.

أستطيع أن أسمع «ثيودورا» في متجرها. تحب هي الأشياء المميزة الجميلة، وسأذهب معها بحثًا عنها. يمكننا الذهاب إلى حيث أردنا، يمكننا الذهاب إلى نهاية العالم إن شئنا، ونعود متى أحببنا.

«لوك» يخبرها الآن بما يعرفه عني، وأنني صعبة المنال. يخبرها أن حولي حائطًا من أزهار الدفلة تحميني، وهي تضحك لأنها تعرف أنني لن أبقى وحيدة بعد عودتي من «هيل هاوس».

متشابهان، عطوفان، لن أتوقَّع أكثر ممَّا يمنحانه لي. كنت على حق حين أتيت؛ فدائمًا ما تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة.

دخلت «إليانور» تحت أفرع أشجار جافة، وكان الجو لطيفًا في الظل بعد مسيرتهم تحت الشمس. كان عليها أن تسير بحرص لأن الطريق منحدر مكلل بالأحجار.

من خلفها استمرت أصوات حديث «ثيودورا» و«لوك» سريعة حادة، ثم هادئة ضاحكة.

لو نظرتُ خلفي سيعرفان ما أفكِّر فيه. سنتكلم أنا و«ثيو» عن حديثهما هذا لاحقًا، حين نملك الوقت معًا.

شعور غريب أن أخرج من بين الأشجار إلى الطريق الهابط نحو الجدول، وكأنني في أرض العجائب. لن أنظر خلفي حتى أصل إلى الجدول، حيث استلقت «ثيودورا» في أول يوم لنا هنا.

سوف أذكِّرها بالسمكة الذهبية والجدول ونزهتنا الأولى، وسنضحك كثيرًا.

سمعت «إليانور» وقع أقدامهما تنزل الطريق خلفها فصاحت:

- أسرعا..

واستدارت تحدِّث «ثيودورا»:

- أنا...

لم يكُن ثَمَّة أحد في التل، لا شيء سوى صوت الخطوات التي تقترب منها هابطة من أعلى، وصوت ضحكة باهتة.

- من هناك؟ من؟

همست «إليانور» بسؤالها في ذعر؛ فقد كانت ترى انبعاج العشب تحت وطأة أقدام غير مرئية. وأت نطاط حقل آخر يفر من مكمنه. سمعت احتكاك الخطوات بالطريق الصخري الضيق، ومن خلفها سمعت ضحكة رنانة أخرى قريبة جدًّا.

- «إليانور».. «إليانور»..

سمعت النداء داخل عقلها وخارجه. كان نداء سمعته طيلة عمرها. اقتربت الخطوات منها، ثم التفت في غطاء من هواء بارد شعرت فيه كأنها في مصيدة.

- «إليانور».. «إليانور»..

سمعت النداء في مرور الهواء جوار أذنها.

- «إليانور».. «إليانور»..

كانت في حضن آمن، لم تعد تشعر بالبرودة. أغمضت عينيها ومالت نحو الضفة.

لا تتركني، لا تتركني.. ابقَ معي..

تفكَّك الحضن القوي وزال تدريجيًّا، تاركًا إياها وحيدة.

- «إليانور».. «إليانور»..

سمعت النداء مرة أخرى وهي واقفة جوار الضفة، ترتعد وكأن الشمس قد زال دفئها. شاهدت «إليانور» أثر الخطوات على الماء، تبتعد

إلى الضفة الأخرى، تنثر الماء البارد حولها. حتى تصل إلى العشب على الجانب البعيد وتختفي وسط الطريق.

عد إليَّ..

واقفة ترتجف جوار الجدول، ثم استدارت فجأة تعدو إلى الأعلى:

ـ «ثيو».. «لوك»..

وجدَتْهما وسط الأشجار في الأعلى، يستندان إلى جذع ضخم، يتهامسان ويضحكان. عندما جرت «إليانور» نحوهما فزعًا، تغيّر تعبير وجه «ثيودورا» إلى الغضب:

ـ ماذا تريدين هذه المرة يا «نيل»؟

ـ لقد انتظرتكما بجوار الجدول.

ـ لقد قررنا أن نمكث هنا.. الجو أفضل. ظننّا أنكِ سمعتِنا ونحن ننادي عليكِ. ألم ننادِ عليها يا «لوك»؟

رد «لوك» شاعرًا بالحرج:

ـ آه، نعم. كنا متأكدين من كونك سمعتنا.

ـ أيًا ما كان، كنا سنذهب إلى حيث انتظرنا خلال دقيقة، أليس كذلك يا «لوك»؟

ـ بلى.. بالطبع.

٣٣

- مياه جوفية.

قالها الدكتور وهو يلوِّح بشوكته.

- هراء.. هل تطهو لكم السيدة «ددلي» كل طعامكم؟ «الإسبارجاس» شهي، دع الشاب يضع لك المزيد منه في طبقك يا «آرثر».

- عزيزتي، لقد أصبح من عاداتنا أن نرتاح قليلًا بعد الغداء؛ لذا...

- بالطبع لا. لديَّ الكثير لأفعله قبل رحيلي. يجب أن أتحدث لطاهيتكم، يجب أن أتأكد من تهوية حجرتي، يجب أن أعدَّ اللوح لجلسة أخرى هذا المساء. يجب أن ينظِّف «آرثر» مسدسه كذلك.

- هذه هي علامة المحارب، يجب أن يكون المحارب مستعدًّا!

- بالتأكيد يا «آرثر». لو أراد هؤلاء الشباب أن يستريحوا فليفعلوا، فلن يشعروا أبدًا بحالة الطوارئ التي أشعر بها. ذلك الدافع كي أساعد

الأرواح المعذبة البائسة التي تهيم هنا. ربما تجدونني حمقاء حين أتحدث عن هذه الرغبة، لكنني لا أقدر على تحمُّل شقاء تلك الأرواح المهجورة الوحيدة.. فقط الحب الصادق هو ما...

قاطع كلامها صخب حكايات «آرثر» التي يسلّي بها «ثيودورا» عن المدرسة والرجولة، بينما راح «لوك» يتسلى بإغاظته بمزاحه. لكن «آرثر» لا يفهم المزاح؛ لذا ظل يحكي ويحكي بلا توقف، حتى حضرت السيدة «ددلي».

ـ أنا أرفع الأطباق في الثانية.. الساعة الآن الثانية.

٣٤

ضحكت «ثيودورا»، بينما «إليانور» مختبئة في الظلال خلف المنزل الصيفي واضعةً كفها على فمها، مانعة نفسها من إصدار أي صوت لكي لا يعرفوا بوجودها.

يجب أن أعرف، يجب أن أعرف.

- تُدعى جريمة قتل «جراتان».. حكاية رائعة يمكنني حتى أن أغنيها لك.. هناك أغنية عن الجريمة بالفعل.

- يالك من وغد..

- هذا هو المتاح، إلا إذا كنتِ تفضلين قضاء الوقت مع «آرثر»..

- بالطبع أفضِّل المكوث مع «آرثر». الرجل المتعلم أفضل رفيق.

- أفْضَلُ رفيق يلعب الكريكت، متخيلة؟ هل ما زال أحد يلعب الكريكت؟

ـ غنّ، غنّ!

وتوالت ضحكات «ثيودورا». راح «لوك» يغني بصوت أنفي حكاية الجريمة التي حدثت في مقاطعة «جراتان».

ـ في البداية، كانت السيدة «جراتان»..

حاولت أن تمنعه من الدخول..

لذا طعنها بسكين، وهكذا بدأت جرائم المخبول.

تاليًا كانت الجدة «جراتان»..

عجوز متعَبة كئيبة.

أرهقت مهاجمها حتى خارت كالزكيبة.

ثم جاء دور الجد «جراتان»..

جالس جوار النار.

تسلل القاتل من خلفه..

ثم خنقه بسلك، ياللعار!

أخيرًا جاء دور الطفل «جراتان»..

متكورًا في سريره..

طعنه بين أضلعه، فانفرجت أساريره.

بصق المجرم التبغ من فمه..

ولم يأبه للصغير الغارق في دمه.

عندما انتهى من الغناء، ساد الصمت برهة، ثم قالت «ثيودورا» في وهن:

- جميل يا «لوك»، رائع.. لن أسمعها مرة أخرى من دون أن أفكر فيك.

- أفكر في أن أغنيها لـ«آرثر».

متى سيتحدثان عني؟

قال «لوك» ناعسًا ممددًا على الدرجات:

- تُرى، ماذا سيكون موضوع كتاب الدكتور المقبل؟ هل سيذكرنا فيه؟

- ربما ذكرك كباحث شاب عن الخوارق، وربما ذكرني بأنني سيدة عظيمة الموهبة مشكوك في سمعتها.

- هل سيختص السيدة «مونتاجيو» بفصل كامل؟

- و«آرثر»، والسيدة «ددلي» وطعامها..

- هل تعرفين ما أود فعله حقًا؟ أريد أن أستكشف.. لنتبع الجدول حتى يقودنا إلى التلال حيث ينبع. ربما وجدنا بِركة نسبح فيها قليلًا.

- أو شلال، يبدو الجدول نابعًا من شلال.

- لنذهب إذًا..

من خلف المنزل الصيفي، سمعتهما «إليانور» يضحكان وتبتعد خطواتهما.

٣٥

قال «آرثر» في سعي جاد ليبدو مسليًا:

ـ هناك شيء شائق هنا في هذا الكتاب.. هذه وصفة لصنع الشمع من أقلام تلوين الأطفال.

رد الدكتور في إرهاق:

ـ شائق بالفعل. إذا سمحتَ لي يا «آرثر» فلديَّ ملاحظات كثيرة تحتاج إلى التدوين.

ـ بالطبع يا دكتور. لدينا جميعًا أعمال نقوم بها.

وقفت «إليانور» تنصت خارج حجرة الاستقبال إلى الحوار الدائر.

ـ لا يوجد الكثير لإمضاء الوقت هنا، أليس كذلك؟ كيف تقضون الوقت هنا عامة؟

ـ في العمل.

ـ هل تكتب كل ما يحدث في المنزل؟

ـ أجل.

ـ هل كتبت عني؟

ـ لا.

ـ ظننتك تدوّن ما استنتجناه من اللوح.. ماذا تكتب إذًا؟

ـ «آرثر»، هل يمكنك أن تقرأ شيئًا أو تنشغل بأي نشاط؟

ـ بالطبع. لم أقصد أن أكون مصدرًا للإزعاج.

سمعت «إليانور» «آرثر» يأخذ كتابًا ويضعه على طاولة، ثم يشعل سيجارًا متنهدًا. ثم قال أخيرًا:

ـ اسمع، ألا يوجد ما يسلي هنا؟ أين الجميع؟

رد الدكتور في صبر بلا حماس:

ـ «ثيودورا» و«لوك» ذهبا ليستكشفا، وأعتقد أن الآخرين في مكان ما. وكحقيقة مجردة، أعتقد أن زوجتي تبحث عن السيدة «ددلي».

ـ حسنًا.. أعتقد أنني سأقرأ قليلًا.

لم تمر دقيقة حتى قال «آرثر»:

ـ دكتور، لا أقصد أن أضايقك، لكن انظر ماذا يذكر الكتاب..

٣٦

قالت السيدة «مونتاجيو»:

ـ لا أومن بجمع بعض الشباب وإرسالهم إلى مكان كهذا سيدة «ددلي». لو أن زوجي استشارني قبل تنظيم حفلته في ذلك المنزل الرائع...

سمعت «إليانور» صوت السيدة «ددلي» من خارج غرفة الطعام، ألصقت أذنها أكثر بالباب كي تسمع صوت السيدة الخفيض:

ـ أقول يا سيدة «مونتاجيو»: إن المرء يحيا شبابه مرة واحدة. وهؤلاء الشباب يستمتعون بوقتهم، وهذا شيء طبيعي بالنسبة لعمرهم.

ـ لكن أن يعيشوا تحت سقف واحد..

ـ بالتأكيد هم يعرفون الخطأ من الصواب. مثلًا تلك الشابة «ثيودورا» ناضجة بما يكفي كي تحافظ على نفسها. على عكس ذلك الرقيع «لوك».

ـ أريد منشفة جافة لو سمحتِ. من المؤسف أن نرى كيف يشبُّ

أولاد هذه الأيام على معرفة بكل شيء. يجب أن يُخفى عليهم ما يعرفه الكبار، أمور عليهم الانتظار حتى ينضجوا فيعرفوها.

ـ سيعرفونها على أي حال، بدلًا من أن يعرفوها متأخرًا.

بدا صوت السيدة «ددلي» مرتاحًا بهيجًا وهي تضيف:

ـ لقد أحضر «ددلي» تلك الطماطم من الحديقة اليوم. لقد كان محصولًا جيدًا هذا العام.

ـ هل أساعدك في تقطيعها؟

ـ لا، لا، استريحي، لقد ساعدتِني في تلميع الفضيات. سأعد لنا كوبين من الشاي.

٣٧

ـ تنتهي الرحلة بلقاء الأحبة.

قال «لوك» باسمًا، ناظرًا تجاه «إليانور» من الطرف الآخر من الحجرة.

ـ هل ذلك الفستان الأزرق الذي ترتديه «ثيو» فستانك؟ لم أرَهُ من قبل.

قالت «ثيودورا» في خبث ضاحكة:

ـ أنا «إليانور»؛ لأن لديَّ لحية..

ـ كنتِ حكيمة حين أحضرتِ ملابس تكفي لاثنتين يا «إليانور». لم تكُن «ثيودورا» لتبدو بهذا الجمال في ملابسي.

ـ أنا «إليانور»؛ لأنني أرتدي الأزرق، أحب حبي للآنسة «إ»، تلك الأثيرية المفهافة التي تُدعى «إليانور»، وهي تحيا في الخيال.

كانت تبدو حقودًا في عيني «إليانور»، وكان «لوك» يحاول التملق، وكان عليه أن يشعر بالخزي لسخريته من «إليانور» ومن دناءة «ثيودورا».

بنظرة جانبية سريعة لـ«إليانور»، قالت «ثيودورا»:

ـ «لوك»، غنِّ لي مجددًا!

ارتبك «لوك» وردَّ في انزعاج:

ـ لاحقًا. الدكتور أعد لنا رقعة الشطرنج.

ثم التفت مبتعدًا مترددًا. غاصت «ثيودورا» في كرسيها مغمضة عينيها، تشعر بالغضب تجاه رد «لوك»، عازمة على الصمت.

بينما حدقت «إليانور» في كفيها المفرودتين على فخذيها، منصتة لأصوات «هيل هاوس»:

في مكانٍ ما بالأعلى ينغلق باب، عصفور يغرِّد أعلى البرج ثم يطير مبتعدًا. في المطبخ صوت الموقد يطقطق فاقدًا حرارته. حيوان صغير يتقافز في مكان قريب من المنزل الصيفي، الغبار يتطاير برفق في القبو فوق الأخشاب المتهالكة.

فقط المكتبة ظلت مغلقة أمامها، لم تستطِع سماع صوت الأنفاس الثقيلة للسيدة «مونتاجيو» داخلها مع «آرثر» بجوار لوحها، ولا أسئلتها المتحمسة.

لم تسمع ذرات التراب المنحدرة من أعلى السلم الحديدي ولا أنات الدرجات الصدئة.

في حجرة الاستقبال، استطاعت، من دون أن ترفع عينيها، أن تسمع

صوت خبطات أصابع «ثيودورا» على مسند الكرسي، وحركات قطع الطرنج على اللوح الأملس.

انفتح باب المكتبة وصدح صوت خطوات غاضبة تتجه نحو حجرة الاستقبال، فالتفت الجميع نحو السيدة «مونتاجيو»؛ إذ دخلت عليهم صائحة بصوت حاد وأنفاس متقطعة:

ـ يجب أن أقول إن هذا أكثر شيء يمكن...

ـ عزيزتي..

أزاحته السيدة «مونتاجيو» من طريقها مكملة:

ـ يمكن أن يثير الغضب لديَّ.. فلو أن لديك بعضًا من الاحترام..

دخل «آرثر» خلفها وارتمى جالسًا على الأريكة، نظرت له «ثيودورا» فهز رأسه محذرًا من أن تتكلم.

ـ الاحترام يحتِّم عليك يا «جون»، بعد أن قطعت تلك المسافة أنا و«آرثر» كي نساعدكم، ألَّا أجد منك كل هذا التهكم والتشكيك، بل منكم جميعا. وهؤلاء...

وأشارت برأسها نحو «ثيودورا» و«إليانور».

ـ هؤلاء النسوة.. كل ما أردته منكم أقل القليل من الثقة، والتفهُّم لكل ما أفعله من أجلكم. لكنكم شككتم في، سخرتم، تهكمتم..

أشهرت إصبعها في وجه الدكتور محمرة الوجه هاتفة:

ـ اللوح، لم يتحدث إليَّ الليلة، ولا كلمة واحدة، كنتيجة لأفعالكم

وخلقكم. ربما لن يحدثني اللوح لأسابيع مقبلة. لقد حدث هذا من قبل، أؤكد لك أنه حدث من قبل عندما عرضت سمعته لمجموعة من المشككين. قد أفقد اللوح لمدة لا أعلمها، وكل ما أجده منكم هو الإهانة

ظلت مشهرة إصبعها في وجه الدكتور هنيهة بلا كلمات.

- عزيزتي، أؤكد لكِ أن ما حدث لم يكُن عن قصد منا أبدًا.

- كنتم تسخرون وتتهكَّمون، ألم تفعلوا؟ تشككون في اللوح بعد كل ما حدث أمام أعينكم؟ هؤلاء الشباب وقحون.

أزاحت السيدة «مونتاجيو» «لوك» من طريقها وجلست قاطعة عليه أي محاولة للحديث. تنهد الدكتور وأشار لـ«لوك» كي يعودا للشطرنج

تململ «آرثر» في كرسيه ثم مال هامسًا لـ«ثيودورا»:

- لم أرَها في هذه الحالة من قبلُ. ما حدث كان صعبًا عليها، أن تنتظر اللوح ليفضي إليها بلا نتيجة. كان ذلك بمثابة إهانة لها.

شاعرًا بالرضا كونه قد برع في شرح الموقف، أسند «آرثر» ظهره إلى الأريكة ومد ساقيه مسترخيًا.

بالكاد كانت «إليانور» تصغي لهم. كانت مشغولة بتفسير أنفاس وحركات الموجودين حتى لو لم ترفع عينيها نحوهم. كانت تسمع خطوات «لوك» رائحًا غاديًا، متمتمًا بكلمات لم تفهمها. طريقة غريبة للعب الشطرنج.

التفتت «إليانور» خلفها فوجدت «لوك» جالسًا يلعب أمام الدكتور، بينما استمر صوت الخطوات والتمتمات منبعثًا من منتصف الغرفة.

أخيرًا استطاعت «إليانور» أن تفهم تلك التمتمات.

ـ «لنذهب مشيًا عبر القرية..

لنذهب مشيًا عبر القرية..

لنذهب مشيًا عبر القرية..

كما كنا نفعل سابقًا».

كان الصوت أقرب للغناء. ابتسمت «إليانور» للَّحن الباهت اللطيف. كانت أغنية تعرفها.

وحين أفاقت «إليانور» سمعت السيدة «مونتاجيو» تتحدث لـ«ثيودورا»:

ـ اللوح أداة حساسة للغاية..

ما زالت غاضبة، لكنها بدأت تلين أمام ابتسامة «ثيودورا» المتفهمة.

ـ أقل تشكيك يؤثِّر فيه. ماذا ستشعرين لو شكك فيكِ أحد؟

ـ «لنخرُجْ من النافذة ونعُد منها..

لنخرُجْ من النافذة ونعُد منها..

لنخرُجْ من النافذة ونعُد منها..

كما كنا نفعل سابقًا».

كان الصوت لطيفًا، أقرب إلى صوت طفل يغني برقة متقطع الأنفاس. ابتسمت «إليانور» وتذكرت الأغنية، فطغى صوت الأغنية في عقلها على صوت السيدة «مونتاجيو».

- «لنذهب ونواجه أحبتنا..

لنذهب ونواجه أحبتنا..

لنذهب ونواجه أحبتنا..

كما فعلنا سابقًا».

تلاشى صوت الأغنية، وشعرت «إليانور» بهبَّة هواء متبوعة بصوت خطوات يقترب منها، ثم زفير دافئ على خدها.

التفتت «إليانور» متفاجئة. كان «لوك» والدكتور بعدُ منكفِئَيْن عل لوح الشطرنج، «آرثر» مائل بجسده قرب «ثيودورا» بينما تتابع السيدة «مونتاجيو» حديثها.

لم يسمع أحد شيئًا ولم يشعروا بشيء.

لم يسمع أو يشعر سواي.

٣٨

أغلقت «إليانور» باب غرفتها برفق خارجة، لم تُرِد أن توقظ «ثيودورا»، على الرغم من أن صوت غلق الباب بالكاد يُسمع لشخص ينام عميقًا مثل «ثيودورا».

تعلمتُ أن يكون نومي خفيفًا حتى أسمع أمي عندما تنادي عليَّ.

كان البهو مظلمًا، لا يضيئه سوى ضوء القمر المتسلل عبر الستائر المسدلة، الأبواب كلها مغلقة.

تسللت «إليانور» بقدمين حافيتين على البساط الوثير.

شيء مضحك، أن أعلم أن هذا هو المنزل الوحيد الذي لا أقلق بشأن إحداث صوت فيه في أثناء الليل. على الأقل لن يظنني أحدهم مصدر الصوت. فكل شيء يئز أو يفرقع.

استيقظت «إليانور» بخاطرٍ مُلِحٍّ، يجب أن تنزل إلى المكتبة. وقد

زوَّدها عقلها بحجة مقنعة، ألا وهي قراءة شيء يساعدها على النوم.

لو قابلني أحدهم سأخبره أنني سأبحث في المكتبة عن كتاب يساعدني على النوم.

وصلَتْ إلى باب المكتبة قبل أن تدرك ذلك، لكنها وقفت شاعرة بأنه غير مسموح لها بالولوج.

شمت رائحة عطن مألوف، فوجدت نفسها تصيح:

ـ أمي..

جاءها الرد من الدور العلوي مفاجئًا مفزعًا.

ـ تعالي..

هرعت «إليانور» تجاه الدرجات، تقطعها متلاحقة الأنفاس.

ـ أمي..

طفت ضحكة ناعمة حولها، أكملت صعودها لقمة الدرج وتوقفت، نظرت يمنة ويسرة، ونحو الأبواب المغلقة.

ـ أنتِ هنا، في مكان ما..

ردد الرواق صدى عبارتها..

في مكان ما.. في مكان ما..

ركضت «إليانور» نحو باب حجرة الأطفال. لقد زالت البقعة الباردة على عتبتها. رفعت «إليانور» وجهها نحو تمثالي الطفلتين على جانبي الباب مبتسمة. همست:

ـ هل أنتِ بالداخل؟ هل أنتِ بالداخل؟

راحت تدق الباب بقبضتيها في عنف. ردت السيدة «مونتاجيو»:

ـ أجل، ادخل أيًا من كنت..

لا.. لا..

لفت «إليانور» ذراعيها حول جسدها وضحكت بلا صوت.

ليست السيدة «مونتاجيو» من أريد.

ابتعدت «إليانور» عبر الرواق وصوت السيدة «مونتاجيو» يبتعد عنها:

ـ أنا صديقتك، لا أنوي أي أذى.. ادخل وأخبرني بما يثقل كاهلك.

لن تفتح الباب. هي ليست خائفة، لكنها لن تفتح الباب.

طرقت «إليانور» باب «آرثر»، ثم انتقلت للباب الذي تغفو خلفه «ثيودورا».

«ثيودورا» اللئيمة، الحاقدة. استيقظي.. استيقظي.

طرقت الباب وصفعته وركلته. أدارت المقبض مرات ومرات، ثم هرعت للطرف الآخر من الرواق حيث حجرة «لوك»، وتابعت الطرقات الحانقة.

افتح أيها الحقير، افتح. لن يفتح أحدهم بابه. سيمكثون في الداخل تحت أغطيتهم يرتجفون، يتساءلون عمّا سيحدث لاحقًا.

أتحداكم أن تفتحوا أبوابكم وتشاهدوني أرقص منفردة في «هيل هاوس».

سمعت صوت «ثيودورا» تنادي عليها، تنادي على الدكتور و«مولك»، وتخبرهما أنها ليست في غرفتها.

تزلت «إليانور» الدرجات مسرعة حين سمعت صوت باب الدكتور يُفتح، ثم صوته ينادي:

- «إليانور».. «نيل»..

يالكم من حمقى. الآن وجب عليَّ أن أدخل المكتبة.

أمي.. أمي..

توقفت أمام باب المكتبة، من خلفها سمعت أصوات خطواتهم الحيرى في الأعلى.

غريب هذا.. أستطيع سماع صوت المنزل، أستطيع الشعور به.

- يجب أن نبحث عنها، أسرعوا جميعًا..

حسنًا، يمكنني أن أسرع أنا أيضًا.

جرت «إليانور» نحو حجرة الاستقبال، حيث النار ما زالت تخبو ببطء. الشطرنج في مكانه يشي بلاعبيه، وشاح «ثيودورا» ممدد على ظهر كرسيها.

أمسكت به «إليانور» ونهشته بين أسنانها ممزقة أوصاله، ثم تركته حيث يجدونه على الدرج.

نزل الجميع منادين باسمها:

- «إليانور»، «نيل»..

سمعت اسمها يتردد في مكان آخر بعيد عبر المنزل.

أنا آتية، آتية..

اختبأت خلف الباب، تشاهدهم يتخبطون في ضوء كشاف الدكتور. كان باب المنزل مفتوحًا فهرع الجميع خارجين منادين باسمها.

تمسّكت «إليانور» بالباب الذي اختبأت خلفه وضحكت حتى دمعت عيناها.

لقد خدعناهم بسهولة، أولئك المتخاذلون، الصم.

دارت «إليانور» بين حجرات المنزل تضحك.

أستطيع أن أذهب أنّى شئت، يمكنني الاختباء منهم فور سماعي صوتهم، أنا أسمع كل شيء وأشعر بكل شيء.

حين عادوا إلى المنزل، خرجت «إليانور» إلى الشرفة، تداعب كاحليها نسمات التلال الباردة. نظرت «إليانور» إلى ما حولها هامسة:

«هيل هاوس» محظوظ، محمي بالتلال ودافئ.

شعرت بوقع أقدامهم فدخلت إلى حجرة الرسم عبر الشرفة الخارجية ووقفت أمام تمثال «هيو كرين».

ـ «هيو كرين»، هلّا رقصت معي؟

انحنت للتمثال الضخم، فلمعت عيناه. راحت ترقص أمامه وهو يشاهدها، متلألئًا في ضوء القمر.

راحت تغني:

- «لنخرج من النافذة ونعُد منها..

لنخرج من النافذة ونعُد منها..

لنخرج من النافذة ونعُد منها..

كما كنا نفعل سابقًا».

تدور «إليانور» حول المنزل عبر الشرفة الخارجية. تدور وتدور وتغني. لمست باب المطبخ في دورانها، فارتعدت السيدة «ددلي» على بعد ستة أميال من المنزل.

وصلت إلى البرج، لن تستطيع أن تلمس جدرانه، فغير مسموح لها بالاقتراب أكثر. دارت حتى وصلت إلى الباب الرئيسي لكنه كان مغلقًا، لكنها دفعته برفق فانفتح. لقد صار «هيل هاوس» ملكًا لها.

صاحت:

- أنا هنا.. أدور حول المنزل وأغني وأرقص..

صدح صوت «لوك» مناديًا:

- «إليانور»!

عادت «إليانور» نحو باب المكتبة ودفعته ثم دخلت.

ها أنا ذي، الجو دافئ لذيذ.

رأت في ضوء القمر السلم الحديدي المؤدي لأعلى البرج، حيث يقبع باب صغير في نهايته. من تحت قدميها تحركت أحجار الأرضية تداعب كعبيها. يحرك النسيمُ شعرَها برفق ويعبر من بين أصابعها.

رقصت في دوائر رافعة وجهها للأعلى، باسمة.

لا وجود لتمثالَي الأسدين الحارسين.. لا وجود لأزهار الدفلة السامة.

لقد كسرت لعنة «هيل هاوس»..

لقد عدت إلى بيتي، عدت إلى بيتي..

لأتسلق إذًا..

تتسلق «إليانور» الدرجات الحديدية الصدئة. ترى من موقعها الحشائش والأزهار حول المنزل، وترى البرج يعلوها. بدت لها السيدة التي صلَّت من أجلها، والطريق والقرية والدفلة القرمزية والأسدان كأن لم يكونوا. كل شيء انتهى والزمن قد توقَّف.

- «إليانور»!

للحظة لم تعرف من يكونون. هل هم ضيوفها في منزل الأسدين يتناولون العشاء على مائدتها المزدانة بالشموع؟ هل أتى منهم أحد على ظهر جواد نازلًا التلال الخضراء من أجلها ومن خلفه تتطاير الرايات؟

ترددت في أمر صعودها أكثر، ورأتهم صغارًا بعيدين، يرمقونها من فوق الأرضية الحجرية. ينادون باسمها.

- «لوك».. دكتور «مونتاجيو»، «آرثر»..

لم تستطِع تذكُّر أسماء البقية، وكانوا واقفين يرمقونها في ذعر. نادى دكتور «مونتاجيو»:

- «إليانور».. استديري برفق وتابعي الهبوط. ببطء.. ببطء.. وتمسكي جيدًا. هيا، لفي وانزلي..

تساءلت السيدة «مونتاجيو» مشوشة الشعر ترتدي رداء الحمام:

ـ ماذا تفعل بحق السماء؟! «آرثر»، أنزلها فورًا وضعوها في فراشها.

تقدم «آرثر» ومن خلفه «لوك» وبدآ في الصعود.

ـ خذوا حذركم، فهذا الدرج صدئ متآكل يكاد ينفصل عن الحائط.

صاحت السيدة «مونتاجيو» في راحة:

ـ لن يتحملكما السلم معًا، انزل يا «آرثر» وتعالَ هنا بجوار الباب.

ـ «إليانور»، هل تستطيعين الاستدارة والنزول ببطء؟

لم يكُن يفصلها عن القمة سوى الباب الصغير. راحت تدفعه، لكنه لم يتزعزع. طرقت عليه بكلتا قبضتيها بقوة.

افتح.. افتح وإلَّا لحقوا بي.

نظرت من خلف كتفها فرأت «لوك» يصعد في ثبات.

ـ «إليانور»، لا تتحركي، أنا قادم.

كان صوت «لوك» مرتجفًا خائفًا. نظرت إلى الواقفين في الأسفل فتذكرت اسم «ثيودورا».

ـ «ثيودورا»؟

ـ «نيل»، افعلي كما يطلبون منكِ.. أرجوكِ.

ـ «ثيو»، لا أستطيع أن أصعد، الباب مغلق..

كاد «لوك» يصل إلى حيث كانت، فقال لاهثًا:

ـ اثبتي مكانكِ..

ـ اثبتي مكانكِ يا «إليانور»..

ـ «نيل»، أرجوكِ افعلي ما يطلبون.

ـ لِمَ أفعل؟

نظرت «إليانور» إلى أسفل وتشوشت رؤيتها، السلم يكاد ينفك عن الحائط الحجري، يهتز ويتمايل بهما. كل شيء يتمايل ويخفت.

ـ كيف أنزل؟ دكتور، كيف أنزل؟

ـ تحركي ببطء وافعلي ما يقوله لك «لوك».

ـ «نيل»، لا تخافي، كل شيء سيكون على ما يرام.

رد «لوك» على صيحات «ثيودورا» ساخرًا:

ـ بالطبع سيكون كل شيء على ما يرام. ربما يُدق عنقي فقط حين أسقط. «إليانور»، أريدك أن تنزلي أمامي. بهدوء.. سأتبعك.

بوجه مبتلّ بالعرق ويدين مرتجفتين، شجّع «لوك» «إليانور» على أن تنزل نحوه.

ـ آخر مرة قلت لي فيها إنك ستتبعني لم تفعل.

ـ يمكنني أن أدفع بك من فوق السلم وأتركك تتحطمين على الأرض؛ لذا، أطيعي وانزلي أمامي.

نزلت «إليانور» ملصقة ظهرها بالجدار الحجري، عابرةً من أمام «لوك».

ـ انزلي، أنا خلفك..

نزلت في خطوات مرتجفة السلم المتداعي، ولم تنظر إلى أسفل مجددًا
ركَّزت تفكيرها على الدرجات التي كانت تئنُّ وتلتوي تحت قدميها
العاريتين، تحاول سماع خطوات «لوك» خلفها لتطمئن. قبيل وصولها
بلحظات اهتز السلم وكاد يتداعى. هرعت «ثيودورا» لتمسك الدرجات
وتسند «إليانور».

أمسك بها الدكتور و«ثيودورا» بين أذرعهما ووضعاها على كرسي
بجوار الكتب. ومن مكانها رأت السلم المخلوع من أعلى يتأرجح
ويتلوَّى في الظلام.

تراجعت السيدة «مونتاجيو» أكثر هي و«آرثر» إلى الباب، حيث
يتحاشيان انهيار السلم فوقهما.

ـ لا بُدَّ أنكم تتفقون معي على أن تلك الشابة منحتنا ليلة ليلاء بما
فيه الكفاية! سآوي إلى فراشي، هيا يا «آرثر».

قال الدكتور:

ـ «هيل هاوس»..

ـ هذا الهراء حتمًا أضاع فرصة رؤية تجسدات الليلة. لن نرى أحدًا
من أصدقائنا من العالم الآخر بعد تلك الضوضاء كلها؛ لذا اعذروني،
سأذهب للنوم لو كنتم قد انتهيتم من العرض وإزعاج مَن لديهم عمل
ليؤدوه.

خرجت السيدة «مونتاجيو» وخلفها «آرثر». نظرت «إليانور» إلى

الباب ثم إلى الدكتور و«ثيودورا».

- لقد كان «لوك» خائفًا..

- كان «لوك» خائفًا بالطبع. كنت أخشى أن نسقط وينتهي أمرنا. يالكِ من أنانية.

وافق الدكتور على كلام «لوك» وكذا فعلت «ثيودورا»، ثم أضافت:

- «نيل»، هل كنتِ مضطرة لفعل هذا كله؟

- أنا بخير.

لم تستطع «إليانور» النظر في وجه أيٍّ منهم، وظلَّت تحدق في قدميها متعجبة من أنهما حملاها حتى نزلت.

- لقد جئتُ للمكتبة كي أستعير كتابًا يساعدني على النوم.

٣٩

كان ما حدث كارثيًا، مهينًا. فعلت «إليانور» مثلما فعلوا، تناولت إفطارها واستمتعت بالشمس، وأدلت برأيها في أمور لا تذكرها. للحظات كادت تقتنع أن شيئًا لم يحدث ليلة أمس.

كانوا يعاملونها بشكل طبيعي ويعاملون بعضهم البعض كما اعتادوا. بعد الإفطار ذهبوا إلى حجرة الاستقبال وجلسوا أمام المدفأة.

ـ سيُحضر «لوك» سيارتك.

على الرغم مما كان يقوله الدكتور، فإنه قاله في رقة ورفق.

ـ ستصعد «ثيودورا» لتحزم لك حقائبك.

قهقهت «إليانور» قائلة:

ـ لن تجد «ثيودورا» ما ترتديه إذًا...

بدأت «ثيودورا» عبارة لم تكملها، بل أكملتها السيدة «مونتاجيو»:

ـ لقد فحصتُ الحجرة، ولا أعرف لِمَ لَمْ يخطر ببال أحدكم فعل ذلك من قبلُ.

ـ كنت سأفحصها يا عزيزتي..

ـ «جون»، لن تفعل شيئًا، فلا تتخابث عليَّ. أنا فحصتها.

سأل «لوك»:

ـ أيّ حجرة؟ حجرة «ثيودورا»؟

ـ لم يكُنْ ثَمَّةَ عطب بها.. الحجرة سليمة تمامًا ويمكن للآنسة أن تستعيد ملابسها.

ـ بالفعل يا دكتور، لقد دخلت الغرفة ووجدت أن ملابسي في حالة ممتازة كأن شيئًا لم يكن.

ـ بالطبع تحتاج الغرفة إلى تنظيف التراب، لكن ماذا أتوقَّع إن كنتم قد أغلقتم الباب ولم تستطِع السيدة «ددلي» الدخول؟

هزَّ الدكتور رأسه ناظرا لـ«إليانور» في أسف قائلًا:

ـ لا أستطيع أن أعبّر لكِ عن أسفي، لو أن ثَمَّةَ ما يمكنني فعله لكِ..

ضحكت «إليانور» في محاولة لكسب وقت تفكر فيه فيما يمكنها قوله.

ـ لكنني لا أستطيع الرحيل.

ـ لقد مكثت هنا بما يكفي.

حدقت «ثيودورا» بها وقالت في صبر:

ـ لا أحتاج إلى ملابسك. ألم تسمعي ما قالته السيدة «مونتاجيو»؟ «نيل»، يجب أن ترحلي من هنا.

استمرت «إليانور» في ضحكها، فلم يكُن في وسعها شرح موقفها أكثر.

ـ لكن لا يمكنني الرحيل!

قال «لوك» محاولًا إنهاء الأمر:

ـ سيدتي، أنت غير مرحَّب بك كضيفة في ممتلكات عائلتي.. آسف.

ـ ربما لو أوصلها «آرثر» إلى المدينة لاستطاع أن يتأكَّد من وصولها سالمة، أليس كذلك يا «آرثر»؟

هزت «إليانور» رأسها يمنة ويسرة مؤرجحة شعرها الكثيف حول رأسها، وسألت في سعادة:

ـ يتأكَّد من وصولي إلى أين؟

ـ لمنزلك بالطبع. «نيل»، سيوصلك إلى شقتك الصغيرة اللطيفة، حيث كل ما تملكين وتحبين.

ـ «ثيو»، ليست لديَّ شقة، لقد اختلقت هذا كله! أنا أنام على مهد في حجرة الأطفال في بيت أختي. ليس لديَّ بيت ولا أي مكان آخر أذهب إليه. لا أستطيع العودة إلى أختي لأنني سرقت سيارتها!

ضحكت «إليانور» لوقع كلماتها الحزينة المؤلمة. نظرت إليهم مرة أخرى مستعطفة:

ـ ليس لديَّ بيت، كل ما أملك مكوَّم في صندوق معي، على المقعد الخلفي للسيارة. كل ما أملك هو بعض الكتب، وألعاب من طفولتي، وساعة يد أمي؛ لذا، لا يوجد مكان في مقدوركم إعادتي إليه.

يمكنني أن أحكي، وأحكي.. أن أستمتع برؤية وجوههم المحملقة المتفاجئة. يمكنني أن أترك ملابسي لـ«ثيودورا» وأهيم على وجهي بلا مأوى، لكنني سأعود دومًا إلى هنا، إلى «هيل هاوس». ليتركوني إذًا هنا، هذا أسهل وأوقع.

ـ أريد أن أظل هنا.

قالت السيدة «مونتاجيو» متحاشية النظر إلى «إليانور»:

ـ لقد هاتفت أختك بالفعل، فسألتني أولًا عن سيارتها. كان تصرفًا وقحًا من «إليانور»، لكنني طمأنتها على عودة السيارة. كان من الخطأ يا «جون» أن تسمح للشابة أن تسرق سيارة أختها حتى تأتي إلى هنا.

ـ عزيزتي.. أنا لم أعرف..

لم يجد دكتور «مونتاجيو» ما يُكمل به كلامه، ففرد كفيه أمامه في حيرة وصمت.

ـ على أي حال، يجب أن تعود السيارة إلى صاحبتها. السيدة تريد أن تمضي إجازتها.

ـ أتفق معكِ يا عزيزتي، لكن من غير المحبَّذ أن نرسل أحدنا معها إلى المدينة. يجب أن تنسى «إليانور» كل شيء عن هذا المنزل وعنَّا. يجب أن تبتعد لتستعيد ذاتها مرة أخرى. «إليانور»، هل تعرفين طريق العودة؟

أجابت «إليانور» سؤال الدكتور بضحكة أخرى. قالت «ثيودورا» في عجلة:

ـ سأحزم لها حقيبتها، ولتذهب يا «لوك» لتحضر سيارتها أمام الباب.

ضحكت «إليانور» مرة أخرى أمام وجوههم المتحجرة:

ـ دُفنتُ حية خلف جدار.. دُفنتُ حية.. أريد أن أظل هنا.

٤٠

وقفوا صفًّا أمام الباب الرئيسي للمنزل، كجدار حامٍ يمنعها من العودة. تطل عليها نوافذ «هيل هاوس» ويظللها البرج الرمادي العتيق.

لو كان لها أن تبكي لبكت، لكن فيمَ البكاء؟ فابتسمت وهي تملأ عينيها بالمنزل، بنظراته الناعسة التي أطلت عليها فأفزعتها يوم أن جاءت.

المنزل ينتظر الآن، ينتظرني. ولن يرضيَهُ أحد سواي.

- «هيل هاوس» يريدني أن أبقى.

حدَّق الدكتور بها من دون رد، كان ظهره مواجهًا للمنزل ولم يبدُ عليه أي تفهُّم لما تقول.

- أنا آسفة، أنا فعلًا آسفة..

- ستذهبين إلى قرية هيلزديل.

اختصر كلماته خشيةَ أن يبوح بما لا يُقال، خشيةَ أن يتفوه بكلمة

طيبة أو بادرة تعاطف تزيّن لها البقاء.

استدارت «إليانور» تجاه سيارتها، أدارت عينيها بين التلال الخضراء والشمس الذهبية من خلفها.

ـ حين تصلين هيلزديل، ستدخلين إلى طريق رقم خمسة المتجه شرقًا. في آشتون استمري في الطريق رقم تسعة وثلاثين وسوف يوصلك إلى المدينة. عزيزتي، كل ما أفعله لأجل سلامتك. لو كنت أعرف ما سيحدث لكِ لكنت...

ـ أنا آسفة للغاية.

ـ لن نستطيع أن نغامر بأحدٍ منا. لقد أدركتُ الآن ما جررتكم إليه من مخاطر. الآن، تذكري، ستقودين حتى هيلزديل ثم...

ـ سيدي، أنا لم أكُن خائفة. أنا بخير الآن.. كنت، كنت سعيدة! سعيدة! لا أعرف كيف أصف لكم شعوري.. أنا لا أريد أن أبتعد عن «هيل هاوس».

ـ ألا تفهمين أننا لن نستطيع المخاطرة بكِ مرة أخرى؟

ـ لا تقلق، إحداهن تدعو الله لي. امرأة قابلتُها منذ زمن.

كان صوت الدكتور رقيقًا، لكنه لم يكُفّ عن هز قدمه متوترًا.

ـ سوف تنسين هذا كله سريعًا. يجب أن تنسي كل شيء عن «هيل هاوس». لقد كنتُ مخطئًا حين دعوتكِ.

ـ كم أمضينا هنا؟

ـ نحو أسبوع، لِمَ تسألين؟

ـ كان هذا الزمن هو أفضل وقت مر عليَّ في حياتي.

ـ لذلك يجب أن ترحلي في أسرع وقت.

أغلقت «إليانور» عينيها وتنهدت. كانت تشعر وتسمع وتشم «هيل هاوس» بكل تفاصيله. رائحة الأزهار الفواحة خلف المطبخ، صوت خرير مياه الجدول، النسيم يدفع ذرات الغبار على أرضية الطابق العلوي في رقة، السلم الصدئ ما زال يتمايل مع الريح، عينا تمثال «هيو كرين» تتألقان في ضوء الشمس المتسلل من بين الستائر، صوت السيدة «ددلي» تجهز الغداء لخمسة أشخاص.

كان «هيل هاوس» يراقب في صبر وغرور.

ـ لن أرحل.

قالتها «إليانور» مخاطبة النوافذ العلوية، عيني «هيل هاوس». فقد الدكتور تعقُّله وصبره صائحًا:

ـ سترحلين، حالًا!

ضحكت «إليانور» واستدارت مادة كفها تجاه «لوك»:

ـ «لوك»، شكرًا لمساعدتي ليلة أمس. لقد كانت حماقة مني، وكانت شجاعة منك.

ـ لقد فوجئتُ بما فعلتُ. الفضل لكِ في أن أعرف أكثر عن نفسي. سعيد بمعرفتك يا «نيل»، وأعتقد أننا لن نلتقي ثانية.

هتفت السيدة «مونتاجيو» في نفاد صبر:

ـ لا أجد داعيًا للوداع في حين يملك كلٌّ منا طنًّا من الأعمال التي عليه الانتهاء منها. لا فائدة من الجدل ما دام رحيلُكِ مؤكدًا. عودي إلى المدينة، أختك في انتظار سيارتها.

بعيدًا في القبو، يتزل الرماد برفق من المدفأة.. برفق..

ـ «جون»، أعتقد أن إرسال «آرثر» معها قد يكون أفضل للـ..

ـ لا، يجب أن تعود «إليانور» وحدها كما جاءت وحدها.

قادها «لوك» والدكتور إلى باب سيارتها، وأجلساها داخلها. في المقعد الخلفي وضعا حقيبتها إلى جوار صندوق مقتنياتها. على الكرسي المجاور كانت محفظتها وقفازها في مكانهما، وكان «لوك» قد ترك المحرك دائرًا.

تمسكت «إليانور» في ملابس دكتور «مونتاجيو» وتشبثت، فأزاح يدها بقوة:

ـ آسف.. وداعًا يا «إليانور».

ـ لا يمكنكَ أن تجبرني على الرحيل، لقد جئتَ بي إلى هنا بنفسك!

ـ وها أنا أرسلك بعيدًا عن هنا كما جئت بك. لن ننساك يا «إليانور»، لكن الأهم أن تنسي أنت «هيل هاوس» وتنسينا جميعًا.. وداعًا.

وضعت «إليانور» كفها على نافذة السيارة واستدارت برأسها:

ـ «ثيو»..

هرعت «ثيودورا» نحوها دامعة:

ـ كنت أظنكِ سترحلين من دون أن تودعيني. «نيل»، «نيللي» عزيزتي، أرجوكِ، حاولي أن تكوني سعيدة. لا تنسيني، فيومًا ما قد تتغيَّر الظروف ونزور بعضنا البعض، وسنمضي وقتًا رائعًا مسترجعتَين ما مر بنا هنا.. «نيل»، كنت أخشى أن ترحلي من دون وداعي.

ـ وداعًا «ثيودورا»..

مدت «ثيودورا» كفها ووضعتها على خد «إليانور».

ـ «نيللي».. اسمعي، ربما نتقابل هنا مجددًا يومًا ما.. هل تذكرين رحلتنا الخلوية التي لم نقُم بها؟

ـ وداعًا «ثيو»، وداعًا سيدة «مونتاجيو»، وأنت يا «آرثر».. وداعًا.

شعرت «إليانور» بأن السيارة معادية غريبة؛ فقد اعتادت على فخامة «هيل هاوس» ورحابته. ذكَّرت نفسها بأن تلوِّح لهم من نافذة السيارة، فربما كان لديهم ما يقولون لها.

ـ وداعًا.. وداعًا..

رفعت فرامل اليد وتركت السيارة تتحرَّك في بطء. لوَّحوا لها في سأم، ظلوا واقفين ليتأكدوا تمامًا من رحيلها.

سوف يراقبونني حتى أغيب عن أعينهم. شعور طيب أن يتابعوا رحيلي. ها أنا أرحل، إلى حيث تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة دومًا. لكنني لن أرحل.. «هيل هاوس» ليس بالبساطة التي يظنونها، لن أرحل لمجرد أنهم يريدون ذلك. «هيل هاوس» يريدني أن أظل معه.

ضحكت بصوت رجِّ السيارة من حولها وراحت تنشد:

ـ ارحلي يا «إليانور»، ارحلي يا «إليانور»، لا نريدك هنا في منزلنا، في «هيل هاوس». ارحلي يا «إليانور»، لا يمكنك البقاء. لكنني أستطيع.. ليس هم من يضعون قواعد اللعبة هنا. لن أرحل، «هيل هاوس» ملكي.

ضغطت بقدمها على دوّاسة البنزين..

لم يستطيعوا اللحاق بي هذه المرة. لكن لا بُدَّ أنهم يدركون الآن ما أفعله. تُرى من فهم أولًا؟ «لوك» على الأرجح. أسمعهم ينادون عليَّ..

أنا حقًّا أفعلها.. أتحرَّر..

أدارت المقود نحو الشجرة العملاقة عند منعطف الطريق، وقبل أن تتحطَّم السيارة عند الجذع العظيم خطر لـ«إليانور» خاطر..

ما الذي أفعله؟! ما الذي أفعله؟! لِمَ لا ينقذني أحد؟!

٤١

شعرت السيدة «ساندرسن» براحة عارمة حين علمت برحيل دكتور «مونتاجيو» ورفاقه عن «هيل هاوس».

قالت للمحامي إنها كانت ستطردهم لو ظهر على الدكتور «مونتاجيو» أي نية للبقاء أكثر.

سعدت صديقة «ثيودورا» بعودتها، بينما سافر «لوك» إلى باريس ليظل فترة بعيدًا عن كل شيء وعن رفاق السوء كما تمنت عمته دومًا.

ترك الدكتور «مونتاجيو» مؤخرًا التدريس نهائيًا بعد الصدى الذي أحدثه بحثه عن الظواهر الخوارقية في «هيل هاوس» ونجاح كتابه.

أما «هيل هاوس» نفسه، فوقف شامخًا وسط التلال، يحوي الظلام بين جنباته. صمد «هيل هاوس» هنالك لمدة ثمانين عامًا، وربما يظل كذلك لثمانين عامًا أخرى.

في باطنه، استمرت جدرانه منتصبة، وأحجاره متراصة، وأرضياته راسخة، وأبوابه موصدة. يغفو الصمت هانئًا في «هيل هاوس».

وأيًا ما كان يجول في جنباته، يجول وحيدًا.

تمت

أكتوبر ٢٠١٩م

أشباح هيل هاوس

تتلقى «إليانور فانس» رسالة من الباحث في مجال الماورائيات، دكتور «جون مونتاجيو»، يدعوها فيها إلى قضاء عطلة الصيف في المنزل المسكون الذي يُجري فيه بحثًا علميًا برفقة «ثيودورا» ووريث المنزل «لوك ساندرسن».

تترك «إليانور» خلفها حياتها البائسة الحزينة، لكنها لن تستطيع الخلاص من تأنيب الضمير وعبثية وجودها، لتصحب تلك المشاعر المريضة معها إلى «هيل هاوس»، منزل التل، الذي كان ينتظرها في صبر وخبث.

المؤلفة

شيرلي هاردي جاكسون، كاتبة أمريكية ذات صيت في مجال أدب الرعب والغموض. وُلدت عام 1916، وتُوفيت عام 1965.

على مدار عشرين عامًا، كتبت جاكسون ست روايات وسيرتين ذاتيتين، وأكثر من مائتي قصة قصيرة، ولها جائزة باسمها تُمنح للمبدعين في مجال الكتابة في أدب الرعب والغموض.

المترجمة

شيرين هنائي، كاتبة روائية ومخرجة رسوم متحركة وكاتبة سيناريو مصرية، ومحاضرة معتمدة من الأكاديمية العالمية للفنون والإعلام والإبداع بالولايات المتحدة في مجال ورش التدريب على الكتابة الإبداعية والروائية. صدرت لها روايتان مصورتان للكبار "كوميكس": هما "عجين القمر" و"الموت يومًا آخر". وفي مجال الروايات الطويلة، صدرت لها روايات "نيكروفيليا" 2011، "صندوق الدمى" 2012، "طغراء" 2014، "ذئاب يلوستون" 2015، "أسفار النهايات" 2017، "ملاعيب الظل" 2019.

تصميم الغلاف: كريم آدم